جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة القرآن وعلومه

الإيمان والتقوى في القرآن الكريم

الدكتور / جودة أبو اليزيد المهدى

القاهرة
١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥م

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين . أرسله الله بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا اليه بإذنه وسراجا منيرا وأنزل عليه القرآن العظيم : معجزة فوق المعجزات . وآية جامعة للآيات !!

وكتابا مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم .

أما بعد :

فما أجدر أمة شرفت بهذا القرآن العظيم وحظيت بهذا النور المبين بأن تلتف حوله . تقتبس من ضيائه ، وتقتات من هديه ، وتستمد ذاتيتها النورانيه من اشراقه ، لأنه معقد سموها وعزها ، ومناط سعادتها وسؤددها ومنار رشدها وهديها وعماد صلاحيتها وخيريتها وأفضليتها على سائر الأمم . إنه القرآن المجيد حبل الله المتين الذي من اعتصم به فقد هدى الى صراط مستقيم .

ومن واجب أمة القرآن وهى تنشد قوام صلاحيتها ومقومات خيريتها وارتقاء مكانتها تحت الشمس فى عالم اليوم أن تحقق أولا ذاتيتها القرآنية بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى ، فذاك هو السبيل الوحيد الذى لابديل له لتحقيق ماتنشده من أمن وعز وتقدم ورخاء وارتقاء الى أوج الكمال الذى تكفل به هذا الكتاب العزيز الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد .

إن القرآن الكريم هو دستور الحياة المثالية للفرد والأمة معا ، ودائرة التنزيل قد وسعت العالم بأسره وماضاقت عن شيء منه : **(مافرطنا فى الكتاب من شيء)**(١) ، **(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)**(٢) ، **(وكل شيء فصلناه تفصيلا)**(٣) ولكن : **(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)**(٤) ؟ ؟ **(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون)**(٥) انها دائرة مركز الاشعاع القرآنى التى يشع ضياؤها فى العالمين **(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا)**(٦) ، **(ان هو الا ذكر للعالمين)**(٧) هى الدائرة التى تشع منها أضواء الهدى العقدى والهدى التشريعى والهدى الأخلاقى هى دائرة

---

(١) سورة الانعام / ٣٨
(٢) سورة النحل / ٨٩
(٣) سورة الاسراء / ١٢
(٤) سورة (محمد) / ٢٤
(٥) سورة الزمر / ٢٧
(٦) سورة الفرقان / ١
(٧) سورة (ص) / ٨٧

النور والهداية التى تكفلت باصلاح الأمة جملة وتفصيلا ، ومن أصدق من الله قيلا وهو القائل سبحانه : **(ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ..)**(١)**أجل : إنه القرآن الذى تخشع له الجبال وتتصدع من ثقله ومن خشية الله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله)**(٢) . إنه القرآن العظيم .. المحيط الجامع لأسرار الوجود ، الذى تغيض أنهار الأفكار دهشة من بعد أغواره ، وتجفل قوافل العقول دون الوصول الى مشارف قراره ، وكيف لا وقد قال قائله جل شأنه : **(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الامر جميعا)**(٣) .
هو الشفاء والرحمة لمن آمن بما فيه : **(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)**(٤) فمتى تفيء أمة القرآن إلى أمر ربها والى كتابه لتتبوأ ذروة الخيرية على جميع الأمم وتحظى بوعد ربها فى كتابة العزيز : **(كنتم خيرأمة أخرجت للناس ..)**(٥) ؟ ؟

واذا كان الاعتصام بكتاب الله تعالى والاسترشاد بهديه هو واجب أمة القرآن قاطبة فإن ثمة واجبا خاصا يقع على عاتق أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، أولئك الذين تقلدوا شرف التنسك فى محراب التنزيل وتخصصوا فى خدمة كتاب الله تعالى ودراسة علومه وطمحوا فى نيل الإرث المحمدى فى الدعوة الى الله على بصيرة : أولئك لهم دور خطير وتبعات جسام تقاس على قدر عظم الرسالة وشرف الغاية التى تغيوها ، فقد روى عن الإمام مالك رضى الله عنه قال : **(بلغنى ان العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الانبياء)**(٦) اذا كانت تلك هى مسئولية العلماء عامة فكيف بمسئولية علماء التنزيل خاصة ؟ ؟ إن أولى متطلبات هذا الدور الذى يضطلع به اهل التنزيل تتمثل فى اخلاص النية لله وابتغاء وجهه تعالى بالعلم والتقرب اليه بالعمل طمعا فى شرف الانتساب اليه كما ورد فى الحديث . الشريف **(إن لله تعالى أهلين من الناس ، أهل القرآن هم اهل الله وخاصته)**(٧) وثانى متطلبات هذا الدور : يتمثل فى البحث الدائب والعكوف على مأدبة التنزيل والغوص فى بحار علومه واستيعاب مناهج تفسيره وادراك جوانب اعجازه والتمرس بلغته وتدبر وجوه خطابه وفقه أحكامه الى غير ذلك من أنواع علومه المترامية الأطراف .

---

(١) سورة الاسراء / ٩
(٢) سورة الحشر / ٢١ : قال الامام ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسيرها : (قال : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته اياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله) أنظر تفسير ابن كثير ٨ / ١٠٤ .
(٣) سورة الرعد / ٣١ وجواب (لو) فى الآية الكريمة محذوف تقديره : (.. لكان هذا القرآن) .
(٤) سورة الاسراء / ٨٢
(٥) سورة آل عمران / ١١٠
(٦) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الاصبهانى ٦ / ٣١٩
(٧) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وخرجه عنهم الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣ / ١٧١

وعلى عاتق علماء التنزيل والباحثين فى علومه تقع مهمة كبرى فى هذا الصدد وهى احياء التراث القرآنى بجوانبه المتشعبه وتحقيق ما أوشك ان يندثر من أضابيره ، ففى خزائن دور الكتب المنبثة فى أقطار العالم كنوز من التراث القرآنى والتفسيرى يرجع بعضها الى عصر التابعين وتابعيهم وتضم محصلات علوم السلف فى فقه التنزيل . واحياء هذا التراث أمانة فى عنق أهل العلم بقدر ماهو احياء للقلوب والأرواح المتعطشة لأنوار الفرقان .

ثم تأتى قمة الدور الرئيس الذى يضطلع به المتنسكون فى محراب التنزيل مبنية على الركيزتين السابقتين ليكتمل بالدعائم الثلاث دور الداعية القرآنى فى الدعوة الى الله على بصيرة : الا وهى تجسيد الهدى القرآنى بصورته الوضاءة المشعة فى شتى آفاق الحياة وفى مختلف الجوانب التى يتقلب فيها الانسان المعاصر وابراز ما خفى عن عالم اليوم من جوانب الهدى القرآنى وأبرز هذه الجوانب يتمثل فيما يلى :-

(أ) **الجانب العقدى** : المتعلق بقضايا الايمان الدائرة حول محاوره الثلاثة **(الإلهيات - النبوات - السمعيات من البعث ونحوه)** ولا بد من معالجة هذه القضايا على بساط البحث القرآنى وفى ضوء الوحى وحده بحيث لايكون العقل هو القاضى فى تلك القضايا - بل يقتصر على دوره المشروع كأداة مجندة لفهم الوحى لامدخل لها من ذاتها فى الحكم أو التقنين للجانب العقدى الذى تكفل به الوحى كلية ، ولا ينبغى اطلاقا ان تتجاوز تلك الأداة حدودها بالتحول الى دور التأثير الذاتى وتنتهك حرمة النص بالتأويل الجامح والشطط الفكرى الآبق عن رحاب الوحى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

(ب) **الجانب التشريعى** : الذى يتناول الأحكام العملية للفرد والمجتمع وهو الجانب الفقهى الذى يشمل العبادات والمعاملات بكافة أنواعها والحدود والأحوال الشخصية ، فقد تكفل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة التى هى بيان للقرآن بكل ما يتعلق بهذا الجانب من مختلف الزاويا والأبعاد وقد تفرد اتجاه تفسيرى للبحث فى هذا الجانب وهو (تفسير الأحكام) الذى وجه مفسروه عنايتهم اليه من الزوايا الفقهية المذهبية المختلفة .

(جـ) **الجانب الأخلاقى** : الذى يعنى بتربية الأمة أفرادا وجماعات ومعالجة النفس الانسانية من أدوائها ونوازعها الشريرة ، ويهذبها ويكملها بالفضائل الاسلامية ، ويربط الانسان بالمسئولية والجزاء ويكفل له دوافع الخير والرشد فى نفسه وبيئته ومجتمعه ، ومن أجل الدراسات القرآنية المعاصرة فى هذا الجانب دراسة الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله (دستور الأخلاق فى القرآن) .

وجماع مقاصد هذا الجانب يتمثل فى اصلاح داخل الفرد وتعميق صلته بالله

تعالى . واستنارة روحه وقلبه ووجدانه فيكون العبد صالحا مع الحق ومع الخلق ، وهذا هو نفسه مقصد التصوف فى الإسلام كما يتجلى فى نتاج قمم التصوف الاسلامى كالإمام الغزالى والمحاسبى وأبى طالب المكى والامام الشعرانى رضى الله عنهم . كما ينعكس جليا فى تفاسير الامام الفخر الرازى والامام البيضاوى والامام الألوسى وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين .

وبالنظرة العلمية المتفحصة فى هذه الجوانب الثلاثة نجد أنها هى نفسها أمور الدين الثلاثة التى وردت فى حديث سيدنا جبريل عليه السلام وهى (الإسلام . والايمان . والاحسان) فالجانب العقدى هو جانب الايمان ، والجانب التشريعى هو الإسلام والجانب الأخلاقى الصوفى هو مقام الاحسان . مقام : (**أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك**) وجملة الجوانب الثلاثة هى جماع أمور الدين قاطبة .

وابراز هذه الجوانب بفروعها وشعبها وقضاياها الكلية والجزئية المختلفة من المنطلق القرآنى الرحيب بالمعالجة العلمية الدقيقة الفاحصة المتعمقة هى المهمة الملحة والمسئولية المنوطة بأهل التنزيل وبالدعاة فى عالم اليوم . فى العصر الذى أنشبت فيه المادية الملحدة أظفارها . وتمنطقت بالسفسطة الجدلية العقيمة ، لتخرب العقائد وتقوض دعائم الايمان وفى الوقت الذى اقتحمت جيوش الغزو الثقافى حصون العلم والمعرفة بالتشكيك والتضليل من لهؤلاء وأولئك سوى علماء القرآن والسنة وحراس العقيدة ؟ ؟ من لهم سوى الدعاة الى الله على بصيرة ؟ ؟

من هنا يجب على أهل القرآن أن يبينوا وأن يبرزوا هداية التنزيل فى اطارها الموضوعى الذى يتناول تلك الجوانب الرئيسة من زواياها وشعابها المختلفة ليثبت لعالم اليوم ان كتاب الله هو مصدر النور والهداية الصالح لكل زمان ومكان الى ان يرث الله الارض ومن عليها ..

وان هداية القرآن فيها من الشمولية والسعة ما يستوعب كل قضايا ومتطلبات العصر وكل عصر ... وأنه لابديل لشرع الله فى دنيا الناس ولامناص من الحساب عليه فى أخراهم .

وهذه : خطوة على طريق التفسير الموضوعى استعين فيها بالله واستجدى عونه ومدده ، وتوفيقه فان كان الاحسان فمنه الفضل وله الحمد والشكر ، وان كان التقصير . وهو دأب من لم يعصم من البشر . فمن ضعف القاصر والله الغافر .. وسوف أتناول بتوفيق الله تعالى فى هذا الكتاب موضوعى (الإيمان) و (التقوى) فى القرآن الكريم باعتبارهما دعامتى الولاية لله عزوجل .

واسأل الله تبارك وتعالى ان يهبنى اخلاص النية والعمل وان يجعله متمحضا لوجهه الكريم وأن يمنحنى فيه التوفيق والرشد والسداد انه تعالى خير مسئول واكرم مأمول ..

وصلى الله تعالى على عين أعيان خلقه وسراج أفقه المتقدم من نور ضيائه سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه وأتباعه وورثته أهل الصدق والوفاء دائما وسلم ،

الفقير الى الله تعالى ......

فى الرحاب الأحمدى المبارك المحتسب نفسه فى خدمة كتاب الله المجيد
ثانى عشر ربيع الاول سنة ١٤٠٠ جوده محمد ابويزيد المهدى

« الباب الأول »
﴿ الإيمــان فى القرآن الكريم ﴾

فى ضياء القرآن الكريم وفى نور البيان النبوى الحكيم ، نتعرف حقيقة الايمان ونستكشف معالمه الوضاءة ونجتلى أسسه وأركانه وبناءه ، ونتعايش مع هدى التنزيل فى تشييد الجانب العقدى الذى هو معقد الاتصال بالحق تبارك وتعالى ومناط الصلاحية المطلقة فى الأولى والآخرة .

فالايمان هو قلب هذا الدين الذى يدين به الناس لرب العالمين ، وهو هدف الرسالة والتبشير والانذار وانزال هذا القرآن العظيم : (**إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا**)[1] ، (**الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد . الله الذى له مافى السموات ومافى الارض وويل للكافرين من عذاب شديد**)[2] . والايمان هو دعوة القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم كما قال عز من قائل : (**ربنا إننا سمعنا مناديا[3] ـ ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا**)[4] . هو دعوة الحق ومعراج القرب والوصول الى الله عز وجل .

وإذا كان الايمان هو دعوة القرآن الكريم ونداءه العلوى فما أحوجنا الى دوام الاصغاء الى هذا النداء ، ولايكون هذا الاصغاء بمجرد الآذان فان الايمان محله القلب فلا يسمع الا بالقلوب فما أحرى القلوب بتلقى هذا النداء والتعرف عليه من كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وقد جاء حديث الإيمان فى القرآن الكريم متعدد الجوانب والأبعاد فى العديد من سوره ـ المكية والمدنية فى مواطن بالغة الكثرة فقد ورد ذكر الإيمان بمشتقاته ـ بهيئاتها المختلفة ـ (٨١١) مرة فورد بصيغة المصدر (٤٥) مرة وبصيغة الفعل الماضى

---

(١) سورة الفتح / ٨ ـ ٩
(٢) سورة ابراهيم / ١ ـ ٢
(٣) قال الامام ابو السعود فى تفسيره (١ / ٣٠٧) : (والمراد بالمنادى : الرسول صلى الله عليه وسلم وتنوينه للتفخيم ، وايثاره على الداعى : للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغها الى الدانى والقاصى لما فيه من الإيذان برفع الصوت .. . ثم قال وقيل : المنادى القرآن العظيم)
(٤) سورة آل عمران / ١٩٣

(٣٤٢) مرة . وبصيغة المضارع (١٧٥) مرة وبصيغة الأمر (١٩) مرة وبصيغة اسم الفاعل (٢٣٠) مرة[1] .

هذا فضلا عن الآيات التي تعرضت للإيمان ومتعلقاته دون التصريح بلفظه بأن ورد فيها لفظ النقيض (الكفر) أو مساويه (الجحد) او الاشراك) ونحوهما .

ولو تتبعنا جميع متعلقات الإيمان ـ على الحقيقة ـ فى القرآن لما عزبت عنا آية واحدة لأن التنزيل كله دعوة الى الإيمان كما اسلفنا . فحسبنا فى هذه الدراسة ان نتناول جوهر الموضوع ومعالمه القرآنية البارزة وما يوضحها أو يعين على فهمها من السنة الشريفة تناولا موضوعيا يتيح الرؤية الشمولية المتكاملة بحيث يصبح من السهولة بمكان سبر أغوار أى جانب منه على حدة بعد رؤيته موصولا بكله المتكامل .

ومن ثم : تراءى لنا أن ابرز تلك المعالم والجوانب التى جسدهاالتنزيل الحكيم فى عرض موضوع (الايمان) تتمثل فيما يلى :.

(أولا) : حقيقة الإيمان وعلاقته بالإسلام وبالإحسان فى الإطار الكامل للدين .
(ثانيا) : زيادة الإيمان ونقصانه وأسبابهما .
(ثالثا) : أركان الإيمان ودعائمه الرئيسة .
(رابعا) : شعب الإيمان .
(خامسا) : مقاييس الإيمان وصفات المؤمنين
(سادسا) : ثمرة الإيمان فى الدنيا والآخرة .
(سابعا) : نماذج إيمانية فى القرآن الكريم والسنة المطهرة .

الفصل الأول

﴿ حقيقة الإيمان وعلاقته بالإسلام والإحسان فى إطار الدين ﴾

إنه لخليق بنا ـ أولا ـ أن نتعرف الحقيقة اللغوية للايمان وعلاقته بالاسلام فى هذا الصدد قبيل التعرف على الحقيقة الشرعية ، لاسيما وقد جرى الاستعمال القرآنى للايمان بكل من الحقيقتين على حدة كما سنتبين بعد .
فمن الحقيقة اللغوية يقول العلامة الزمخشرى : (والإيمان : إفعال من الأمن .
يقال : أمنته وآمننيه غيرى ثم يقال آمنه إذا صدقه .

(١) الاحصائية من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى مادة (ا م ن) وتصنيف المادة ههنا للمؤلف فان لم يبلغ مبلغ التحقيق فهو منه قريب وقد اقتصرت هنا على احصاء مادة الايمان (اللازم) دون (المتعدى) لأن الأول ـ هو المستعمل فى الحقيقة الشرعية .

وحقيقته : آمنه التكذيب والمخالفة وأما تعديته بالباء : فلتضمينه معنى أقر وأعترف وأما ماحكى أبوزيد عن العرب : « ماآمنت ان اجد صحابه » أى : ماوثقت ، فحقيقته صرت ذا أمن به ، أى ذا سكون وطمأنينة)[1] اهـ وأيضا يقول أبو حيان فى تفسيره :.

« الايمان : التصديق . (**وماانت بمؤمن لنا**)[2] وأصله : من الأمن أو الأمانة ، ومعناها : الطمأنينة ، أمنه : صدقه ، وأمن به : وثق به ، والهمزة فى (آمن) : للصيرورة ، كأعشب أو لمطاوعة فعل كأكب ، وضمين معنى الاعتراف أو الوثوق فعدى بالباء وهو يتعدى بالباء واللام (فما آمن لموسى)[3] والتعدية باللام فى ضمنها تعد بالباء ، فهذا فرق مابين التعديتين)[4] أ . هـ .

ومن ثم يعلم : أن المعنى الحقيقى الأصلى الذى وضع له لفظ الايمان أولا فى اللغة هو جعل الشخص آمنا ثم أطلق على التصديق إما من قبيل الوضع الحقيقى اللغوى . ـ ثانيا ـ لمعنى آخر يناسبه ، وإما من قبيل الاطلاق المجازى اللزومى من حيث انك اذا صدقت انسانا فقد أمنته التكذيب[5] وكذا اطلاق الايمان بمعنى الوثوق انتقال من الملزوم الى اللازم أيضا ، لأن من كان ذا أمن فهو فى وثوق وطمأنينة هذا : وقد استعمل ـ الايمان فى التنزيل متعديا بنفسه بكل من اطلاقيه الأول والثانى فجاء بالاطلاق الأول فى قوله تعالى (وآمنهم من خوف)[6] وجاء بالاطلاقين فى قوله سبحانه (السلام المؤمن)[7] حيث ورد فى تفسير اسمه تعالى (المؤمن) وجهان : أحدهما : أنه المصدق للمؤمنين ماوعدهم به من الثواب والمصدق للكافرين ما أوعدهم به من العقاب . ـ وثانيهما : أنه : الذى يأمن أولياؤه من عذابه ويأمن عباده من ظلمه[8] .

وكذلك استعمل الايمان فى التنزيل متعديا بالباء أو اللام بحقيقته اللغوية (التصديق) كما فى قوله تعالى (**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**[9]) وقوله سبحانه (**والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون**)[10] . وهكذا يرد الايمان فى القرآن ـ لمطلق التصديق بحق أوباطل .

---

(١) الزمخشرى : تفسير الكشاف ١ / ١٢٦ , ١٢٧

(٢) سورة (يوسف) / ١٧

(٣) سورة (يونس) ٨٣

(٤) أبو حيان : البحر المحيط ١ / ٣٨

(٥) انظر حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف ١ / ١٢٦

(٦) سورة قريش / ٤

(٧) سورة الحشر / ٢٣

(٨) انظر تفسير القرطبى ١٨ / ٤٦ وحاشية الجمل على الجلالين ٤ / ٣٢١

(٩) سورة (يوسف) / ١٧

(١٠) سورة العنكبوت / ٥٢

والاسلام أيضا له في اللغة استعمالان : فيستعمل متعديا بنفسه ويكون بمعنى التسليم أي البذل والإعطاء والانقاذ ومنه قوله تعالى (**بلى من أسلم وجهه لله ..**)[1] فأسلم فيه بمعنى سلم وخلص والمعنى : بذل وجهه لله في السجود[2] .

وكذلك يستعمل لازما ويكون بمعنى مطلق الانقياد والاستسلام والدخول في السلم كما أن الاصباح هو الدخول في الصباح ، فتكون همزته للادخال[3] وهذا المعنى المستفاد من استعمال الاسلام لازما راجع الى معناه متعديا ، لأن من انقاد واستسلم للغير فقد سلم نفسه إليه[4] .

وحينما نعقد المقارنة بين معنيي الايمان والاسلام في اللغة بين يدى تمثل الحقيقة الشرعية لكل منهما : نجد أن التصديق أخص من الانقياد ، لأن محل الأول هو القلب خاصة ، فلا يصح اطلاق التصديق على الاقرار اللساني الا بضرب المجاز ، بينما يصدق الانقياد والاستسلام على كل من الظاهر والباطن ، ومن ثم : يكون الاسلام أعم - في المدلول اللغوي - من الايمان عموما مطلقا . وأما تقييد الاسلام - في اللغة - بكونه ظاهريا : فليس من مفاد الحقيقة اللغوية اصلا والمرجح أنه حقيقة عرفية قد استقيت من تبادر المعنى الحسي الظاهري للانقياد[5] .

ثم ننتقل الى الحقيقة الشرعية للإيمان والإسلام :

فنجد أهل القبلة قد تعددت مذاهبهم واتجاهاتهم في مسمى الايمان الشرعي ، ودورنا ههنا هو وضع أبرز هذه الاتجاهات الرئيسة تحت ضوء القرآن الكاشف لتقويمها وتحكيم النص القرآني فيها لتتسنى الرؤية الموضوعية للايمان بمنأى عن الأثرة المذهبية وتتمثل أبرز الاتجاهات فيما يلي :-

أولا : اتجاه الكرامية : وهم الذين يزعمون ان الايمان الشرعي هو مجرد الاقرار باللسان دون القلب ، وأنكروا أن تكون معرفة القلب أو شيء غير التصديق باللسان ايمانا ، وزعموا ان المنافقين الذين كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين على الحقيقة[6] .

وقد رد القرآن الكريم هذا المتجه في قوله تعالى (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**)[7] **حيث نفى الحق تعالى الايمان عن المنافقين مع**

---

(١) سورة البقرة / ١١٢

(٢) الواحدي تفسير البسيط ١ / ٢٨٤

(٣) من قبيل هذا الاطلاق اللغوي في التنزيل : قوله تعالى ، فلما أسلما وتله للجبين ، قال الامام ابن عباس في تفسيرها : (استسلما) انظر تفسير القرطبي ١٥ / ١٠٤ .

(٤) انظر المختار من كنوز السنة للدكتور دراز / ٥٧

(٥) انظر المختار من كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز ص : ٥٨ - ٥٩

(٦) انظر مقالات الاسلاميين للامام الاشعري ١ / (٢٢٣)

(٧) سورة البقرة / ٨

وجود الاقرار اللساني منهم[١] وأثبت لهم أشد العذاب بقوله سبحانه (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار[٢] .

ثانيا : اتجاه جمهور المرجئه[٣] : الذين يرون ان الايمان هو التصديق بالقلب واللسان معا فحسب ولادخل للعمل فيه بحال ، وان الطائع والعاصى فى قسط الرحمة سواء حيث زعموا أنه لاتضر مع الايمان معصية كما انه لاتنفع مع الكفر طاعه وقد أبطل التنزيل اهدارهم للعمل وتسويتهم بين الطائع والعاصى فى قوله سبحانه :

(أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون)[٤] ، (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)[٥] ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره[٦] هذا عن قيمة العمل . وأما : جعلهم الاقرار شطرا للتصديق القلبى فى تحقيق الايمان فآت تفنيده .

ثالثا : اتجاه المعتزلة والخوارج والزيدية[٧] القائلين بان الايمان اسم لأفعال القلوب والجوارح والاقرار باللسان . وأن من أخل بأى ركن من الأركان الثلاثة : الاعتقاد والاقرار والعمل لايعد مؤمنا . بيد أن الخوارج والزيدية جعلوا مرتكب الكبيرة كافرا[٨] والمعتزلة تقول ان الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر وتسميه : منزلة بين المنزلتين وإن من أدخله الله النار خلده فيها . وقد أخذ هؤلاء وأولئك عامة آيات الوعيد فسووا بين معصية الكفر أو الشرك ومادونها .

بيد أن كثرة كاثرة من النصوص القرآنية داحضة لمذهبهم فى اخراج العاصى من دائرة الايمان لمجرد اقترافه لما ورد فيه الوعيد ومثبته لبقاء تسميه بالمؤمن من ذلك قوله تعالى **(يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ..)[٩]** يقول الامام الواحدى فى تفسيرها :

---

(١) نص الإمام النسفى فى تفسيره (١ / ١٨) على بطلان مذهب الكرامية بهذه الآية .
(٢) سورة النساء / ١٤٥
(٣) نقول : هذا اتجاه جمهور المرجئة فى مجموعهم لانهم ينقسمون الى اثنى عشرة فرقة والاتجاه هنا انما اشتهر لمجموعهم كما نص عليه ابن حجر فى الفتح ١ / ٥٢ والدكتور دراز فى المختار من كنوز السنة ص ٦١ وتفصيل مذاهب فرقهم فى (مقالات الاسلاميين ١ / ٢١٣)
(٤) سورة الجاثية / ٢١
(٥) سورة النساء / ١٤
(٦) سورة الزلزلة / ٧ ـ ٨
(٧) انظر قول الزيدية والخوارج فى مرتكب الكبيرة فى (مقالات الاسلاميين ١ / ١٤٩ ، ١٧٠) وانظر تفسير الرازى ١ / ١١٣
(٨) نفس المصدر ١ / ٣٣١ ، ٣٣٤ .
(٩) سورة البقرة / ١٧٨ .

(وفى هذه الآية أدلة على القدرية : أحدها : قوله فى افتتاح الآية « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص** » ولاخلاف فى أن القصاص واقع فى قتل العمد فلم يسقط اسم الايمان عن القاتل بارتكاب هذه الكبيرة .

والثانى : ماذكرنا فى قوله من أخيه[1] . **والثالث** : قوله : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » وهما يلحقان المؤمنين[2] .

وكذلك جعل الحق تعالى لما دون الشرك من المعاصى حكما آخر غير حكم الشرك ، وذلك فى قوله تعالى : (ان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء)[3] . وقد جعل سبحانه من عصى ولم يشرك رهن مشيئته فى معرض الغفران والمنة .

كما سمى الله تعالى المذنبين باسم المؤمنين فى قوله جل شأنه : (**وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ..**)[4]

وينحسم الموضوع كليا . بعد استقاء تلك المفادات من الآيات الكريمات . بما ورد فى حديث سيدنا أبى ذر رضى الله عنه من قوله صلى الله عليه وسلم (مامن عبد قال لا اله الا الله ثم مات على ذلك الا دخل الجنة ، وان زنا وان سرق وان زنا وان سرق وان رغم انف أبى ذر)[5]

ودونك أحاديث الشفاعة تعاضد مأوردنا من الآيات الدامغة لهذا المذهب .

رابعا : اتجاه سلف الأمة الصالح وهو ان الايمان تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالاركان . الا أن كلا من النطق والاعمال شرط فى الكمال عندهم بخلافه عند المعتزلة فإنه جزء من حقيقته كما سلف[6] .

فأساس الايمان ومحوره وعماده المنجى من الخلود المؤبد فى النار هو التصديق المركب من القبول والإذعان لما ثبت مجيء النبى صلى الله عليه وسلم به من الدين بالضرورة .

وهذا التصديق هو الحقيقة الشرعية للايمان عند امامنا الأشعرى رضى الله عنه وأصحابه بيد أنهم يتطلبون معه الاقرار كمنشأ لاجراء الاحكام الدنيوية والعمل لزيادته واكتماله[7] وهذا هو الاتجاه الحق الذى يشهد له التنزيل وتظاهره السنة الشريفة .

أما الدلائل القرآنية التى تشهد بحقيته : فمنها :-

---

(١) قال قبل هذا الاستدلال فى تفسير قوله تعالى (فمن عفى له من أخيه شيء) :- (.. أراد من دم أخيه فحذف المضاف للعلم به وأراد بالاخ : المقتول ، سماه أخا للقاتل فدل على أن أخوة الاسلام بينهما لاتنقطع وأن القاتل لم يخرج عن الايمان بقتله) البسيط ١ / ٣٨٤ .

(٢) الواحدى تفسير البسيط ١ / ٣٨٤ . (٣) سورة النساء / ٤٨ . (٤) سورة الحجرات / ٩

(٥) أخرجه الشيخان والامام احمد عن ابى ذر . انظر الفتح الكبير ٣ / ١١٤ .

(٦) انظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى ١ / ١٢٣ وفتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ١ / ٨٥ .

(٧) انظر روح المعانى للامام الألوسى ١ / ١٦٠ وفتح المبدى ١ / ٨٤ .

١ـ قوله تعالى (**أولئك كتب فى قلوبهم الايمان**)[١] فقد أضاف الايمان فيه الى القلب لأنه محل التصديق ، وقد أكد العلامة أبو السعود هذه الدلالة بقوله فى تفسير هذه الجملة الكريمة : « كتب فى قلوبهم الايمان » أى : أثبته فيها ، وفيه دلالة على خروج العمل من مفهوم الايمان فان الجزء الثابت فى القلب ثابت فيه قطعا ولاشىء من أعمال الجوارح يثبت فيه)[٢] .

٢ـ قوله تعالى : (**وقلبه مطمئن بالايمان**)[٣] قال العلامتان البيضاوى وأبو السعود عند تفسير هذه الآية الكريمة (**وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب**)[٤] .

٣ـ **قوله تعالى** (**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم**)[٥] قال الامام الفخر فى تفسيرها : (**لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا . قالوا : اذ أسلمنا فقد آمنا ، قيل لا ، فان الايمان من عمل القلب لاغير والاسلام قد يكون عمل اللسان ..**)[٦] .

٤ـ **قوله تعالى** (**والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**)[٧] حيث عطف العمل على الايمان والعطف يقتضى المغايرة فدل على أن الايمان هو التصديق فحسب والعمل خارج عن مسماه ، قال القاضى البيضاوى : (**وعطف العمل على الايمان يدل على خروجه عن مسماه**)[٨] .

٥ـ **قوله تعالى** : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما)[٩] حيث جعل الايمان شرطا لصحة الأعمال مع القطع بأن المشروط لايدخل فى الشرط لامتناع اشتراط الشىء لنفسه . اذ أن جزء الشرط شرط[١٠] .

وأيضا هنالك من السنة الشريفة أحاديث تظاهر هذا المنحى فى حقيقة الايمان منها مارواه الترمذى عن السيدة أم سلمة رضى الله عنها قالت . وقد سئلت عن أكثر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم (**كان أكثر دعائه : يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك**)[١١] فجعل الايمان فى القلب فحسب ونسبه اليه فدل على أنه فعل القلب وليس سوى التصديق .

---

(١) سورة المجادلة / ٢٢ .
(٢) انظر ارشاد العقل السليم ٥ / ١٤٨ .
(٣) سورة النحل / ١٠٦ .
(٤) انظر ارشاد العقل السليم ٣ / ١٩٤ وأنوار التنزيل ١ / ٤٧٠ .
(٥) سورة الحجرات / ١٤ .
(٦) انظر مفاتيح الغيب ٧ / ٥٨٤ .
(٧) سورة البقرة / ٨٢ .
(٨) انظر أنوار التنزيل ١ / ٦١ .
(٩) سورة طه / ١١٢ .
(١٠) انظر روح المعانى ١ / ١١٢ .
(١١) اخرجه الترمذى فى سننه : (كتاب الدعوات) ٥ / ٥٣٨ .

وروى الامام احمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (**الاسلام علانية والايمان فى القلب قال : ثم يشير بيده الى صدره ثلاث مرات قال : ثم يقول : التقوى ههنا التقوى ههنا**)(١) ودونك فى السنة الكثير من تلك الشواهد . فاذا مارود للايمان اطلاق على ماهو أعم من التصديق وغيره . كالدين . فذاك من قبيل المجاز . ثم نأتى الى .

(علاقة الايمان بالإسلام) :

ونقدم لذلك بالتعرف على الحقيقة الشرعية للاسلام . وقد أسلفنا أن حقيقته اللغوية هى الخضوع والانقياد . فحقيقته شرعا هى : الانقياد لله بقبول رسوله صلى الله عليه وسلم بالتلفظ بكلمتى الشهادة والاتيان بالواجبات والانتهاء عن المنكرات(٢) . أو هى الامتثال الظاهرى لأوامر الشرع ونواهيه .

وبالوقوف على الحقيقة الشرعية لكل من الايمان والاسلام نجد أنهما متغايران لغة وعرفا وان تلازما شرعا باعتبار الماصدق . أى الذات المتصفة بهما حيث إنه لايوجد مسلم على الحقيقة . عند الله وعندنا . ليس بمؤمن . كما أنه لايوجد مؤمن . بنفس المثابة ليس بمسلم(٣) وقد وردت آيات التنزيل الحكيم باستعمال كل منهما فى حقيقته الشرعية :

فمن ذلك قوله تعالى (**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم**)(٤) **قال الواحدى : (نزلت فى أعراب من بنى أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فى سنة جدبة فأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين فى السر ..**)(٥) ففى الآية الكريمة دليل على مغايرة الايمان للإسلام حيث نفى الايمان عن الاعراب وثبت لهم الاسلام . لاختصاص الإيمان بالتصديق القلبى ، والاسلام بالامتثال الظاهرى .

وقد استدل ابن كثير بهذه الآية الكريمة على أن الإيمان أخص من الإسلام(٦) .

بيد أن الحق كما ذكر شيخ الإسلام العينى : أن بينهما عموما وخصوصا من وجه ، لأن الإيمان أيضا قد يوجد بدون إسلام فيما إذا اعتقد الكافر جميع ما يجب الإيمان به اعتقادا جازما ومات فجأة قبل الأقرار والعمل(٧) .

ومن ثم استدل الإمام الزهرى بالآية الكريمة على مغايرة الإسلام للإيمان(٨) ونجد فى التنزيل كذلك من الآيات ما يوهم ظاهره عدم التفرقة بين مسمى الإيمان والإسلام وأن اللفظين مترادفان كما فى قوله تعالى : (**فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما**

---

(١) انظر مسند الامام احمد ٣ / ١٣٥ .
(٢) انظر عمدة القارى شرح البخارى للامام العينى ١ / ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٣) انظر فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى لشيخ الاسلام الشيخ عبد الله الشرقاوى ١ / ٨٦ .
(٤) سورة الحجرات / ١٤ .
(٥) الواحدى : أسباب النزول / ٤١٩ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير ٧ / ٣٦٧ .
(٧) انظر عمدة القارى ١ / ١٢٣ .
(٨) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١ / ١٤٤ ط المصرية .

وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)(١) حيث استدل المعتزلة ومن وافقهم بهذه الآية الكريمة على اتحاد الإيمان والإسلام للاستثناء المعنوى ، حيث إن المعنى : فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فلم يكن المخرج إلا أهل بيت واحد . وهو استدلال ضعيف لأن أهل هذا البيت قد جمعوا بين الإيمان القلبى والإسلام الظاهرى فاستحقوا الوصفين معا فسموا بهما لإفادة مدحهما بكل منهما وأن كلا من الوصفين حرى بجعله سببا للنجاة فاتفق الإسمان ههنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك فى كل حال(٢) .

وقد بينت السنة الشريفة حقيقة كل من الإيمان والإسلام بابراز متعلق كل منهما وبيان تكاملهما مع الركن الثالث (الإحسان) فى بناء الدين الكامل وذلك فى حديث سيدنا جبريل الذى أطلق عليه الأئمة (أم السنة) و (أصل الإسلام)(٣) .

فقد روى الإمام البخارى عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بارزا للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه(٤) ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان . قال : ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال ما الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن اشراطها : إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان فى خمس لا يعلمهن إلا الله . ثم تلا النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عنده علم الساعة »(٥) . ثم أدبر فقال : ردوه فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم « الناس دينهم)(٦) قال أبو عمرو بن الصلاح فى شرح هذا الحديث الشريف : (هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر ... ثم إن إسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام فى هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق للباطن الذى هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات ، وحافظات له ، ولهذا فسر صلى الله عليه وسلم الإيمان فى وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من المغنم)(٧) .

---

(١) سورة الذاريات / ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٧ / ٣٩٩ وروح المعانى ٢٧ / ١٤ .

(٣) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١ / ١٦٠ وفتح البدى ١ / ١٦٧ بتحقيق محمد محى الدين .

(٤) فى رواية الامام مسلم (ان تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١ / ١٦٢ .

(٥) سورة لقمان / ٣٤ .

(٦) انظر صحيح البخارى ١ /١٢ ط محمد عبد اللطيف حجازى .

(٧) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١ / ١٤٨ .

وهذا لعمرى تحليل رائع يزيل اللبس عن الافهام فى فهم حقيقة كل من الإيمان والإسلام حيث إنه قد يطلق الإيمان فى القرآن مرادا به ما يعم الإيمان والإسلام جميعا كما فى قوله تعالى : **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون**)[١] فإن الإيمان هنا جامع للباطن والظاهر معا بدليل النشر فى الآية التالية (**أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون**) .

كما أنه قد يطلق الإيمان فى القرآن على بعض ما جاء به الإسلام كما فى قوله تعالى (**وما كان الله ليضيع ايمانكم**)[٢] فالمراد بالإيمان ههنا : الصلاة ولذا نجد الإمام البخارى فى صحيحه يبوب أبواب العبادات الظاهرة داخل كتاب الإيمان فيقول مثلا : « باب الصلاة من الإيمان وقول الله تعالى (**وما كان الله ليضيع إيمانكم**) « يعنى صلاتكم عند البيت » .

وكذلك يطلق الإسلام فى القرآن وفى السنة مرادا به ما يعم التصديق الباطنى والانقياد الظاهرى جميعا وهو الدين كما فى قوله تعالى (**إن الدين عند الله الإسلام**)[٣] وقوله سبحانه (**فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**)[٤] وقوله جل شأنه (**ورضيت لكم الإسلام دينا**)[٥] ومن المسلم به أن الدين لا يكون فى محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل . وانطلاقا من فهم حقيقة هذه الوشيجة بين الإيمان والإسلام يقول الإمام البغوى معلقا على حديث سؤال جبريل السابق : (جعل النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام اسما لما ظهر من الأعمال وجعل الإيمان اسما لما بطن من الاعتقاد ، وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان . والتصديق بالقلب ليس من الإسلام . بل ذلك تفصيل لجملة هى كلها شيء واحد وجماعها الدين ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم[٦] .

وقد أكد القرآن الكريم إرتباط كل من الإيمان والإسلام بالإحسان فقال تعالى : (**وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم**) ويقول سبحانه (ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) .

وأخيرا يقرر العلماء حقيقة اعتبرت قاعدة استقرائية فى علاقة الإيمان بالإسلام وهى أنهما (إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا) .

فإذا ذكر لفظا الإيمان والإسلام معا فى سياق واحد افترقا فى المدلول فاختص الإيمان بالتصديق والإسلام بالعمل والإنقياد الظاهرى كما فى قوله تعالى (**إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ...**)[٧] .

---

(١) سورة السجدة / ١٨ .
(٢) سورة البقرة / ١٤٣ .
(٣) سورة آل عمران / ٩
(٤) سورة البقرة / ١٣٢
(٥) سورة المائدة / ٣ .
(٦) انظر شرح الامام النووى على صحيح الامام مسلم ١ / ١٤٥ .
(٧) سورة الأحزاب / ٣٥ .

وأما إذا افترقا فى الذكر ولم تكن هناك قرينة تدل على اختصاص المذكور بأصل معناه كما فى قوله تعالى : (**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه**)[١] : كان المراد بالمذكور معناه ومعنى صاحبه ويكون الاكتفاء لما بينهما من ارتباط وتعلق بحقيقة واحدة هى الدين : (إن الدين عن الله الإسلام) .

الفصل الثانى

(زيادة الإيمان ونقصانه)

فى محكم التنزيل : ست آيات كريمات صرحت بزيادة الإيمان وهى بترتيبها حسب النزول كما يلى :

١ - قوله تعالى (**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ..**)[٢] .

٢ - قوله تعالى : (**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**)[٣] .

٣ - قوله تعالى : (**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون**)[٤] .

٤ - قوله تعالى : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)[٥] .

٥ - قوله تعالى : (**هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم**)[٦] .

٦ - قوله تعالى : (**وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون**)[٧] وكل هذه الآيات مدنية ما عدا آية المدثر فإنها مكية .

وإلى جانب هذه الآيات الست نجد آيات أخرى تفيد زيادة الإيمان وإن لم يصرح فيها بلفظ الإيمان ، وقد استدل ببعض منها : الامام البخارى فى صحيحه[٨] على زيادة الإيمان جريا على عادته فى الاستدلال لترجمة الباب بالقرآن وبما وقع له من سنة مسندة أو أثر عن صحابى ونحوه ، فمن ذلك : قوله تعالى : (**.. ويزيد الله الذين اهتدوا هدى**)[٩] .

---

(١) سورة غافر / ٢٨ .
(٢) سورة المدثر / ٣١ .
(٣) سورة آل عمران / ١٧٣ .
(٤) سورة الأنفال / ٢ .
(٥) سورة الأحزاب / ٢٢ .
(٦) سورة الفتح / ٤ .
(٧) سورة التوبة / ١٢٤ .
(٨) انظر الجامع الصحيح للإمام البخارى كتاب الإيمان ١/٥ .
(٩) سورة مريم / ٧٦ .

ومنها قوله تعالى : (.. **إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**)[١] .

ومنها قوله تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم)[٢] .

وهذه الآيات مجتمعة تدل على زيادة الإيمان ، ففي آية (المدثر) يبين الحق تعالى أنه ما جعل عدد ملائكة النار إلا العدد الذي اقتضى فتنة الكفار وهو التسعة عشر حيث يستبعدون أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين وذلك ليكتسب أهل الكتاب اليقين بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقا لما في كتابهم وليزداد الذين آمنوا - بالإيمان به وبتصديق أهل الكتاب له - إيمانا[٣] .

وفي آية (الفتح) : يبين لنا سبحانه : أنه أنزل الطمأنينة والسكون إلى ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في قلوب المؤمنين ليزدادوا بهذا الإنزال إيمانا بشرائع الدين مع إيمانهم كلما نزل التنزيل بواحدة منها آمنوا بها كما بينت آية الأنفال (.. **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا**) وكما أوضحت آية التوبة (**فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا** ..) .

وهكذا تعطي جملة الآيات الكريمات مفادا راسخا وهو زيادة الإيمان . وكما قال العلامة الكرماني رحمه الله : كل ما قبل الزيادة لابد أن يكون قابلا للنقصان ضرورة[٤] وكما قال ابن بطال : فإيمان من لم تحصل له الزيادة ناقص[٥] .

ومن عجيب أسرار القرآن أنه يزداد به إيمان المؤمنين وكفر الكافرين وخسار الظالمين حسب نوعيات قلوبهم جميعا . فنقرأ ثانية آية التوبة مع تاليتها لنتدبر هذا المعنى :

(وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ثم نقرأ قول الحق تعالى شأنه : (**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا**)[٦] .

ونأتي إلى هذا السؤال : بم يزداد الإيمان وبم ينقص ؟

والجواب كما أورده الإمام النووي عن ابن بطال أن التصديق يكمل بالطاعات كلها فما أزاد المؤمن من أعمال البركات إيمانه أكمل : وبهذه الجملة يزيد الإيمان . وبنقصاتها ينقص فمتى نقصت أعمال البرنقص كمال الإيمان . ومتى زادت زاد الإيمان كمالا[٧]

---

(١) سورة الكهف / ١٣ .
(٢) سورة (محمد) / ١٧ .
(٣) انظر تفسير البيضاوي ٤٠٩/٢ .
(٤) انظر عمدة القاريء ١٢٥/١ .
(٥) انظر شرح النووي على مسلم ١ / ١٤٦ .
(٦) سورة الإسراء / ٨٢ .
(٧) انظر شرح النووي على مسلم ١٤٦/١ .

ومن ثم يعلم أن الزيادة والنقص يتناولان أصل الايمان وهو التصديق وثمرته وهى الأعمال قال الامام النووى (إن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ولهذا : يكون ايمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل ايمانهم بعارض بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة وإن اختلفت عليهم الأحوال ، أما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك فهذا مما لا يمكن انكاره ولا يتشكك عاقل فى أن نفس تصديق أبى بكر الصديق رضى الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس ، ولهذا قال البخارى فى صحيحه : قال بن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه !! ما منهم أحد يقول إنه على ايمان جبريل وميكائيل والله أعلم)[1] واتماما للفائدة نقول : إن الإيمان الذى هو قابل للزيادة والنقص إنما هو إيمان البشر من غير النبيين أما إيمان الانبياء والملائكة فهو فى زيادة بلا نقصان وأما إيمان الله تعالى المدلول عليه بقوله سبحانه (المؤمن المهيمن) فهو بلا زيادة ولا نقصان .

وننتقل إلى الحديث عن أركان الإيمان فيما يلى :

« الفصل الثالث »
أركان الإيمان

من الحقائق العلمية القرآنية التى أجمع عليها علماء التنزيل وقام عليها منهج التفسير الموضوعى أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا . فما أجمل منه فى موضع : فصل فى موضع آخر فى أى سورة منه بيد أنه من لطائف أسرار التنزيل أن يتضمن صدر السورة مجملا ويأتى تفصيله فى خاتمتها وما بين البدء والخاتمة تتنوع المقاصد والأغراض وبعضها آخذ بحجز بعض فى سياق معجز تتآخى فيه المقدمات مفضية إلى النتائج فى نظم باهر وروعة أخاذة .

ففى صدر سورة البقرة (فسطاط القرآن) : نقرأ قوله تقدست أسماؤه (**الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**) فنتساءل : ما المراد بهذا الغيب الذى هو متعلق إيمان المؤمنين المتقين ؟

ونجد الجواب مفصلا فى خاتمة نفس السورة الكريمة فى قوله تعالى : (**آمن الرسول**

(١) انظر شرح النووى على صحيح مسلم ١٦/٢ . نفس المرجع ١٤٨/١ .

بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)(١) .

روى الإمام الواحدى فى تفسيره عن أبى العالية رضى الله عنه أنه قال فى قوله تعالى : (**يؤمنون بالغيب**) يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره . ولقائه ، وبالبعث بعد الموت ، ثم يقول الإمام الواحدى : وكأن هذا اجمال ما فصل فى قوله : (**كل آمن بالله وملائكته** ..) الآية (٢) .

ويقول الإمام الألوسى قدس الله سره - بعد أن عرض الأقوال فى بيان المراد بالغيب (والذى يميل إليه القلب : أنه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل عليه السلام وهو : الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . لأن الإيمان المطلوب شرعا هو ذلك)(٣) .

فمتعلقات الإيمان فى حديث جبريل عليه السلام هى نفسها متعلقاته فى خاتمة (البقرة) حيث عرض كل منهما لأركان الإيمان الستة التى تناولها فى ستة مباحث وهى :

١ - الإيمان بالله تعالى .

٢ - الإيمان بالملائكة عليهم السلام .

٣ - الإيمان بالكتب المنزلة على رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

٤ - الإيمان برسل الله على رسولنا الأعظم وعليهم الصلاة والسلام .

٥ - الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء .

٦ - الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره .

---

(١) سورة البقرة / ٢٨٥ .

(٢) انظر تفسير البسيط للواحدى ٥٩/١ .

(٣) انظر روح المعانى ١١٤/١ .

المبحث الأول
(الإيمان بالله تعالى)

لقد تصدر هذا الركن بقية الأركان فى سياق الأوامر الآلهية الإيمانية فى التنزيل ، فقال تعالى : **(فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم)**[١] وقال سبحانه : **(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل)**[٢] وهو قلب نداء الرسول وكل رسول **(ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ...)**[٣] .

والإيمان بالله تعالى يقوم على خمسة أصول تكفل التنزيل الحكيم بيانها وترسيخها وهى :

(أ) الإيمان بوجوده تعالى . (ب) الإيمان بصفاته عز وجل .
(جـ) الإيمان بأفعاله جل شأنه . (د) الإيمان بأحكامه تعالت حكمته
(هـ) الإيمان بأسمائه تقدست أسماؤه .

أما الأصل الأول : (أ) وهو الإيمان بوجوده تبارك وتعالى : فقد تجلت عظمة القرآن وروعة بيانه فى ترسيخ هذا الأصل الأصيل فى الفطر السوية ، ولله در حجة الإسلام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه إذ قال فى هذا الصدد[٤] : (وأول ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الإعتبار : ما أرشد إليه القرآن ، فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى :

(ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا)[٥] .

وقال الله تعالى : **(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين**

---

(١) سورة آل عمران / ١٧٩ .
(٢) سورة النساء / ١٣٦ .
(٣) سورة آل عمران ١٩٣ .
(٤) هذا النص ذكره حجة الإسلام فى الاحياء (٩٢/١ ط العثمانية) فى كتاب قواعد العقائد تحت عنوان (الأصل الأول : معرفة وجوده تعالى) .
(٥) سورة النبأ / ٦ - ١٦ .

السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[1] .

وقال تعالى : **(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا)**[2] .

وقال تعالى : **(أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن جعلناها تذكره ومتاعا للمقوين**[3] **. فسبح باسم ربك العظيم)**[4] .

فليس يخفى على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكره مضمون هذه الآيات وأدار نظره على عجائب خلق الله فى الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره ، وفاعل يحكمه ويقدره . بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ، ومصرفه بمقتضى تدبيره ، ولذلك قال تعالى :
(أفى الله شك فاطر السموات والأرض)[5] ؟؟

ولهذا بعث الأنبياء - صلوات الله (وسلامه) عليهم - لدعوة الخلق إلى التوحيد ، ليقولوا : (لا اله الا الله) . وما أمروا أن يقولوا : لنا اله وللعالم اله ، فإن ذلك كان مجبولا فى فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفى عنفوان شبابهم ، ولذا قال لك عز وجل : **(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)**[6] وقال تعالى : **(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)**[7] .

فإذا : فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما يغنى عن إقامة البرهان[8] .

---

(١) سورة البقرة / ١٦٤ .
(٢) سورة (نوح) ١٥ - ١٨ .
(٣) إلى هنا منتهى النص القرآنى الذى اورده حجة الإسلام والآية التالية اوردناها تبركا .
(٤) سورة الواقعة / ٥٨ - ٧٤ .
(٥) سورة (ابراهيم) / ١٠ .
(٦) سورة الزمر / ٣٨ .
(٧) سورة (الروم) / ٣٠ .

(٨) حجة الإسلام مولانا الإمام الغزالى رضى الله عنه : إحياء علوم الدين ١/٩٣ - ٩٤ .

ولقد تنوعت أساليب القرآن فى الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، فتارة يوجه العقول إلى تصفح آيات الكون المفتوح من سمائه إلى أرضه حاثا على تدبر آيات الله فى الآفاق فى قوله تعالى :

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)[١] وتارة يوجه نظر الإنسان إلى نفسه يتعرف بها ربه فيتصفح آيات العالم الصغير بعد العالم الكبير فيوجه الأنظار إلى الأدلة الأنفسية بعد الآفاقية: **(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)**[٢] .

فكان من روعة الإعجاز القرآنى أن يجسد القرآن الكريم تلك الآيات الأنفسية حتى تبدو أمام النظر العقلى فى معرض البداهة التى لا يتوقف عن اكتساب معطياتها الإيمانية إلا كفور النفس والعقل والقلب **(قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه ؟؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره**[٣] **. ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ما أمره . فلينظر الإنسان إلى طعامه : أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم)**[٤] وآيات الله فى الانفس والآفاق قد حفل بها التنزيل بصورة تتأبى على الحصر ههنا .

وتارة أخرى يستخدم القرآن المنهج الجدلى لتقرير مبدأ الالوهية وهذا المنهج شائع فى عرض قصص الرسل مع أقوامهم كما فى قصص سيدنا نوح وسيدنا ابراهيم وسيدنا موسى على نبينا وعليهم الصلاة والسلام . فليرجع إليها فى التنزيل ففيها من الإعجاز الجدلى حظ جزيل .

وأما عن الأصل الثانى من أصول الإيمان بالله تعالى وهو :

(ب) الإيمان بصفاته عز وجل :

فقد قرر القرآن الكريم هذا الأصل بجلاء وكان معتمد علماء العقيدة من جهابذة متكلمى - أهل السنة وغيرهم فى هذا الصدد . فاستقوا من معين القرآن الذى لا ينضب .

---

(١) سورة (يونس) / ١٠١ .
(٢) سورة فصلت / ٥٣ .
(٣) اى سهل له مخرجه من بطن أمه بأن فتح له فوهة الرحم وألهمه أن يتنكس للخروج أو - مع ذلك - ذلل له سبيل الخير والشر . وفيه إيماء إلى أن الدنيا مجرد طريق لمقصد غيرها هو الآخرة .
(٤) سورة (عبس) / ١٧ - ٣٢ .
(٥) اقرأ مثلا قوله تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا انتم بشر تنتشرون) إلى آخر الآية / ٢٦ من سورة الروم ثم اقرأ قوله تعالى (افلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟) إلى الآية / ٢١ من سورة الغاشية . واقرأ فى سورة (المؤمنون) : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الخ .

يقول الإمام الباقلاني : « والإيمان بالله تعالى : يتضمن التوحيد له سبحانه والوصف له بصفاته ونفى النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه .

والتوحيد له هو : الاقرار بأنه ثابت موجود واله فرد معبود ليس كمثله شيء على ما قرر به قوله تعالى : (**والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم**)[1] .

وقوله : (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**)[2] .

وأنه الأول قبل جميع المحدثات . الباقى بعد المخلوقات على ما أخبر به تعالى من قوله : (**هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم**)[3] .

والعالم الذى لا يخفى عليه شيء والقادر على اختراع كل مصنوع وابداع كل جنس مفعول على ما أخبر به فى قوله تعالى :
(**الله خالق كل شيء**)[4] ، (**وهو على كل شيء قدير**)[5] ...[6]

إن هذا النص ليبرز بجلاء أن القرآن الكريم كان هو المنبع الحقيقى لعقيدة السلف رضوان الله عليهم وهو عماد حجتهم وسند مذهبهم .

وإذا ما أمعنا النظر فى التنزيل وجدنا قضية الوحدانية مستهدف العديد من آياته لدحض أباطيل الشرك وترسيخ دعائم التوحيد باعتباره أول دعوة الرسل جميعا وأول واجب على المكلف : (**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا اله إلا أنا فاعبدون**)[7] من ثم أجلى القرآن الكريم دلائل الوحدانية جلاء ساطعا ونعى على المشركين ترديهم فى مهاوى الشرك الذى هو أقبح الظلم (ان الشرك لظلم عظيم)[8] فقال تعالى : (**أم اتخذوا آلهه من الأرض هم ينشرون ؟؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون**)[9] أفبعد برهان الحق برهان ؟؟

---

(١) سورة البقرة / ١٦٣ .
(٢) سورة الشورى / ١١ .
(٣) سورة الحديد / ٣ .
(٤) سورة الأنعام / ١٠٢ والرعد / ١٦ .
(٥) سورة هود / ٤ والملك / ١ .
(٦) انظر : الإنصاف للإمام ابى بكر الباقلانى بتحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ص : ٢٣ .
(٧) سورة الأنبياء / ٢٥ .
(٨) سورة لقمان / ١٣ .
(٩) سورة الانبياء / ٢١ ـ ٢٤ .

لقد أثبت القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمات وحدانيته تعالى بما يسمى عند المتكلمين (برهان التمانع) وذلك في قوله سبحانه (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) حيث إن المعنى : لو كان فيهما جنس الآلهة غير[1] الله لم توجدا . لكن عدم وجودهما أي السموات والأرض : باطل لمشاهدة وجودهما . فبطل ما أدى إليه وهو وجود جنس الآلهة غير الله . فثبت أن الله واحد وهو المطلوب[2] .

ويبين حجة الإسلام وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على ثبوت الوحدانية لله تعالى قائلا : (وبيانه : أنه لو كان اثنين وأراد احدهما أمرا : فالثاني إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومدافعته كان الثاني قويا قاهرا والأول ضعيفا قاصرا ولم يكن إلها قادرا)[3] .

قال الله تعالى : (**ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون**)[4] . (**قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا**)[5] .

ثم تأتي سورة (الإخلاص) بعظمتها وجلالها ونورانيتها معلنة حقوق الألوهية لله الواحد الأحد الفرد الصمد (**قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد**) .

وسبب نزولها . كما يروى الإمام الواحدي عن الأئمة . قتادة والضحاك ومقاتل . أنه (جاء ناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : صف لنا ربك ، فإن الله أنزل نعته في التوراة ، فأخبرنا : من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس هو ؟ من ذهب هو أم نحاس أم فضه ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ وممن ورث الدنيا هو ؟ ومن يورثها ؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة ، وهي نسبة الله خاصة)[6] .

---

(١) ذكر المفسرون أن (الا) في هذه الآية الكريمة يتعين جعلها وصفا بمعنى غير ولا يجوز جعلها أداة استثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها . انظر تفسير البيضاوي ٢/٥٥ .
(٢) انظر تحفة المريد على جوهرة التوحيد للإمام الشيخ ابراهيم البيجوري / ٦٠ .
(٣) انظر : احياء علوم الدين ١/٩٦ .
(٤) سورة (المؤمنون) / ٩١ / ٩٢ .
(٥) سورة الإسراء / ٤٢ ـ ٤٤ .
(٦) انظر أسباب النزول للواحدي / ٥١٠ .

يقول الأثبات : لقد نفت هذه السورة أنواع الكفر الثمانية لأن قوله (**قل هو الله أحد**) : نفي الكثرة والعدد . وقوله : (**الله الصمد**)(١) **نفى القلة والنقص . وقوله : (لم يلد ولم يولد) نفى العلة والمعلولية . وقوله (ولم يكن له كفوا أحد)** : نفى الشبه والنظير . فهو سبحانه كما قال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(٢) وقد أجلى القاضي البيضاوى دلالة الأحدية فى السورة الكريمة على نفى التعدد فى الذات والصفات والأفعال(٣) فقال :

(وأحد : بدل أو خبر ثان يدل على : مجامع صفات الجلال كما دل الله على جميع صفات الكمال إذ الواحد الحقيقى : ما يكون منزة الذات عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما ، كالجسمية والتحيز والمشاركة فى الحقيقة وخواصها ، كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية)(٤) .

كما تناولت آيات التنزيل سائر الصفات الثبوتية والسلبية لله تعالى فى مواطن عديدة وناهيك بسيدة آى القرآن (**الله لا اله الا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم**)(٥) .

له تعالى : القدم والبقاء والعلم الشامل : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم)(٦) **وله القدرة التامة (وكان الله على شيء قديرا)**(٧) **(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)**(٨) **وله الارادة النافذة (إن ربك فعال لما يريد)**(٩) وهو السميع البصير : **(وكان الله سميعا بصيرا)**(١٠) **وهو سبحانه المتكلم بكلامه القديم : (وكلم الله موسى تكليما)**(١١) : أى أزال عنه الحجاب وأسمعه الكلام القديم ثم أعاد الحجاب(١٢) وهو تعالى المنزة عن جميع جهات التركيب

---

(١) الصمد : هو المصمود إليه أى المقصود فى الحوائج فهو الغنى عن العالمين المفتقر إليه من كل أفراد العالمين . سبحانه وتعالى .

(٢) سورة الشورى / ١١ .

(٣) هذه الركائز الثلاث للوحدانية تنفى ـ عند المتكلمين ـ كموما خمسة هى (الكم المتصل فى الذات) وهو تركيبها من أجزاء (والكم المنفصل فيها) (والكم المتصل فى الصفات) (والكم المنفصل فيها) وهو مشابهة صفة غيره لصفته تعالى كما تنفى (الكم المنفصل فى الأفعال) راجع تحفه المريد ص : ٥٩ ـ ٦٠ .

(٤) انظر أنوار التنزيل ٤٥٥/٢ .

(٥) سورة البقرة / ٢٥٥ .

(٦) سورة الحديد / ٣ .

(٧) سورة الفتح / ٢١ .

(٨) سورة (يس) ٨٢ .

(٩) سورة هود / ١٠٧ .

(١٠) سورة النساء / ١٤٨ .

(١١) سورة النساء / ١٦٤ .

(١٢) انظر تحفة المريد ص ٧٤ .

وعن التحيز والجسمية والجوهرية والعرضية والحلول والاتحاد وكل ما هو من لوازم الحدوث إذ هو تعالى مخالف للحوادث من جميع الوجوه كما قال عز من قائل . (ليس كمثله شيء)(١) . له الكمال والجلال والجمال (تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام)(٢) وأما عن :

(جـ) الإيمان بأفعاله جل شأنه :

فقد قرر التنزيل وحدة الأفعال لله تعالى خلقا وإيجادا فقال عز من قائل (**الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل**)(٣) ولا ريب أن كل من سواه وما سواه تعالى ممكن محدث ، والبداهة قاضية بأن الممكن المحدث لا يوجد بذاته بل لا بدله من موجد يوجده وهو القديم تعالى شأنه ، فكل ما سواه تعالى إنما حصل بتخليقه ، وإيجاده وتكوينه وقد صرح التنزيل بأن أفعال العباد الاختيارية وغيرها إنما هي من خلقه تعالى أيضا فقال عز من قائل : (**والله خلقكم وما تعملون**)(٤) .

كما دلل سبحانه على علمه بسر العبد وجهره : بأنه خالق لهما ، من حيث إن الخلق يستلزم علم الخالق بمخلوقه جملة وتفصيلا ، فقال جل شأنه : (**وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**)(٥) ؟؟

هذا : وخلق الله تعالى لأفعال العباد لا ينافي كونها مقدورة لهم على سبيل الكسب والاكتساب اللذين هما مناط الثواب والعقاب . كما قرره أهل السنة والجماعة . قال تعالى : (**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**)(٦) .

ومع أن الفعل كله خيره وشره لله تعالى فقد علمنا القرآن الكريم ألا ننسب إليه تعالى إلا الخير والحسن وأن ننسب الشر والخطيئة لأنفسنا كسبا وإن كانا لله خلقا ، وهذا من أدب القرآن العظيم : (**ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**)(٧) أي كسبا كما يفسره قوله تعالى : (**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**)(٨) . كما صرح التنزيل بحقيقة الأمر بقوله سبحانه (**قل كل من عند الله**)(٩) ، ودفعا لتوجيه السؤال عليه تعالى ممن لا يفقه أدب العبودية مع حقوق الربوبية : قال تعالى : (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)(١٠) فالأدب في التسليم وذروة الإيمان مع كمال التسليم . ثم نأتي إلى الأصل الإيماني الرابع :

---

(١) سورة الشورى / ١١ .
(٢) سورة الرحمن / ٧٨ .
(٣) سورة الزمر / ٦٢ .
(٤) سورة الصافات / ٩٦ .
(٥) سورة الملك / ١٣ ـ ١٤ .
(٦) سورة البقرة / ٢٨٦ .
(٧) سورة النساء / ٧٩ .
(٨) سورة الشورى / ٣٠ .
(٩) سورة النساء / ٧٨ .
(١٠) سورة الأنبياء / ٢٣ ك .

(د) الإيمان بأحكامه تعالت حكمته :

ومبنى هذا الأصل على دعائم أربعة :

الدعامة الأولى : أن أحكامه تعالى غير معللة بعلة أصلا ، لأن كل ما كان معللا بعلة كان صاحبه ناقصا بذاته كاملا بغيره تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

والنصوص القرآنية الدالة على تحقق تلك الدعامة متنوعة فمنها ما يدل على أن الإضلال بفعل الله تعالى كقوله سبحانه (**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء**)[١] ، ونظائره كثيرة ، ومنها ما يدل على أن الاشياء كلها بخلق الله تعالى نحو قوله سبحانه (**الله خالق كل شيء**)[٢] ومنها الصرائح التى تدل على نفى الغرض والعلة من نحو قوله جل شأنه : (**لا يسأل عما يفعل**) وقوله تبارك وتعالى(**إن الله يفعل ما يشاء**)[٣] ... [٤] .

والدعامة الثانية : أن الجعل الشرعى للأحكام قد تفضل الله تعالى به علينا لنفعنا نحن بالتزام شرع الله لنا وليس مقصودا به منفعة عائدة إلى الحق تعالى فهو غنى عن العالمين ومنزه عن جلب المنافع ودفع المضار لذاته تعالى فلا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية . ومن ثم نجد المفسرين يصرفون تعاليل الأحكام إلى العباد فى الآيات المعللة لها فى نحو قوله تعالى : (**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**)[٥] .

وقد صرح التنزيل بإرادة الحق تعالى - بتشريع الأحكام - نفع عباده وإسباغ نعمه عليهم وذلك فى قوله جل شأنه (.. **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون**)[٦] وقال تعالى (.. **فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**)[٧] .

والدعامة الثالثة : أن يعلم العبد أن لله تعالى الحكم والإلتزام كيفما شاء وأراد ، وله أن يكلف الخلق بما لا يطيقون - كما هو رأى جمهور أهل السنة[٨] - ولكنه برحمته

---

(١) سورة فاطر / ٨ ك .

(٢) سورة الزمر / ٦٢ ك .

(٣) سورة الحج / ١٨ م .

(٤) ارجع إلى بحث الفخر الرازى فى نفى العلة والغرض عن فعل الله وأمره تعالى عند تفسير قوله تعالى (وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون) فى مفاتيح الغيب ٧ / ٦٥٩ .

(٥) سورة البقرة / ٢١ م .

(٦) سورة المائدة / ٦ م .

(٧) سورة البقرة / ١٨٦ م .

(٨) أنظر إحياء علوم الدين ١ / ٩٩ .

تعالى شرع لنا أن نسأله دفع مالا نطيق فعلمنا أن نقول (**ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به**)[١] قال العلامة البيضاوى فى تفسيره (.. **وهو يدل على جواز التكليف بما لا يطاق ، وإلا لما سأل التخلص منه**)[٢] .

والدعامة الرابعة : أن يؤمن العبد بأنه لا يجب على الحق تعالى لأحد شيء لا ابتداء ولا بسبب أعماله وأفعاله ، فيغفر لمن يشاء ويثيب بفضله . ويعذب من يراه بعدله ، لأن الكل ملكه ومملوكه على الحقيقة : (**ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم**)[٣] (**ان تعذبهم فإنهم عبادك وان تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**)[٤] (**قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير**)[٥] .

وقد بين الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أن المعول عليه فى دخول الجنة ليس هو عمل العبد وإنما هو فضل الله ورحمته فقال ﷺ (**لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ..**)[٦] .
وأما عن الأصل الخامس :

(هـ) الإيمان بأسمائه تعالى شأنه :

فقد قال عز وجل فى سورة الأعراف : (**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون**)[٧] .

وقال فى (الإسراء) : (**قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى**)[٨] وقال تعالى فى سورة « طه » : (**الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى**)[٩] ثم قال تعالى فى سورة الحشر : (**هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم**)[١٠] .

---

(١) سورة البقرة / ٢٨٦ م .
(٢) أنظر أنوار التنزيل ١ / ١٢٨ .
(٣) سورة آل عمران / ١٢٩ م .
(٤) سورة المائدة ١١٨ م .
(٥) سورة آل عمران / ٢٦ م .
(٦) أخرجه البخارى فى كتاب المرضى من صحيحه : ٤ / ٦ .
(٧) سورة الأعراف / ١٨٠ ك .
(٨) سورة الاسراء / ١١٠ ك .
(٩) سورة طه / ٨ ك .
(١٠) سورة الحشر ٢٢ ـ ٢٤ .

والأسماء الحسنى : هى أسماء الله تعالى الواردة فى كتبه المنزلة على رسله أو الواردة على لسان النبى الخاتم ﷺ . فهى أسماء توقيفية لا يجوز الاجتهاد لاستنباطها . وتنقسم أسماء الله الحسنى إلى : ما هو للذات وما هو للصفات . فاسم الذات هو لفظ الجلالة (الله) وقد قيل انه اسم الله الأعظم .

وأما أسماء الصفات : فمنها ما يتعلق بصفات حقيقية عارية عن النسب والاضافات . كاسم الواحد والحى .

ومنها : ما يتعلق بصفات سلبية . كالقدوس .

ومنها : ما يتعلق بصفات حقيقية مع الإضافة . كالعالم والقادر . لتعلقهما بالمعلوم والمقدور .

ومنها : ما يتعلق بصفات حقيقية مع الإضافة والسلب . كالحكيم . إذ معناه : الذى يعلم حقائق الإشياء ولا يفعل مالا يجوز فعله وكذا كون هذه الصفة . الحكمة التى هى متعلق هذا الاسم الجليل . متعلقة بالمعلومات يعطيها صفة الإضافة[1] .

وقد أمرنا الحق تعالى فى القرآن الكريم أن ندعوه بتلك الاسماء الحسنى كما وردت بالوحى الثابت دون تزيد بالاجتهاد الذى لا يعصم من الخطأ . قال الامام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : (**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه**) :

(واتركوا تسمية الزائغين فيها الذين يسمونه بمالا توقيف فيه أو بما يوهم معنى فاسدا كقولهم يا أبا المكارم يا أبيض الوجه .

أو : لا تبالوا بإنكارهم ما سمى به نفسه ، كقولهم : ما نعرف إلا رحمن اليمامة . أو ذروهم وإلحاد هم فيها باطلاقها على الأصنام واشتقاق أسمائها منها كاللات من (الله) والعزى من (العزيز) ، ولا توافقوهم عليه . أو : أعرضوا عنهم فإن الله ، مجازيهم كما قال : (**سيجزون ما كانوا يعملون**)[2] . اهـ تلك معاقد الإيمان بالله تعالى ودعاماته الرئيسية[3] .

---

(١) أنظر حقيقة الإيمان ودعائمه (رسالة خطية للمؤلف) ص ٥٢ .
(٢) أنظر أنوار التنزيل ١ / ٣١٦ .
(٣) أنظر تفسير الفخر الرازى ٢ / ١٧٥ والإحياء ١ / ٩٣ ـ ١٠٠ .

المبحث الثانى : فى :

الركن الثانى من أركان الإيمان :

﴿ الإيمان بالملائكة ﴾

جاء ذكر الملائكة بعد الله تعالى فى سياق تعداد أركان الإيمان فى خاتمة سورة (البقرة) كما جاء ذكرهم - بنفس الترتيب - فى حديث سؤال سيدنا جبريل عن أمور الدين الثلاثة . كذلك أتبع الحق تعالى ذكره بذكرهم فى قوله جل شأنه : **(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم)**[1] وأيضا فى قوله تعالى جل شأنه : **(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين)**[2] وفى قوله : تبارك اسمه : **(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا)**[3] وفى قوله تعالى : **(هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور)**[4] وكذا فى قوله سبحانه : **(إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)**[5] .

فإذا ما تساءلنا عن سر هذا الترتيب فى الذكر ، وهل يعنى أن الملائكة مقدمون فى المنزلة على كتب الله ورسله ؟؟ أو أن الإيمان بهم أوجب من الإيمان بمن ذكر بعدهم ؟؟ نجد الجواب المنطقى فى أن ترتيب الملائكة بعد الله تعالى وقبل الكتب والرسل إنما هو من باب تقديم الوسيلة على الغاية ، من حيث إن الله تعالى يوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بواسطة الملائكة كما قال تعالى : **(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون)**[6] .

فإذا مالا حظنا الترتيب الذكرى فى الآية الكريمة لوجدناه هكذا : (الله - الملائكة - الوحى (الكتب) - الرسل - تبليغ دعوة التوحيد) . وقد نص التنزيل على وساطة الملائكة - فى تبليغ الوحى - بين الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام فى آيات عديدة ، منها قوله : **(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم)**[7] .

وقال تعالى : **(وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)**[8] وقال تعالى : **(قل من كان عدو الجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن**

---

(١) سورة آل عمران / ١٨ م .
(٢) سورة البقرة / ٩٨ م .
(٣) سورة النساء / ١٣٦ م .
(٤) سورة الأحزاب / ٤٣ م .
(٥) سورة الأحزاب / ٥٦ م .
(٦) سورة النحل / ٢ .
(٧) سورة الشورى / ٥١ ك .
(٨) سورة الشعراء / ١٩٢ - ١٩٤ ك .

الله)(١) لقد كلفنا الله تعالى أن نؤمن بالملائكة وجعل الإيمان بهم من الأسس التى ينبنى عليها صرح العقيدة الاسلامية ، وحكم على من كفر بهم بالضلال البعيد فى ضمن من كفر بسائر أركان الإيمان فقال عز شأنه : (**ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا**) .

وإن تكليف الشارع الحكيم للإنسان بالإيمان بالملائكة وجعل هذا الإيمان أصلا من أصول الدين : إنما هو ارتقاء بالمسلم إلى الآفاق الغيبية العليا وعقد لصلة وطيدة بين الإنسان وبين عالم ما وراء المادة ، وتوشيج بينه وبين هؤلاء الجند من جنود الله الذين جعلهم الله تعالى سفراءه إلى رسله وأمناءه على وحيه وشهداءه على خلقه وخرق لهم كنف حجبه وأطلعهم على مكنون من غيبه واختار منهم خزنة لجنته وحملة لعرشه وأسكنهم السموات العلى ونزههم عن المعاصى والدناءات وقدسهم عن النقائض والآفات . فهم عباده المكرمون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون(٢) .

وقد استنبط العلماء الأثبات من آى التنزيل وبيانه النبوى ذلك القدر الذى أوجبه الشارع على المكلف فى الإيمان بالملائكة ، وهو القدر الذى اتضحت معالمه بجلاء فى التنزيل وفى السنة النبوية وهو مايهمنا الوقوف عليه ـ موضوعيا ـ وتحديد أبعاده . يقول الإمام البيهقى ـ فى شعب الإيمان ـ : (والإيمان بالملائكة ينتظم فى معانى : أحدها التصديق بوجودهم . والثانى إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن ، مأمورون مكلفون ، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه ، والموت عليهم جائز ، ولكن الله جعل لهم أمداً بعيدا فلا يتوفاهم حتى يبلغوه : ولا يوصفون بشىء ، يؤدى وصفهم به إلى اشراكهم بالله تعالى ، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل ، والثالث الاعتراف بأن منهم رسلا يرسلون إلى من يشاء من البشر وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ويتبع ذلك الاعتراف أن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ومنهم خزنة الجنة ومنهم خزنة النار ومنهم كتبة الأعمال ومنهم الذين يسوقون السحاب . فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره(٣) أما عن أصل تسمية الملائكة ودلالتها اللغوية : فإن الملائكة : جمع (مألك) ـ بالهمز ـ كالشمائل جمع شمأل ، والتاء لتأنيث الجمع و (الملاك) مقلوب (مألك) وهو مأخوذ من الألوكة وهى الرسالة ، لأنهم وسائط بين الله وبين الناس ، فهم رسل الله أو كالرسل إليهم(٤) .

حقيقة الملائكة :

الملائكة من عالم الغيب والملكوت ، ولم يكلفنا الحق ـ تعالى ـ رحمة بنا بالتعرف على حقيقتهم الغيبية التى يند عن طاقة البشر تمثلها ، وإنما طالبنا الشارع بالإيمان بهم كحقيقة

(١) سورة البقرة / ٩٧ م .

(٢) أنظر دلائل الخيرات لسيدى محمد الجزولى : حزب يوم الأحد ص : ١٥١ ط عبد الرحمن محمد .

(٣) أنظر الحبائك فى أخبار الملائك للامام السيوطى ص ٨ .

مغيبة ، ومن ثم لم يعرفنا القرآن الكريم بحقيقتهم وأصل خلقهم كما عرفنا بحقيقة الإنس والجن وإنما عرفنا بمهمتهم وبعض نعوتهم وأوصافهم كما ورد مثلا فى فاتحة سورة (فاطر) حيث قال تعالى :

« الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

بيد أن السنة الشريفة قد تعرضت للتعريف بأصلهم كما فى رواية الإمام مسلم عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : **(خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم)**[1] .

ولأن الوحى لم يوقفنا على البيان التفصيلى لحقيقة عنصر الملائكة حيث لم يطلب منا إلا التصديق بوجودهم . فقد اختلفت الآراء والمذاهب فى تعريف الملائكة على أنحاء شتى . بيد أن مذهب أكثر علماء الاسلام - وهو الحرى بالقبول - على أنها : أجسام لطيفة علوية نورانية[2] قادرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى[3] .

أما ما ذهب إليه عبدة الأوثان من أنها هى هذه الكواكب فيجعلون السعد منها ملائكة الرحمة ، والنحس ملائكة العذاب فذلك بمنأى عن الصواب . وأنأى منه ما ذهب إليه النصارى من أنها الأنفس الناطقة المفارقة لأبدانها الخيرة ، كما أن الخبيثة عندهم بعد المفارقة هى الشياطين . وبعيد عن الصواب أيضا ما ذهب إليه الفلاسفة من أن الملائكة جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة على الحقيقة[4] .

والذى نستشعره من حديث القرآن الكريم عن الملائكة - فيما يتعلق بطبيعة خلقهم - أنهم مباينون للطبيعة البشرية مباينة تامة ، وقد بلغ خلقهم من العظم حدا لا تقدر القوى البشرية على تمثله والثبات لرؤيته رأى العين ، فقد قال تعالى شأنه « **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** »[5] .

قال الإمام أبو السعود فى تفسير قوله تعالى « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر » : « أى : لو أنزلنا ملكا على هيئته حسبما اقترحوه والحال أنه من هول المنظر بحيث لا تطيق

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٨ / ١٢٣ .

(٢) وقيل (هوائية) كما فى روح المعانى ١ / ٢١٨ .

(٣) أنظر أنوار التنزيل ١ / ٤٢ وفتح المبدى ١ / ١٥٨ .

(٤) يرى الفلاسفة أن الملائكة جواهر قائمة بنفسها ليست متحيزة البتة وأنها بالماهية مخالفة لأنواع النفوس الناطقة البشرية وأنها أكمل منها وأكثر علما وقوة وأنها جارية من النفوس البشرية مجرى الشمس بالنسبة إلى الأضواء . أنظر مفاتيح الغيب للإمام الرازى ١ / ٢٤٨ .

(٥) سورة الأنعام ٨ ، ٩ .

بمشاهدته قوى الآحاد البشرية ، ألا يرى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يشاهدون الملائكة ويفاوضونهم على الصور البشرية كضيف إبراهيم ولوط وخصم داود عليهم السلام وغير ذلك .

وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية ، فما ظنك بمن عداهم من العوام ، فلو شاهدوهم كذلك لقضى أمر هلاكهم بالكلية واستحال جعلهم معه نذيرا »[1] .

ومما يؤكد عظم خلق الملائكة ما رواه الإمام أحمد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين : أما واحدة : فإنه سأله أن يريه نفسه فأراه نفسه فسد الأفق ، وأما الأخرى فليلة الإسراء عند السدرة)[2] .

صفات الملائكة :

وصف الحق تعالى ملائكته فى القرآن العزيز بعديد من الصفات التى يجب الإيمان بها ، واعتقادها لهم ، وتتمثل الصفات اللازمة فيما يلى :

١ ـ العبودية الحقة لله تعالى ، وتلك أهم وألزم الصفات لهم ، وقد قررها القرآن الكريم فى مواجهة من استحوذ عليهم الشيطان ووسوس لهم بأن الملائكة بنات الله فاعتقدوا ذلك وأشركوهم به تعالى فى العبادة (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)[3] (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون)[4] .

لقد بنوا عقيدتهم على التمحك بالباطل الذى لا يستند إلى علم فجاء تقرير الحقيقة معرفا بمرتبة الملائكة ومنزلتهم من الله تعالى فى قوله عز وجل « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »[5] .

وفى هذا النص الكريم الأخير : يقرر الحق تعالى للملائكة مع صفة العبودية الحقة لجنابه الأقدس خمس صفات بارزة وهى :

---

(١) أنظر ارشاد العقل السليم لأبى السعود ٢ / ٨٤ .
(٢) أنظر الحبائك فى أخبار الملائك للإمام السيوطى ص ١٧ .
(٣) سورة الزخرف ١٩ ـ ٢٠ .
(٤) سورة النحل : ٥٧ .
(٥) سورة الأنبياء ٢٦ ـ ٢٨ .

٢ ـ التكريم والقرب من الله تعالى بمقتضى قوله سبحانه (**بل عباد مكرمون**) فقد فسر أبو السعود هذا الاكرام بأنهم مقربون عنده تعالى[١] .

٣ ـ كمال طاعتهم وانقيادهم وتبعيتهم لله تعالى فى الأقوال والأفعال كما ينبيء عنه قوله تعالى (**لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**) .

٤ ـ عصمتهم من الذنوب صغيرها وكبيرها فهم مجبولون على الطاعة المطلقة لله سبحانه وتعالى ، وذلك أيضا مأخوذ من ذات النص الكريم السابق ، ومن قوله سبحانه (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)[٢] .

٥ ـ شفاعتهم عند الله تعالى لمن ارتضاه من عباده فحسب ، فلا تتعدى هذه الشفاعة لمن غضب الله تعالى عليهم من الكفرة والمشركين كما قال جل شأنه (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) .

٦ ـ خوفهم من الله تعالى وتعظيمهم لجنابه الأقدس كما أفاده قوله تعالى (**وهم من خشيته مشفقون**) فإن أصل الخشية : الخوف مع التعظيم ، ولذلك خص بها العلماء . والاشفاق : هو الخوف مع الاعتناء[٣] .

٧ ـ عبادتهم لله تعالى على الدوام مع الخضوع والتذلل والخوف والطاعة والاجلال والمعرفة بالله سبحانه ، وهذه المضامين جميعها قد أنبأ عنها التنزيل فى مواضع متعددة ، فمن ذلك : ما تجده فى قوله تعالى : (**ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون**)[٤] .

وفى قوله سبحانه : (**وله من فى السموات الأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون**)[٥] .

قال الإمام الحسن : (**جعلت أنفاسهم لهم تسبيحا**) أنه الملأ الأعلى بكمال عبوديته ومعرفته بالله تعالى : عالم نورانى مثالى مسخر لإرادة الله جل وعلا ، منقاد لمشيئته ، منفذ لأوامره .

وفيما يتعلق بصفات الملائكة أيضا : نورد هذا التحليل الرائع الذى أورده فخر المفسرين (الرازى) فى تفسير قوله تعالى (**والنازعات غرقا ..**) الخ .

يقول رضى الله عنه : أن الملائكة لها صفات سلبية وصفات إضافية ، أما الصفات السلبية : فإنها مبرأة عن الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة والموت[٦] والهرم

(١) أنظر تفسير أبى السعود بهامش تفسير الفخر الرازى ٧ / ٨٠ .

(٢) سورة التحريم : ٦ .

(٣) عند تعدية الاشفاق بمن يكون معنى الخوف فيه أغلب ، وعند تعديته بعلى : يكون معنى الاعتناء أغلب . (أنظر : ارشاد العقل السليم لأبى السعود بهامش مفاتيح الغيب للإمام الرازى ٧ / ٨٠) .

(٤) سورة النحل : ٤٩ ـ ٥٠ . (٥) سورة الأنبياء : ١٩ ـ ٢٠ .

(٦) لعله قصد الموت قبل الأمد البعيد لعارض من علة ونحوها وإلا فهو مختلف مع البيهقى حسبما مر بنا .

والسقم ، والتركيب من الأعضاء والأخلاط والأركان ، بل هي جواهر روحانية مبرأة عن هذه الأحوال . فقوله : (**النازعات غرقا**) إشارة إلى كونها منزوعة عن هذه الأحوال نزعا كليا من جميع الوجوه .

وعلى هذا التفسير : (النازعات) هي ذوات النزع ، كاللابن والتامر .

وأما قوله (**والناشطات نشطا**) إشارة إلى أن خروجها عن هذه الأحوال ليس على سبيل التكلف والمشقة ـ كما في حق البشر ـ بل هم بمقتضى ماهياتهم خرجوا عن هذه الأحوال وتنزهوا عن هذه الصفات .

فهاتان الكلمتان : اشارتان إلى تعريف أحوالهم السلبية ، وأما صفاتهم الإضافية فهي قسمان :

أحدهما : شرح قوتهم العاقلة ، أي : كيف حالهم في معرفة ملك الله وملكوته والاطلاع على نور جلاله . فوصفهم في هذا المقام بوصفين ، (احدهما) قوله (والسابحات سبحا) فهم يسبحون من أول فطرتهم في بحار جلال الله ، ثم لا منتهى لسباحتهم ، لأنه لا منتهى لعظمة الله وعلو صمديته ونور جلاله وكبريائه فهم أبدا في تلك السباحة .

وثانيهما : قوله (**فالسابقات سبقا**) وهو إشارة إلى مراتب الملائكة في تلك السباحة ، فإنه كما أن مراتب معارف البهائم بالنسبة إلى مراتب معارف البشر ناقصة ومراتب معارف البشر بالنسبة إلى مراتب معارف الملائكة ناقصة : فكذلك معارف بعض تلك الملائكة بالنسبة إلى مراتب معارف الباقين متفاوتة ، وكما أن المخالفة بين نوع الفرس ونوع الإنسان بالماهية لا بالعوارض : فكذا المخالفة بين شخص كل واحد من الملائكة وبين شخص الآخر بالماهية ، فإذا كانت أشخاصها متفاوتة بالماهية لا بالعوارض : كانت لا محالة متفاوتة في درجات المعرفة وفي مراتب التجلى فهذا هو المراد من قوله (فالسابقات سبقا) .

فهاتان الكلمتان : المراد منهما شرح أحوال قوتهم العاقلة .

وأما قوله (**فالمدبرات أمرا**) فهو اشارة إلى شرح حال قوتهم العاملة[1] ، وذلك لأن كل حال من أحوال العالم السفلى مفوض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم عمار العالم العلوى وسكان بقاع السموات .

ولما كان التدبير لا يتم إلا بعد العلم : لا جرم قدم شرح القوة العاقلة التى لهم على شرح القوة العاملة التى لهم[2] .

---

(١) وهذا هو القسم الثانى من قسمى صفاتهم الإضافية .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ٨ / ٣١٦ .

أصنافهم وأعمالهم :

الملائكة جنود الله فى مملكته (وما يعلم جنود ربك إلا هو)[1] وقد أعلمنا الله تعالى فى التنزيل الحكيم بما شاء لنا علمه عن طبيعة عالم الملائكة وأصنافهم ووظائفهم وبعض شخصياتهم التى تقوم بمهام جسام فى هذه المملكة الآلهية .

والذى يعنينا هنا : هو القاء نظرة شمولية عجلى توقفنا - من صفحات التنزيل - على أبرز المهام التى يضطلع بها أصناف شتى من الملائكة . فنجد أبرز هذه النوعيات والمهام متمثلة فيما يلى :

١ - رؤوس الملائكة الأربعة الذين يدبرون أمر الدنيا[2] : وهم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم السلام ، وقد صرح التنزيل باسمى الأولين فى قوله تعالى (**من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين**)[3] كما ورد فى السنة أنهما وزيرا رسول الله ﷺ من أهل السماء فيما أخرجه الترمذى عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال (**ما من نبى إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض فأما وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل ، وأما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر**)[4] .

وأما اسرافيل عليه السلام : فهو الملك المسند إليه نفخ الصور فى قوله تعالى : (**ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله**)[5] حيث أخرج الامام أحمد والحاكم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ (**اسرافيل صاحب الصور وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره**)[6] .

وأما عزرائيل عليه السلام : فهو ملك الموت الموكل بقبض الأرواح هو وجنوده من الملائكة وهو المذكور - بصفته - فى قوله تعالى (**قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم**)[7] . أما اسمه فقد ورد صريحا فى رواية عن وهب ابن منبه فى كتاب العظمة لأبى الشيخ .

وقد ورد فى السنة الشريفة ما يفيد تدبير هؤلاء الملائكة الأربعة لأمر الدنيا ، حيث أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى - فى الشعب - عن ابن سابط قال : (يدبر أمر الدنيا أربعة : جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما ملك الموت فموكل

---

(١) سورة المدثر : ٣١ .
(٢) أنظر هذا العنوان وما ورد تحته من أحاديث وآثار فى (الحبائك) للسيوطى ١٣ .
(٣) سورة البقرة : ٩٨ .
(٤) سنن الترمذى ٥ / ٦١٦ .
(٥) سورة الزمر : ٦٨ .
(٦) انظر الحبائك : ٢٦ .
(٧) سورة السجدة : ١١ وانظر تفسير ابن كثير ٦ / ٣٦٢ .

بقبض الأرواح ، وأما إسرافيل : فهو ينزل بالأمر عليهم »[1] .

وهذا الأثر لا يفيد حصر مهمات هؤلاء الأربعة فيما أسند فيه إليهم ، فسيدنا جبريل - مثلا - هو صاحب الوحي إلى الرسل والأنبياء على نبينا الأعظم وعليهم الصلاة والسلام فهو الروح الأمين المراد بقوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين)[2] وهو الممتدح بست صفات في قوله تعالى (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين)[3] .

٢ ـ ومن أصناف الملائكة : حملة العرش وهم في اليوم الآخر ثمانية (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية)[4] وقد بين الحق تعالى جانبا من مهامهم التي من بينها وساطتهم للمؤمنين عند الله تعالى بالاستغفار والدعاء إذ قال عز من قائل (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم)[5] وهذا الصنف مهيم في جمال الله وجلاله وقد يتسمون بالكروبيين .

٣ ـ الحافون حول العرش : وهم غير حملته بدليل عطفهم عليه بقوله (ومن حوله) في النص الكريم السابق ، وفيهم يقول جل شأنه (**وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم**)[6] .

٤ ـ ملائكة الجنة : وهم الذين قال تعالى فيهم (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[7] .

٥ ـ ملائكة النار : قال تعالى (**عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**)[8] وقال سبحانه (**فليدع ناديه سندع الزبانية**)[9] ورئيسهم يدعى مالك : وهو المستغاث به في قوله تعالى (**ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كثون**)[10] .

٦ ـ ومنهم الحفظة الموكلون بحفظ بني آدم . قال سبحانه (**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**)[11] .

---

(١) انظر الحبائك : ١٣ .
(٢) سورة الشعراء : ١٩٣ .
(٣) سورة التكوير : ١٩ ـ ٢١ .
(٤) سورة الحاقة : ١٧ .
(٥) سورة غافر : ٧ ـ ٩ .
(٦) سورة الزمر : ٧٥ .
(٧) سورة الرعد ٢٣ ـ ٢٤ .
(٨) سورة المدثر : ٣٠ ـ ٣١ .
(٩) سورة العلق : ١٧ ـ ١٨ .
(١٠) سورة الزخرف : ٧٧ .
(١١) سورة الرعد : ١١ .

٧ - ومن أصناف الملائكة أيضا : كتبة الأعمال وهم الذين قال تعالى فيهم (**وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون**)(١) .

٨ - ومنهم الموكلون بأحوال هذا العالم ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله (**والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا**)(٢) وبقوله تعالى (**والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا**)(٣) .

٩ - ومنهم رسل الله تعالى إلى أنبيائه وأوليائه بالبشرى والتأييد والموالاة ، قال تعالى (**ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام**)(٤) وقال جل شأنه : (**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم**)(٥) .

وقال عز من قائل (**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون**)(٦) .

وهكذا يطوف بنا القرآن العظيم على هذه الجوانب الملائكية ويطلعنا على مشاهد من ملكوت الملأ الأعلى ليؤصل فينا الإيمان بملائكة الله ، ولينعقد بيننا وبين هذا العالم النوراني الغيبي صلة الولاء والموالاة في الله عز وجل في نور فرقانه العظيم .

وننتقل إلى الركن الثالث من أركان (الإيمان) في :

المبحث الثالث

الإيمان بالكتب المنزلة :

إن الحق تبارك وتعالى قد أمر عباده - في مواطن عديدة من التنزيل الحكيم - أن يؤمنوا بما أنزل على رسله وأنبيائه - صلوات الله وسلامه على خاتمهم وعليهم أجمعين - من كتب وصحف .

فقال عز من قائل (**قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون**)(٧) .

وقال تعالى شأنه (**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا**)(٨) .

---

(١) سورة الانفطار : ١٠ - ١١ .
(٢) سورة الصافات : ١ - ٣ .
(٣) سورة الذاريات : ١ - ٤ .
(٤) سورة هود : ٦٩ .
(٥) سورة الانفال : ١٠ .
(٦) سورة فصلت ٣٠ - ٣١ .
(٧) سورة البقرة : ١٣٦ .
(٨) سورة النساء : ١٣٦ .

وقد روى في سبب نزول هذه الآية الكريمة : أن جماعة من أحبار اليهود(١) جاءوا إلى النبي ﷺ وقالوا : يا رسول الله : انا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير ، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل ، قال رسول الله ﷺ : بل آمنوا بالله وبرسله ، وبمحمد وبكتابه القرآن ، وبكل كتاب كان قبله ، فقالوا : لا نفعل فنزلت هذه الآية ، فكلهم آمنوا(٢) .

ولا ريب أن سبب النزول ههنا قد أعطانا مفادا في غاية الأهمية ، وهو أن الإيمان بالكتب المنزلة على أنبياء الله تعالى لابد وأن يشمل كل ماأنزل الله ، فلو كفر بأى واحد منها أو ببعضه ـ مع ثبوت كونه من عند الله تعالى فإن هذا مقوض لصرح الإيمان كله .

ويدلل الامام الفخر الرازى ـ عقليا ـ لذلك فيقول : (ان ايمانهم ببعض الكتب دون البعض لا يصح ، لأن طريق الإيمان هو المعجزة ، فإذا كانت المعجزة حاصلة فى الكل كان ترك الإيمان بالبعض طعنا فى المعجزة ، وإذا حصل الطعن فى المعجزة : امتنع التصديق بشىء منها ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (**ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا**)(٣) .

كذلك يجلى لنا (الفخر) مدى أصالة هذا الركن الرئيس (الإيمان بالكتب الآلهية) فى بناء الإيمان وذلك من خلال تساؤل تفسيرى وجوابه فى الآية التى معنا فيقول :

السؤال الثانى : لم ذكر فى مراتب الإيمان أمورا ثلاثة : الإيمان بالله والرسول وبالكتب وذكر فى مراتب الكفر أمورا خمسة : الكفر بالله ، وبالملائكة ، وبالكتب ، وبالرسل ، وباليوم الآخر ؟

والجواب : أن الإيمان بالله وبالرسل وبالكتب متى حصل : فقد حصل الإيمان بالملائكة واليوم الآخر لا محالة ، إذ ربما ادعى الانسان أنه يؤمن بالله وبالرسل وبالكتب ثم أنه ينكر الملائكة وينكر اليوم الآخر ، ويزعم أنه يجعل الآيات الواردة فى الملائكة وفى اليوم الآخر محمولة على التأويل فلما كان الاحتمال قائما لا جرم نص أن منكر الملائكة ومنكر القيامة كافر بالله)(٤) .

وقد وجه الحق تبارك وتعالى رسوله الأعظم ﷺ والأمة بالتبعية له أن يؤمن بجميع ما أنزل الله من كتب وأن يعلن ذلك بالقول صراحة وقرن ذلك بالأمر بدعوته ﷺ قال (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم)(٥) .

---

(١) روى الواحدى : أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وأسد ابنى كعب ، وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمنى أهل الكتاب (انظر : أسباب النزول بتحقيق السيد صقر ص ١٧٨) .

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ٣ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٣ / ٣٣٠ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) سورة الشورى : ١٥ .

كذلك امتدح الحق تعالى عباده المؤمنين بما أنزل على الرسول ﷺ وما أنزل على الأنبياء من قبله بالهداية وبالفلاح إذ قال سبحانه (**والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**)(١) .

ونعى القرآن الكريم على طائفة من أهل الكتاب ـ وهم اليهود ـ الذين قصروا إيمانهم على ما أنزل عليهم وكفروا بغيره ـ وهو القرآن ـ الذى هو مصدق لما معهم فقال عز شأنه : (**وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**)(٢) .

وقبل أن نتعرف على نظرة القرآن الكريم لما بين يديه من الكتب وموقفه منها : نتساءل عن عدد هذه الكتب ؟ وعلى من نزلت من الأنبياء والرسل السابقين ؟

ورغم استشراف هذين التساؤلين لآفاق بعيدة من المغيبات الضاربة فى أحشاء الماضى السحيق فإننا بالبحث ـ المستمد من مدد العليم جل شأنه لانعدم التوصل إلى جواب ، فلقد روى الحافظ ابن كثير في تفسيره حديثا طويلا ـ بسنده ـ عن أبى ذر رضى الله عنه فى عدد الأنبياء على نبينا الأعظم وعليهم الصلاة والسلام قال فيه : « قلت : يا رسول الله كم كتابا أنزله الله ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب . أنزل الله على شيث ، خمسين صحيفة ، وعلى خنوخ(٣) ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل على موسى ـ من قبل التوراة ـ عشر صحائف ، والانجيل والزبور والفرقان »(٤) .

أما الكتب السماوية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ـ من جملة ما نزل ـ فهى : التوراة والإنجيل والزبور وصحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسى . ثم الفرقان .

فأما التوراة :

فيقول الله تعالى معرفا بها فى التنزيل : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون »(٥) .

---

(١) سورة البقرة : ٤ ـ ٥ . (٢) سورة البقرة : ٩١ .

(٣) هو سيدنا ادريس على نبينا وعليه الصلاة والسلام كما فى نفس الرواية قبل هذا النص فى تفسير ابن كثير ٢/٢٦٤ .

(٤) أخرج القرطبى فى تفسيره (١/١٨٠) هذا الجزء من الحديث عن حسين الأجرى وأبى حاتم البستى . .

(٥) سورة المائدة : ٤٤ ـ ٤٥

لقد شهد القرآن الكريم بإنزال التوراة ، وفيها الهدى والنور من أصول الشريعة وفروعها فيما يتعلق بأمة بنى إسرائيل .

كما ذكر القرآن الكريم أيضا : أن الذين أسلموا ـ ويراد بهم أنبياء بنى إسرائيل الذين جاءوا بعد سيدنا موسى وسيدنا هارون كسيدنا داود وسيدنا سليمان عليهم السلام ـ كانوا يحكمون بالتوراة فى أمة بنى إسرائيل كما كان يحكم بها أيضا الربانيون ـ وهم العباد المجتهدون ـ والأحبار ـ وهم آحاد العلماء ـ وذكر لنا التنزيل طرفا من تشريع التوراة .

وقد تناول المفسرون تسمية التوراة بالبحث فبرز من معالجتهم لها اتجاهان :

أولهما : أن (التوراة) لفظ عربى مشتق من (الورى) وهو الظهور فى الأصل ، فالعرب تقول : ورى الزنديرى : إذا قدح وظهرت النار ، وقد قال تعالى (**فالموريات قدحا**)[1] وقد سميت التوراة بذلك : لظهور الحق بها ويشهد لذلك قوله تعالى (**ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين**)[2] ، وهذا منحه الفراء فى اشتقاقها .

والثانى : أن (التوراة) اسم أعجمى كالانجيل ، وأن تكلف اشتقاقهما من الورى والنجل ووزنهما بتفعلة وافعيل لا يصح ، ولاسيما وقد قرأ الحسن (الأنجيل) بفتح الهمزة وهو دليل على العجمة ، لأن أفعيل بفتح الهمزة عديم فى أوزان العرب . وهذا ما قرره الزمخشرى فى (الكشاف) ورجحه الفخر فى تفسيره[3] .

أما المحدثون من العلماء والباحثين فيرون أن لفظة (توراة) معربة عن العبرانية .. وأصلها (تورا) وتعنى : الشريعة ، ويرى قدماء العبرانيين : أن المراد بها : الأسفار الخمسة وهى : التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية ، ثم توسع العبرانيون فى مدلولها ـ فيما بعد ـ فأطلقوا التوراة على جميع الأسفار التى يقال لها (العهد القديم)[4] .

وإذا كان القرآن الكريم قد أعطى شهادته للتوراة الصحيحة ـ التى أسلفناها آنفا ـ بأنها منزلة من عند الله وفيها الهدى والنور وعرفنا بجانب من تشريعها الذى أنزله الله : فإن القرآن المهيمن على ما سبقه من الكتب الالهية قد تصدى لكشف تحريف التوراة بأيدى من استحفظوا عليها من اليهود وسجل عليهم تحريفهم وتبديلهم لكلمات الله وتركهم نصيبا مما أمروا به وإخفائهم إياه : فقد قال تعالى فى حقهم : (**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**)[5] .

---

(١) سورة العاديات : ٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٤٨

(٣) انظر الكشاف ٤١٠/١ ومفاتيح الغيب ٣٩٠/٢ .

(٤) انظر : روح الدين الاسلامى لعفيف طبارة ص ١٤٤ .

(٥) سورة البقرة : ٧٥

وقال تعالى (**من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين**)[١] وقال تعالى : (**فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ..**)[٢] ثم لقد خاطب التنزيل اليهود والنصارى والمحرفين لكتابهم معا والمخفين لكثير منها فقال عز من قائل (**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير**)[٣] .

لقد أخفى اليهود من التوراة نعت سيدنا محمد ﷺ كما أخفوا آية الرجم منها وأخفى النصارى بشارة سيدنا عيسى بسيدنا أحمد ﷺ من الإنجيل[٤] ولو نظرت فيما يدعى أنه التوراة الآن : فلن تجد ذكرا للحساب والجزاء فى الآخرة[٥] . وننتقل إلى ذكر : **الإنجيل فى القرآن الكريم :**

فنجد شهادة الحق للحق بالحق متمثلة فى قوله تعالى (**وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين**)[٦] .

لقد شهد القرآن الكريم للإنجيل (الصحيح) بتحقق صفات خمس فيه وهى :

١ ـ أنه ذو هدى .
٢ ـ وأنه ذو نور .
٣ ـ وأنه مصدق لما بين يديه من التوراة .
٤ ـ وأنه هدى .
٥ ـ وأنه موعظة للمتقين .

ويوضح لنا الفخر الرازى هذه الصفات الخمس فى تفسيره فيقول :
(إن الانجيل هدى بمعنى : أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد ، والمثل والضد ، وعلى النبوة والمعاد، فهذا هو المراد بكونه هدى .

وأما كونه نورا : فالمراد به كونه بيانا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف .

---

(١) سورة النساء : ٤٦ .
(٢) سورة المائدة : ١٣
(٣) سورة المائدة : ١٥ .
(٤) انظر : أنوار التنزيل للبيضاوى ٢٢٥/١ .
(٥) انظر : روح الدين الاسلامى ص ١٤٤
(٦) سورة المائدة : ٤٦ .

وأما كونه مصدقا لما بين يديه : فيمكن حمله على كونه مبشرا بمبعث (سيدنا) محمد[1] ﷺ وبمقدمه)[2] .

وأما كونه هدى - مرة أخرى - فلأن اشتماله على البشارة بمجيء (سيدنا) محمد ﷺ سبب لاهتداء الناس إلى نبوة سيدنا محمد ﷺ ، ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك : لا جرم أعاده الله تعالى مرة أخرى ، تنبيها على أن الانجيل يدل دلالة واضحة على نبوة (سيدنا) محمد ﷺ فكان هدى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير . وأما كونه موعظة : فلاشتمال الانجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة ، وإنما خصها بالمتقين : لأنهم الذين ينتفعون بها كما في قوله : (**هدى للمتقين**)[3] .

هذه هي نظرة القرآن للانجيل الصحيح الذي أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام وهو الانجيل الذي يجب الايمان به .

نقد الأناجيل الحالية :

أما الأناجيل الحالية : فإنها - بالقطع - ليست كتاب الله المنزل على سيدنا عيسى عليه السلام وليست هي الانجيل الوارد ذكره في القرآن الكريم لما يأتي :

أولاً : أن الانجيل الذي أنزله الله تعالى ورد في القرآن الكريم بصيغة المفرد ولم يرد بصيغة الجمع (أناجيل) وذلك لانه إنجيل واحد غير متعدد .

ثانياً : أن الأناجيل الحالية ليست من كلام الله تعالى ولهذا لم تنسب إليه سبحانه وإنما نسبت إلى واضعيها من البشر ، وقد اعتمد المسيحيون رسميا في أوائل القرن الرابع الميلادي أربعة أناجيل - مختارة من بين أناجيل أخرى بالغة الكثرة - منسوبة إلى مؤلفيها وهي انجيل لوقا وانجيل متى وأنجيل يوحنا وانجيل مرقس . وهؤلاء الأربعة لم يكونوا من الحواريين المعاصرين لنزول الانجيل الحقيقي . وبنسبة هذه الاناجيل لمؤلفيها هؤلاء تسقط نسبتها إلى الله تعالى بل وإلى سيدنا عيسى عليه السلام[4] .

---

(١) ما بين المعقوفتين (لفظ السيادة) إضافة مني للتكريم والتعظيم .

(٢) بشر الانجيل بمقدم النبي ﷺ وورد فيه - وفي التوراة أيضا - وصف صحابة سيدنا رسول الله ﷺ كما صرح به قوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) سورة الفتح : ٢٩ .

(٣) انظر : مفاتيح الغيب ٤١١/٣ .

(٤) انظر : تاريخ الأديان المقارن للدكتور محمد فتح الله بدران ص ٥٦ .

ثالثاً : أن هذه الاناجيل الحالية ـ وكذلك التوراة من قبل ـ فضلا عن كونها لم تكتب في زمان التنزول فإنها قد ترجمت من لغات كثيرة إلى لغات أخرى وقد اعتراها من جراء الترجمات المتعددة واختلاف النطق : اختلافات جوهرية كثيرة[١] .

رابعاً : لقد صرح القرآن الكريم بأن النصارى قد نسوا حظا كبيرا من أصل كتاب الله تعالى فقال تعالى : (**ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون**)[٢] .

كما صرح التنزيل بأن كلا من النصارى واليهود قد أخفوا كثيرا من الانجيل والتوراة حيث قال سبحانه (**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير**)[٣] .

ومن ثم : يتحصل لدينا اليقين الجازم بأن هذه الاناجيل المختلفة ليست هي كتاب الله الذى أنزله على سيدنا عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ والذى يجب الايمان به ككتاب سماوى .

ثم نأتى إلى ثالث الكتب الالهية المذكورة فى التنزيل ، وهو :

الزبور : وهو كتاب الله المنزل على سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

الزبور فى اللغة : هو الكتاب ، وهو فعول بمعنى مفعول كالرسول والحلوب .

وقال الزجاج : الزبور كل كتاب ذى حكمة ، وعلى هذا : أقرب إلى أن يكون من الزبر وهو الزجر ، وسمى الكتاب زبورا : لما فيه من الزبر عن خلاف الحق . وبه سمى زبور داود ، لما فيه من الزواجر والمعاصى[٤] .

وقد أخبر القرآن الكريم بأن الله تعالى أتى سيدنا داود ـ على نبينا وعليه السلام ـ الزبور فقال : عز شأنه : (**ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا**)[٥] .

كذلك تضمن القرآن الكريم نصا من (الزبور) فيه بشارة للأمة المحمدية بوراثة الأرض فى الدنيا والآخرة ، إذ قال تعالى (**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**)[٦] .

---

(١) نفس المرجع
(٢) سورة المائدة : ١٤ .
(٣) سورة المائدة : ١٥ .
(٤) انظر : مفاتيح الغيب ١١٢/٣ .
(٥) سورة الاسراء : ٥٥
(٦) سورة الأنبياء : ١٠٥ وانظر تفسير ابن كثير ٣٧٩/٥ وتفسير الألوسى ٩٥/١٥ .

ولقد تناول العلماء والمفسرون محتوى الزبور بالوصف فذهب الكثرة إلى أنه كتاب ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود ، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد[1] .

بينما ذهب الامام الآلوسى إلى اشتماله على بعض النواهى والأوامر مستدلا لذلك بما رواه ابن أبى شيبة من أنه مكتوب فيه :

(إنى أنا الله . لا إله إلا أنا ، ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدى ، فأيما قوم كانوا على طاعة جعلت الملوك عليهم رحمة ، وأيما قوم كانوا على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، ولا تتوبوا إليهم ، وتوبوا إلى أعطف قلوبهم عليكم) ثم قال : والمزامير التى يفهم منها الأمر والنهى كثيرة فيه كما لا يخفى على من رآه)[2] .

ولقد منى (الزبور) أيضا بالتحريف كما منيت التوراة والانجيل ، إذ يقول ابن حزم فى : (الفصل) ، وقلنا ونقول : ان كفار بنى إسرائيل بدلوا التوراة والزبور فزادوا ونقصوا وأبقى الله تعالى بعضها حجة عليهم كما شاء ... »[3] .

وقد ساق ابن حزم طرفا من تحريف بنى إسرائيل وافترائهم على الزبور الكذب والاختلاق فقال فى هذا الصدد : « وأما الكتاب الذى يسمونه الزبور : ففى المزمور الأول منه قال لى الرب أنت ابنى أنا اليوم ولدتك »[4] تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ومن ثم يتأكد لنا أنه قد فعل بالزبور ما فعل بالتوراة وبالانجيل من التبديل والتحريف والكذب على الله تعالى .

وأما صحف سيدنا إبراهيم وصحف سيدنا موسى عليهما السلام :

فقد ورد ذكرهما فى القرآن الكريم معا صراحة مرتين : أولاهما فى قوله تعالى **(أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى)**[5] .

والثانية : فى قوله تعالى (قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، ان هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى)[6] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٢٧٨/١٠ .
(٢) انظر : روح المعانى ٩٥/١٥
(٣) انظر : الفصل فى الملل والنحل ٩/٢ .
(٤) انظر الفصل ٤/٢
(٥) سورة النجم : ٣٦ ـ ٣٩ .
(٦) سورة الأعلى ١٤ ـ ١٩

وقد عرف المفسرون بمضمون هذه الصحف وأتوا ببعض نصوصها من خلال الآثار المروية ، فقد نقل القرطبي الجزء المعرف بهذه الصحف من حديث سيدنا أبي ذر الذى أخرجه الآجرى ورواه ابن كثير في تفسيره وهو : (قال : قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : « كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فاني لا أردها ولو كانت من فم كافر) .

وكان فيها أمثال : « وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، يفكر فيها فى صنع الله عز وجل إليه ، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل : ألا يكون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، ومرمة لمعاش ولذة في غير محرم ، وعلى العاقل : أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن عد كلامه من عمله : قل كلامه إلا فيهما يعنيه » .

قلت : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كانت عبرا كلها ، عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل ، قال : قلت : يا رسول الله ، فهل فى أيدينا شيء مما كان فى يدى إبراهيم وموسى ؟ قال : نعم ، اقرأ يا أبا ذر : « **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى** »[١] .

ثم نأتى إلى خاتم الكتب السماوية « القرآن الكريم » :

والحديث عن القرآن العظيم من أى الزوايا يحتاج إلى أعمار مديدة ، وأسفار عديدة ، ثم لا يفى الحديث بحق أحسن الحديث .

وكيف نتحدث عنه وهو بين أيدينا ناطق بسر اعجازه وخلوده ؟و وكيف لا نتحدث عنه وهو لم يزل بعد بكر المعانى لم ولن تفنى عجائبه ولم ولن تنقضى غرائبه ؟

(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[٢] .

(كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[٣] .

(كتاب نوه الحق تعالى بعظيم شرفه فأشار إليه بالتعظيم ، وعرفه بلام الحقيقة ونفى

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٢٠ ـ ٢٤ وتفسير ابن كثير ٢/٤٢٤ والآيات من سورة الأعلى ١٤ ـ ١٩ .

(٢) سورة ص : ٢٩ .　　(٣) سورة إبراهيم : ١ .

عنه الريب وجعله هدى للمتقين فقال عز من قائل (**الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**)(١) .

كتاب تكفل الحق تعالى بحفظه . دون ما سواه . فعصم مما منيت به الكتب الأُخرى من التبديل والتحريف والنسيان والاختلاق . فقال تعالى شأنه (**انا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)(٢) .

ومن هذا المنطلق نتعرف على موقف القرآن الكريم من الكتب السماوية التى نزلت بين يديه . لقد تكفل التنزيل نفسه بتوضيح هذا الموقف وابراز معالمه الوضاءة ، إذ قال عز من قائل : (**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**)(٣) .

لقد قرر التنزيل موقفه مما سبقه من الكتب ممثلا فى أمرين رئيسين :

أولهما : تصديقه لها .
وثانيهما : هيمنته عليها .

فأما تصديقه للكتب المتقدمة بين يديه : فالمراد به : أنه مطابق لها فى تقرير أصول الدين والملة ، وهى الأصول الثابتة فى كل رسالة سماوية ، وهذه الأصول هى : المبدأ (الله) الوسط : (الرسل) - المعاد : (اليوم الآخر) .

وكذلك هو مصدق لها بمعنى أنه نازل حسبما نعت فيها .

وكذلك هو مصدق لها بمطابقته لها فيما لم ينسخ كالقصص والمواعظ ، وبعض المحرمات كالكذب والزنا والربا ، أو مطابق لجميع ما فيها ، وإنما المخالفة فى بعض جزئيات الأحكام التى هى للأمراض القلبية كالأدوية الطبية للأمراض البدنية المختلفة بحسب الأزمان والأشخاص وليست مخالفة لها فى الحقيقة ، بل هى موافقة لها من حيث إن كلا منها حق فى عصره متضمن للحكمة التى يدور عليها فلك التشريع(٤) .

وأما هيمنة القرآن الكريم على سائر الكتب السماوية السابقة : فالمراد بها : أنه رقيب وشاهد على كل ما تقدمه من كتب الله السماوية المحفوظة من التغيير . حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة ببيان انتهاء مشروعيتها المستفادة من تلك الكتب وانقضاء وقت العمل بها(٥) .

---

(١) سورة البقرة : ١ - ٢ .
(٢) سورة الحجر : ٩
(٣) سورة المائدة : ٤٨ .
(٤) انظر : روح المعانى للامام الألوسى ٤٤/١ .
(٥) انظر : تفسير أبى السعود ، بهامش مفاتيح الغيب ٤٤٢/٣ .

كذلك فسرت الهيمنة لدى سلف الأمة - كالامام ابن عباس والحسن وابن جبير - بأنه أمين ومؤتمن على الكتب المتقدمة(١) .

كما فسرت الهيمنة بالعلو والارتفاع ، وأن هذا يدل على التفضيل في كثرة الثواب(٢) .

وإنما كان القرآن الكريم مهيمنا على ما سبقه من الكتب الالهية : لأنه الكتاب الوحيد - من بين كتب السماء - الذى تكفل الحق تعالى بحفظه وحمايته من التحريف ، والتغيير والتبديل والاخفاء كلا أو بعضا ، حيث تعهد الله سبحانه بحفظه من كل ذلك فيه صراحة حيث قال سبحانه : (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**)(٣) .

بينما وكل حفظ الكتب السابقة إلى الربانيين والأحبار كما قال تعالى (**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء**)(٤) وتحقق وعد الله تعالى : ومضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرنا من الزمان ولم يزل - وسيظل - كما أنزله الله تعالى محفوظا ومصدقا ومهيمنا باذن الله تعالى وحفظه ، إذ هو الوثيقة الآلهية الباقية لهداية الإنسانية إلى النور .

اللهم بحقه لديك اجعلنا من أهله ، وورثته المتحققين بهديه الداعين به إليك المنتمين به لجنابك ولحضرة رسولك ﷺ في الدنيا ويوم الدين .

المبحث الرابع
في
الركن الرابع من أركان الايمان :

الإيمان برسل الله

تظاهرت النصوص القرآنية الداعية إلى الإيمان برسل الله ﷺ أجمعين والموجبة لاعتقاد تبليغهم وعصمتهم جميعا وعدم التفرقة بينهم .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٢١٠/٦
(٢) نفس المرجع .
(٣) سورة الحجر : ٩ .
(٤) سورة المائدة : ٤٤ .

فمن الآيات الداعية إلى الإيمان برسل الله جميعا :

قوله تعالى (**فآمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**)(١) .

ومنها قوله سبحانه (**فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم**)(٢) .

وقد قرن التنزيل الحكيم دعوته إلى الإيمان برسل الله وعدم التفرقة بينهم بالوعد والوعيد فقال عز من قائل (**ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا . وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما**)(٣) .

وقال تعالى شأنه (**والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم**)(٤) .

وقال جل اسمه (**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**)(٥) .

والرسل : جمع رسول ، وهو : من أوحى إليه بشرع يعمل به ويبلغه لغيره ، فهو أخص من النبى الذى هو : انسان ذكر حر من بنى آدم سليم عن منفر طبعا أوحى إليه بشرع يعمل به ، وإن لم يؤمر بتبليغه(٦) . فكل رسول نبى ، ولا عكس .

ولقد بين الله تعالى فى التنزيل حكمه البالغة الداعية إلى ارسال الرسل فقال عز من قائل (**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**)(٧) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٧٩ .

(٢) سورة النساء : ١٧١

(٣) سورة النساء : ١٥٠ ـ ١٥٢ .

(٤) سورة الحديد : ١٩

(٥) سورة الحديد : ٢١ .

(٦) انظر حاشية تحفة المريد على جوهرة التوحيد للشيخ الباجورى ص ٨ .

(٧) سورة البقرة : ٢١٣ .

من هذه الآية الكريمة الجامعة يستنبط ما يلى : فى ضوء أقوال المفسرين :

١ - أن الناس كانوا فى البدء قاطبة - فيما بين سيدنا آدم ونوح عليهم السلام - متفقين على كلمة الحق ودين الإسلام ، ثم اختلفوا بسبب البغى بينهم ، فانتحلوا المذاهب الباطلة .

٢ - أن الله تعالى تداركهم برحمته ولطفه فبعث النبيين لحسم هذا الاختلاف بالدستور الإلهى (الكتاب السماوى) وهذا مفاد قوله سبحانه (**ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**) فالأنبياء (الرسل) حكام بشرع الله وسفراء لله إلى خلقه لرحمتهم ، وشهداؤه عليهم .

٣ - أن الرسل مبعوثون للتبشير وللانذار مع الحكم بما أنزل الله تعالى .

٤ - وأن معقد مهمة الرسول هى الهداية (**فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق**) .

٥ - وأن تلك الهداية لله على الحقيقة وللرسول سببا (**وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم**)(١) .

٦ - وأن هذه الهداية المرجوة من ارسال الرسل إنما هى منوطة ومعلقة بالمشيئة الالهية وأن مهمة الرسول منحصرة فى التبليغ (إن عليك إلا البلاغ)(٢) ، (**والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم**)(٣) .

وفى آية كريمة أخرى يبين الحق تعالى لنا الحكمة من ارسال الرسل فيقول جل شأنه : (**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما**)(٤) .

وهذه لعمرى أقوى دليل على قصور العقل البشرى الذى لا يصلح - وحده - على الاطلاق أن يكون أداة للهداية ، وإلا لما كان الاحتجاج قائما بدون الرسل ، وقد ذكر الحق تعالى لنا هذا الاحتجاج المحقق وقوعه فيما لو لم يبعث رسولا فقال تعالى (**ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى**)(٥) .

وإذا : ففى ارسال الرسول سقوط للحجة وقطع للعذر بعد تبيان الصراط المستقيم . وفى حقيقة الأمر أن ارسال الرسل إنما هو بمحض فضل من الله واحسانه .

قال العلامة أبو السعود : (وإنما سميت حجة - مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة فى فعل من أفعاله بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء - للتنبيه على أن المعذرة

---

(١) سورة الشورى : ٥٢ .
(٢) سورة الشورى : ٤٨ .
(٣) سورة البقرة ٢١٣ .
(٤) سورة النساء : ١٦٥ .
(٥) سورة طه : ١٣٤

فى القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجة القاطعة التى لا مرد لها ، ولذلك قال تعالى (**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**[1] ...)[2] .

النبوة والرسالة : اصطفاء واجتباء :

وقد قرر القرآن الكريم أن الرسالة محض اجتباء واصطفاء من الله تعالى فلا تنال باكتساب العبد - خلافا لمن زعم ذلك من الفلاسفة - فقال تعالى شأنه (**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس**)[3] ، وقال سبحانه (**ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء**)[4] ، (**وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**)[5] .

إنه الاصطفاء الالهى لمن يحملون رسالات الله إلى عباده ، فلا جرم أن يكونوا فى أوج الكمال الفطرى والكسبى ، انهم صفوة الحق تعالى الذى اصطنعهم لنفسه ، وعلى عينه وتكفل بحفظ ظواهرهم وبواطنهم مما لا يليق بأصفى صفوة الله .. فرباهم فى أعطاف العناية العظمى وجبلهم على الصدق والأمانة والفطانة ثم أهلهم لتبليغ كلمته لخلقه على أحسن ما يكون التبليغ ، فهم : (**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا**)[6] .

لقد زودهم ربهم بالخشية من جنابه وحده ، وحلاهم وكملهم بالعلم والحكم والاحسان (**ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين**)[7] .

وإننا لنلمس فى قصص الأنبياء فى القرآن العظيم : الشيء الكثير مما حظى به أولئك الرسل الهداة من مقومات مثالية لأقطاب الدعوة إلى الله على بصيرة .

فها هو سيدنا (هود) عليه السلام يقدم نفسه إلى قومه بأبرز هذه المقومات - فى عبارة وجيزة مشحونة بالمضامين - قائلا : (**يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين**)[8] .

لقد اجتمعت الصفات الأربع التى تجب أن تتوفر فى الرسول فى هذا التقديم النورانى إذ أن قوله (**ولكنى رسول من رب العالمين**) هو دعوى الرسالة المؤيدة بالمعجزة التى هى بمنزلة قوله تعالى : صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى . وهذه صفة الصدق . وقوله (**أبلغكم**) فيه صفة التبليغ .

---

(١) سورة الاسراء : ١٥ .

(٢) انظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٣/٣٢٤ .

(٣) سورة الحج : ٧٥ .

(٤) سورة آل عمران : ١٧٩ .

(٥) سورة ص : ٤٧

(٦) سورة الأحزاب : ٣٩ .

(٧) سورة يوسف : ٢٢

(٨) سورة الأعراف : ٦٧ - ٦٨ .

وقوله : (وأنا لكم ناصح) مشتمل على صفة الفطانة ، إذ أن النصح مستلزم لفطانة الرسول حتى يثمر نصحه في قومه .

وقوله (أمين) صريح فى افادة صفة الأمانة .

ثم ناهيك بتقديم الله تعالى رسوله الأعظم سيدنا محمد ﷺ إلى أمته بقوله جل شأنه (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**)(١) .

لقد قدمه الحق تعالى لأمته المكرمة ـ جعلنا الله تعالى من خواصها فى الدارين ـ باسمين من أسمائه الحسنى وهما : (الرءوف) و(الرحيم) ؛ يقول سيدى جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه وعنا به (علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته فعرفهم ذلك لكى يعلموا أنهم لا ينالهم الصفو من خدمته فأقام سبحانه بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم فى الصورة فقال (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**) وألبسه من نعمته : الرأفة والرحمة ، وأخرجه الى الخلق سفيرا صادقا ، وجعل طاعته : طاعته ، وموافقته موافقته فقال سبحانه (**من يطع الرسول فقد اطاع الله**)(٢) ...)(٣) .

هذا : وبثبوت الصفات الواجبة لرسل الله صلوات الله وسلامه على رسولنا وعليهم أجمعين تنتفى أضدادها ، وتتأكد لهم العصمة لأنها نفس مدلول صفة الأمانة الثابتة لهم بنفى ضدها وهو الخيانة المنتفية عنهم بقوله تعالى (**وما كان لنبى أن يغل**)(٤) اذ أن الغلول هو الخيانة . وحاشا لاكرم خلق الله وأمنائه أن يخونوا .

والأمانة عند المتكلمين هي : حفظ الله تعالى ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ولو نهى كراهة أو خلاف الأولى(٥) وكذلك العصمة هى حفظ الله تعالى للأنبياء وللرسل من الذنب مع استحالة وقوعه .

عدد الأنبياء والرسل :

روى الإمام أحمد بسنده الى أبى أمامة رضى الله عنه حديثا حافلا دار بين النبى ﷺ وبين ابى ذر رضى الله عنه وقد ورد فيه عدد الأنبياء وعدد الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى منذ فجر البشرية والى قيام الساعة ، اذ قال (قلت : يارسول الله : كم وفى عدة الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر ، جما غفيرا)(٦) .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٨ .
(٢) سورة النساء : ٨٠ .
(٣) أنظر تفسير الآلوسى ١١ / ٥٧ .
(٤) سورة آل عمران : ١٦١ .
(٥) أنظر : تحفة المريد للامام الباجورى ١٢١ ، ١٣٤ .
(٦) أنظر المسند ٥ / ٢٦٦ .

ولقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله الأعظم ﷺ (**ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ..**)[1] وقد ورد فى القرآن الكريم ذكر أسماء خمسة وعشرين نبيا كريما وهم سادتنا : آدم وادريس ونوح وهود وصالح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان والياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وذو الكفل ثم سيدهم وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ المبعوث للناس كافة كما قال تعالى (**قل ياأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا**)[2] وقال عز من قائل (**ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**[3] .

المبحث الخامس

فى

الركن الخامس من أركان الايمان :

الإيمان باليوم الآخر

تجلت عظمة القرآن الكريم فى تجسيد الجانب الغيبى وابرازه كالمشاهد الماثل أمام الحس والعقل والوجدان ، حتى يسلك الإيمان سبيله إلى القلب ويرسخ فى اللب عميقا ثابتا وشامخا ، ولقد تجلت تلك العظمة القرآنية فى تعميق الإيمان باليوم الآخر بتنوع خاص فألفينا آيات التنزيل تبرز فى معرض الحتمية ـ تحقيق اليوم الآخر بما اشتمل عليه من حياة بعد الموت ونعيم وعذاب فى القبر ومن بعث وحشر وحساب وميزان وصراط وجنة ونار وغير ذلك .

ولقد أكد لنا التنزيل أهمية هذا الركن الركين فى بناء الإيمان حيث ورد فى بعض الآيات قرين الإيمان بالله تعالى مباشرة وقبل الاركان الأخرى حيث قال سبحانه (**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين**)[4] .

كما نجد بعض الآيات الداعية إلى الإيمان يقتصر فيها على الإيمان بالله واليوم الآخر اذ يقول سبحانه (**وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ..**)[5] .

فالحق تعالى يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به لربط المعاد بالمبدأ ، ولأن ثمرة

---

(١) سورة غافر : ٧٨ .
(٢) سورة الأعراف : ١٥٨ .
(٣) سورة الأحزاب : ٤٠ .
(٤) سورة البقرة : ١٧٧ .
(٥) سورة النساء : ٣٩ .

الإيمان بالله تعالى تجتنى فى اليوم الآخر ، ففى كل من الركنين العظيمين مدعاة للإيمان بالركن الآخر .

كذلك سلك الحق تعالى الايمان باليوم الآخر فى سلك مقومات التقوى والهداية والفلاح ، اذ قال تعالى شأنه **(ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)**(١) .

ولقد اقترنت دعوة القرآن للايمان باليوم الآخر : بالوعد وبالوعيد ، فقال تعالى **(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم)**(٢) .

وقال تعالى **(ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الأخسرون)**(٣) .

وقال تعالى **(للذين لايؤمنون بالآخرة مثلُ السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم)**(٤) .

وقد ذهب العلماء فى بيان المراد باليوم الآخر الى قولين :

أحدهما : أنه الوقت الذى يبدأ من الحشر الى ما لا يتناهى فهو الأبد الدائم .

والثانى : أنه الوقت المحدود من النشور الى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

فعلى الأول : تكون تسميته بالآخر : لأنه آخر أيام الدنيا ـ على معنى أنه متصل بآخر أيامها ، لأنه ليس من أيام الدنيا حتى يكون آخرها فعلا .

وعلى الثانى : سمى بالآخر لأنه آخر الأزمنة المحدودة ، وعلى كليهما : لانه لا ليل بعده(٥) .

ويسمى اليوم الآخر بيوم القيامة ، لقيام الناس فيه من قبورهم للمثول بين يدى ربهم كما قال تعالى **(يوم يقوم الناس لرب العالمين)**(٦) .

والذى أرجحه : أن اليوم الآخر يبدأ بالموت ، لقول الرسول ﷺ : (ان القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وان لم ينج منه فما بعده أشد منه)(٧) .

---

(١) سورة البقرة ٢ ـ ٥ . (٢) سورة التوبة ٩٩ .
(٣) سورة النمل ٤ ـ ٥ . (٤) سورة النحل : ٦٠ .
(٥) انظر مفاتيح الغيب ١ / ١٨٧ وتحفة المريد ١٧٥ ، والمحرر الوجيز لابن عطية ١ / ١٥٧ .
(٦) سورة المطففين : ٦ . (٧) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم ، انظر كنز العمال ١٥ / ٦٣٤

ولا ريب أن اطلاق اسم اليوم على اليوم الآخر اطلاق مجازى ، اذ اليوم ما حدد عرفا : بما بين شروق الشمس وغروبها ، وشرعا بما بين الفجر والغروب .

استدلال التنزيل على وقوع البعث والحساب والجزاء :

برزت عناية القرآن الكريم الفائقة بشأن البعث واليوم الآخر وتأصيل هذا الجانب العقدى وتقريره في النفوس ، وترسيخ الايمان به حتى أننا قلما نجد سورة فى التنزيل إلا وللبعث واليوم الآخر فيها سهم وأى سهم .. فمن استدلال يقوم على إدراك الفطرة الى برهان عقلى ملزم الى تصوير واقعى لأحداث ذلك اليوم العظيم الى غير ذلك .

ولقد تجلت عظمة القرآن حقا فى الاستدلال على حتمية وقوع البعث بربطه بأصل الأصول وهو الإيمان بالله تعالى وتقرير استلزام الايمان بالمبدأ للايمان بالمعاد .

فالايمان بالله تعالى وبصفاته وأسمائه التى منها الحكم والعدل والباعث والشهيد والحق والمبدىء والمعيد : قاض بضرورة البعث والاعادة والحساب والجزاء ، وإلا لكان خلق الانسان فى هذه الحياة عبثا ، تعالى الله عن ذلك ، وجل جلاله القائل :

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم)(1) .

فمن أنكر البعث من الكفار فإن وراء انكاره للبعث كفرا بالله تعالى أو بصفة من صفاته ، كالقدرة على الاعادة مثلا ، ولقد سجل التنزيل هذا الانكار ودفعه باثبات موجبه من تعلقات الايمان بالله تعالى .

فمن ذلك قوله جل شأنه **(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى انزلنا)**(2) .

لقد دفع انكارهم المنوط بعدم ايمانهم بالقدرة على الاعادة بقوله سبحانه **(وذلك على الله يسير)** ثم أردفه بالامر بالايمان بالله ورسوله وكتابه .

وقد أقام القرآن الكريم على امكانية البعث والحشر والنشر صروحا شامخة من الأدلة العقلية(3) فى عديد من آياته وسوره متخذا فى ذلك ضروبا شتى ومسالك متنوعة فى الاستدلال فمن ذلك : اثبات التنزيل لامكانية الحشر والنشر بناء على أنه تعالى : قادر على أمور تشبه الحشر والنشر : ولنترك تحليل هذه الطريقة للامام الفخر رضى الله عنه اذ يقول :

---

(1) سورة المؤمنون : 115 ـ 116 . (2) سورة التغابن 7 ـ 8 .

(3) لقد زاوج التنزيل فى إثبات البعث بين الأدلة النقلية والعقلية ، وقد سوغ الفخر الاستدلال النقلى هنا تطبيقا لقاعدة (أن كل ما لا يتوقف صحة نبوة الرسول ﷺ أمكن إثباته بالدليل النقلى) (انظر : مفاتيح الغيب 1 / 225) وقد سبق الاكتفاء بالدليل النقلى فى قوله تعالى (... قل بلى وربى لتبعثن ..) الخ .

، وقد قرر الله هذه الطريقة على وجوه : فأجمعها ما جاء في سورة الواقعة ، فانه تعالى : ذكر فيه حكاية عن أصحاب الشمال أنهم كانوا يقولون ، (**أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون**)[1] ؟

فأجابهم الله تعالى بقوله (**قل ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم**)[2] ثم انه تعالى احتج على امكانه بأمور أربعة :
(أولها) قوله (**أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون**)[3] .

وجه الاستدلال بذلك :

أن المنى انما يحصل من فضلة الهضم الرابع ، وهو كالطل المنبث فى آفاق أطراف الأعضاء ، ولهذا تشترك الاعضاء فى الالتذاذ بالوقاع بحصول الانحلال عنها كلها ، ثم ان الله تعالى سلط قوة الشهوة على البقية حتى أنها تجمع تلك الأجزاء الطلية .

فالحاصل أن تلك الأجزاء كانت متفرقة جدا أولا فى أطراف العالم .

ثم انه تعالى جمعها فى بدن ذلك الحيوان ، ثم انها كانت متفرقة فى أطراف بدن ذلك الحيوان ، فجمعها الله سبحانه وتعالى فى أوعية المنى ، ثم انه تعالى أخرجها ماء دافقا الى قرار الرحم ، فاذا كانت هذه الاجزاء متفرقة فجمعها وكون منها ذلك الشخص ، فإذا افترقت بالموت مرة أخرى : فكيف يمتنع عليه جمعها مرة أخرى ؟؟

فهذا تقرير هذه الحجة ، وان الله تعالى ذكرها فى مواضع من كتابه منها فى سورة (**الحج**) : (**يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب** ..) **الى قوله** (**وترى الأرض هامدة**) **ثم قال** (**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور**)[4] .

وقال فى سورة المؤمنون (**قد أفلح المؤمنون**) ـ بعد ذكر مراتب الخلقة ـ (.. **ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون**)[5] .

وقال فى سورة (القيامة) (**ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى**)[6] .

وقال فى سورة (الطارق) : (**فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج** ..) **الى قوله** (**إنه على رجعه لقادر**[7] .

---

(١) سورة الواقعة : ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) سورة الواقعة ٥٠ .
(٣) سورة الواقعة : ٥٨ ـ ٥٩ .
(٤) الآيات : ٥ ـ ٧ .
(٥) الآيات : ١٥ ـ ١٦ .
(٦) الآيتان ٣٧ ـ ٣٨ .
(٧) الآيات : ٥ ـ ٨ .

(وثانيها) قوله (**أفرأيتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعونه ..) الى قوله (بل نحن محرومون**)[1] .

وجه الاستدلال به :

أن الحب وأقسامه - من مطول مشقوق وغير مشقوق كالارز والشعير ، ومدور ومثلث ، ومربع وغير ذلك على اختلاف أشكاله - اذا وقع فى الارض الندية واستولى عليه الماء والتراب ، فالنظر العقلى يقضى : أن يتعفن ويفسد لأن أحدهما يكفى فى حصول العفونة فيهما جميعا أولى ثم انه لا يفسد بل يبقى محفوظا ، ثم اذا ازدادت الرطوبة تنفلق الحبة فلقتين فيخرج منها ورقتان .

وأما المطول : فيظهر فى رأسه ثقب ، وتظهر الورقة الطويلة كما فى الزرع .

وأما النوى : فما فيه من الصلابة العظيمة التى بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس : اذا وقع فى الارض الندية ينفلق باذن الله . ونواة التمر : تنفلق من نقرة على ظهرها ويصير مجموع النواة على نصفين : يخرج من أحد النصفين الجزء الصاعد ، ومن الثانى الجزء الهابط ، أما الصاعد : فيصعد ، وأما الهابط : فيغوص فى أعماق الأرض .

والحاصل : انه يخرج من النواة الصغيرة شجرتان : احداهما : خفيف صاعد والأخرى ثقيل هابط مع اتحاد العنصر واتحاد طبع النواة والماء والهواء والتربة ، أفلا يدل ذلك على قدرة كاملة وحكمة شاملة ؟ فهذا القادر كيف يعجز عن جمع الأجزاء وتركيب الأعضاء ؟

ونظيره : قوله تعالى فى (الحج) : (**وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**)[2] .

(وثالثها) : قوله تعالى (**أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون**)[3] .

وتقديره : أن الماء ثقيل بالطبع ، واصعاد الثقيل أمر على خلاف الطبع ، فلابد من قدرة قاهر يقهر الطبع ، ويبطل الخاصية ، ويصعد ما من شأنه الهبوط والنزول .

وثانيها[4] : أن تلك الذرات المائية اجتمعت بعد تفرقها .

وثالثها : تسييرها بالرياح .

ورابعها : انزالها فى مظان الحاجة والأرض والجرز ، وكل ذلك يدل على جواز الحشر .

---

(١) سورة الواقعة ٦٣ ـ ٦٧ .   (٢) الآية : ٥ .

(٣) سورة الواقعة : ٦٨ : ٦٩ .

(٤) أى وثانى الدلائل المستفادة من آية انزال الماء ، والدليل الأول : مامر من اصعاد الثقيل

أما(١) صعود الثقيل : فلأنه قلب الطبيعة ، فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يظهر الحياة والرطوبة من حساوة التراب والماء .

والثانى : لما قدر على جمع تلك الذرات المائية بعد تفرقها فلم لا يجوز جمع الاجزاء الترابية بعد تفرقها .

والثالث : تسيير الرياح ، فاذا قدر على تحريك الرياح التى تضم بعض تلك الاجزاء المتجانسة الى بعض فلم لا يجوز ههنا ..

والرابع : انه تعالى أنشأ السحاب لحاجة الناس اليه ، فههنا الحاجة الى انشاء المكلفين مرة أخرى ليصلوا الى ما استحقوه من الثواب والعقاب أولى .

واعلم أن الله عبر عن هذه الدلالة فى مواضع أخرى من كتابه ، فقال فى (سورة الأعراف) ـ لما ذكر دلالة التوحيد ـ (**ان ربكم الله الذى ..**) الى قوله (**قريب من المحسنين**)(٢) ثم ذكر دليل الحشر فقال : (**وهو الذى يرسل الرياح ..**) الى قوله (**.. كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون**)(٣) .

ورابعها : قوله (**أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون**)(٤) ؟

وجه الاستدلال :

أن النار صاعدة بالطبع ، والشجرة هابطة ، وأيضا : النار لطيفة والشجرة كثيفة ، وأيضا : النار نورانية والشجرة ظلمانية ، والنار حارة يابسة ، والشجرة باردة رطبة ، فاذا أمسك الله تعالى فى داخل تلك الشجرة تلك الأجزاء النورانية النارية : فقد جمع بقدرته بين هذه الاشياء المتنافرة ، فإذا لم يعجزه ذلك فكيف يعجز عن تركيب الحيوانات وتأليفها ..

والله تعالى ذكر هذه الدلالة فى سورة (يس) فقال (**الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا**)(٦)

واعلم انه تعالى ذكر فى هذه السورة أمر الماء والنار ، وذكر فى سورة النمل : أمر الهواء بقوله (**أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ..**) **الى قوله** (**أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ..**)(٧) .

---

(١) شروع فى تفصيل وجود دلالات الأدلة الأربع على إمكانية البعث .
(٢) الآيات ٥٤ ـ ٥٦ .
(٣) الآية الكريمة : ٥٧ .
(٤) سورة الواقعة : ٧٢ .
(٥) الآية الكريمة : ٨٠ .
(٦) الآيتان الكريمتان : ٦٣ ـ ٦٤

وذكر الأرض في سورة (الحج) في قوله (وترى الارض هامدة ..)[1] **فكأنه** سبحانه وتعالى بين أن العناصر الاربعة - على جميع أحوالها - شاهدة بامكان الحشر والنشر)[2] .

لقد تجلى لنا فى هذا النص - الذى آثرت اثباته برمته متكاملا - جانبا بالغ الثراء من جوانب استدلال التنزيل على امكان البعث ووقوعه ، وتجلى لنا - فى ذات الوقت - مقدرة حكيم المفسرين وفخر المتكلمين الرازى - عليه سحائب الرضوان - على ابراز معطيات القرآن الكريم فى اطار موضوعى متكامل يتيح الرؤية الشاملة والعميقة فى الوقت نفسه للوحدة الموضوعية المجسدة فى التنزيل .

وقد استنبط علماء التنزيل ضروبا من استدلال القرآن الكريم على المعاد والبعث الجسمانى تنتظم فى سلكها أقوى طرق الاحتجاج العقلى والجدل المنطقى ، فمن ذلك :

١ - قياس الاعادة على الابتداء - قياس مساواة - كما فى قوله تعالى (كما بدأكم تعودون)[3] وكما فى قوله سبحانه (**كما بدأنا أول خلق نعيده**)[4] .
٢ - قياس الاعادة على الابتداء - قياسا أولويا - كما فى قوله جل شأنه (**وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**)[5] وأفعل التفضيل (أهون) ليس على بابه ههنا حيث إن قدرة الله تعالى لاتتفاوت ، وانما هو تقريب لأفهامنا نحن .
٣ - قياس الاعادة على خلق السموات والارض - قياسا أولويا - ويتمثل فى قوله تعالى (**أو ليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم**)[6] وانما كان هذا قياسا أولويا : لقوله تعالى (**لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس**)[7] .
٤ - قياس الاعادة على احياء الارض بعد موتها بالمطر والنبات - قياسا تمثيليا - وذلك كما فى قوله تعالى (**فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير**)[8] **وكما فى قوله جل شأنه (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور**)[9] .
٥ - قياس الاعادة على احداث النار من الشجر الاخضر بجامع القدرة على تبديل الاعراض فى كل منهما ، وهو من باب قياس المساواة أو التمثيل . وقد تمثل فى قوله تعالى : (**الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون**)[10] .

---

(١) من الآية الكريمة : ٥ .
(٢) انظر مفاتيح الغيب ١ / ٢٢٥ - ٢٢٦ ط الحسينية .
(٣) سورة الأعراف : ٢٩ .
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٤ .
(٥) سورة الروم : ٢٧ .
(٦) سورة يس : ٨١ .
(٧) سورة غافر : ٥٧ .
(٨) سورة الروم : ٥٠ .
(٩) سورة فاطر : ٩ .
(١٠) سورة يس : ٨٠ .

٦ ـ اقتضاء ما ركز فى فطرة الانسان فى هذه الحياة من اختلاف بين أفراده فى الآراء والمعتقدات حول الحق الذى لا يتبدل لضرورة وجود حياة أخرى يرتفع فيها الخلاف والتضاد ويزول بزوال هذه الجبلة ويصير فيها الحق واضحا بينا لا خلاف فيه ولاجدال .

وقد قرر الحق تعالى ذلك فى قوله (**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين**)[١] .

كما وعد الحق تعالى بالمصير الى تلك الحالة الأخروية التى تنقشع فيها غياهب النزاع والخلاف والتحاسد والتدابر اذ قال سبحانه (**ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين**)[٢] ومن ثم كان الاختلاف الماثل حول الحقيقة أوضح برهان على تحقق البعث ونشأة الحياة الأخرى[٣] .

وهكذا تتنوع دلائل القرآن الكريم على اثبات البعث واليوم الآخر بما لا يدع أثارة من الريب لدى سوى الفطرة وصحيح النظر ، وقد بلغت هذه الدلائل فى التنزيل من السعة والشمول والكثرة حد فائقا لا يرام استقصاؤه فى مثل هذا المصنف .

ثم إننا لنجد فى صفحات التنزيل عرضا واسع الاطار متعدد المشاهد لأحداث اليوم الآخر وما فيه : بدءا من أول منازله فى الحياة البرزخية[٤] الى صيحة القيامة الكبرى الى مواقف الحساب والميزان والصراط الى مستقر السعداء فى الجنة والاشقياء فى النار ، فمن ذلك ما يعرضه القرآن الكريم فى معرض الرد على سؤال المنكرين ، فيقول تقدست أسماؤه (**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون ، ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . ان كانت الا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون . ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ..**)[٥] .

---

(١) سورة النحل : ٣٨ ـ ٣٩ .　　(٢) سورة الحجر : ٤٧ .

(٣) انظر ضروب هذه الاستدلالات فى نوع (جدل القرآن) فى الاتقان ٤ / ٥٢ وانظر أيضا : النهج القويم فى دراسة علوم القرآن الكريم للدكتور عبد الغنى الراجحى : ص/ ١١٠ .

(٤) مما ورد فى القرآن الكريم عن الحياة فى القبر والعذاب فيه . أعاذنا الله تعالى منه . قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) غافر : ٤٦ .

(٥) سورة يس : ٤٨ ـ ٥٧ .

ومن صور أهوال يوم القيامة ما سجله التنزيل فى قوله تعالى (**يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**)(١) .

ومنها قوله سبحانه (**اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت . واذا الوحوش حشرت ، واذا البحار سجرت ، واذا النفوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت ، واذا الصحف نشرت ، واذا السماء كشطت ، واذا الجحيم سعرت ، واذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت**)(٢) .

ومشاهد أخرى يسجل فيها التنزيل خوارق الاحداث الكونية وصور الحشر والعرض وصحف الأعمال (**ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ، ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ألا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا**)(٣) .

ومن احداث يوم الحساب : السؤال والميزان (**فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين . والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون**)(٤) .

ومن مشاهد اليوم الآخر فى التنزيل : الحبس عند الصراط ـ أو فى الموقف ـ للسؤال : قال تعالى (**احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم انهم مسئولون**)(٥) .

ثم بعد الحساب والميزان والصراط يأتى الجزاء فإما النعيم وإما العذاب وإما الجنة وإما النار ونعيم الجنة له فى التنزيل فرائد الآيات الباهرات وروائع الأمثال الناطقة بما تتحير فى تصوره الألباب ، يقول بديع السموات والأرض (**مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ..**)(٦) .

---

(١) سورة الحج : ١ ـ ٢ .
(٢) سورة التكوير : ١ ـ ١٤ .
(٣) سورة الكهف : ٤٧ ـ ٤٩ .
(٤) سورة الأعراف : ٦ ـ ٩ .
(٥) سورة الصافات : ٢٢ ـ ٢٤ .
(٦) سورة محمد : ١٥ .

ويقول جل شأنه (**وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قواريرا من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون . اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا**)[١] .

ثم هنالك ما فوق نعيم الجنة ، وهو النعيم الأعلى الذى لا يقادر قدره ولا تكتنه عظمته ألا وهو رؤية الله تبارك وتعالى والنظر الى وجهه الكريم (**وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة**)[٢]

انها اللذة التى لا تدانيها لذائذ الآخرة جميعا ، اللهم اجعلنا من أهلها المتحفين بها من غير حساب ولا عتاب بجاه من شرف برؤيتك اذ كان قاب قوسين أو أدنى صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين .

وفى مقابلة فريق السعداء المنعمين بالحسنى وزيادة : يصور لنا القرآن الكريم ما أعده الله لأهل الشقاء من العذاب فى النار ودركات الجحيم . أعاذنا الله تعالى من ذلك برحمته وفضله . فيقول تعالى شأنه (**فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق**)[٣] .

ويقول عز شأنه وصف طعام أهل النار (**ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم**)[٤] اللهم سلمنا من غضبك وعذابك ياأرحم الراحمين .

تلك آيات الله الناطقة بالحق والمضيئة بالهدى واليقين تضيء لنا الطريق المستقيم وتمدنا بزاد الايمان بيوم الدين .. **يوم يقوم الناس لرب العالمين ..**

* * *

---

(١) سورة الإنسان : ١٢ ـ ٢٢ .
(٢) سورة القيامة : ٢٢ ـ ٢٣ .
(٣) سورة الحج : ١٩ ـ ٢٢ .
(٤) سورة الدخان : ٤٣ ـ ٤٨ .

المبحث السادس

فى

الركن السادس من أركان الإيمان :

الإيمان بالقدر

وهذا الركن الركين فى بناء العقيدة الاسلامية - فى حقيقة الأمر - جزء لا يتجزأ من الايمان بالله تعالى ، اذ هو تصديق بما لله سبحانه من صفات الوحدانية والعلم والقدرة والارادة ، من ثم لم ينص التنزيل صراحة على وجوب الايمان بالقدر لدخوله - ضمنا - فى نطاق الايمان بالله تعالى ، وانما جاءت السنة الشريفة - المبينة للتنزيل - مصرحة بوجوب الايمان بالقدر كركن أساسى فى الايمان المعتبر شرعا ، اذ جاء فى حديث جبريل الجامع لأمور الدين الثلاثة (.. قال فأخبرنى عن الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ...)[1] .

وأخرج الترمذى بسنده عن سيدنا على كرم الله وجهه (قال : قال رسول الله ﷺ : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله الا الله وأنى محمد رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالموت وبالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر)[2] .

ولقد تعاضدت السنة مع القرآن الكريم فى اثبات القدر لله سبحانه وتعالى وايجاب الايمان به والحكم على الكافرين به بالاجرام والضلال وانذارهم بالعذاب الشديد .

فقد روى الامام مسلم وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون[3] رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت : **(يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . انا كل شىء خلقناه بقدر)**[4] .

والقدر - فى أصل اللغة - مصدر قدرت الشىء أقدره - بفتح الدال وكسرها فى المضارع - قدرا وقدرا - بفتح الدال وسكونها فى المصدر : بمعنى : أحطت بمقداره ، وقد نقل الفخر عن الواحدى - رحمهما الله تعالى - أنه قال : يقال : (قدر الشىء - اذا سبره وحزره وأراد أن يعلم مقداره - يقدره - بالضم - قدرا)[5] .

---

(١) انظر : صحيح مسلم بشرح النووى ١ / ١٥٧ ط المطبعة المصرية .

(٢) انظر : سنن الترمذى (كتاب القدر) ٤ / ٤٥٢ ط الحلبى .

(٣) جاء فى بيان مخاصمتهم هذه : أنهم قالوا : يامحمد ، تزعم أن المعاصى بقدر ، والبحار بقدر ، والسماء بقدر ، وهذه الأمور تجرى بقدر ، فأما المعاصى فلا ، فقال رسول الله ﷺ ، انتم خصماء الله ، فأنزل الله تعالى (ان المجرمين فى ضلال وسعر ..) الخ . انظر أسباب النزول للواحدى بتحقيق السيد صقر ص ٤٢٦ .

(٤) سورة القمر : ٤٧ - ٤٩ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ / ٢٠٥ .

(٥) انظر مفاتيح الغيب ٤ / ٨٨ ، وفتح البارى ١ / ١٢٦ .

كذلك يطلق القدر - في اللغة - على وقت الشيء المقدر له - ومكانه المقدر له ، وقد ورد بالمعنى الأول في قوله تعالى (**فجعلناه في قرار مكين . الى قدر معلوم**)[1] ، كما ورد بالمعنى الثاني في قوله تعالى (**فسالت أودية بقدرها**)[2] أي بقدر المكان المقدر لأن يسعها .

كما أطلق القدر - في التنزيل - مرادا به المقدار ، كما في قوله تعالى (**وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم**)[3] أي : إلا متلبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة[4] .

كذلك يأتي القدر بمعنى التقدير كما في قوله تعالى (**فقدرنا فنعم القادرون**)[5] وبتدبر معاني هذه الاطلاقات اللغوية للقدر - التي ورد بها في التنزيل - نستشعر ارتباطها جميعا بمدلول الأصل اللغوي لهذه المادة وهو : العلم والاحاطة . وهو - في الوقت نفسه - عماد المعنى الشرعي - أو مبناه - الذي أثبته المتكلمون للقدر .

فحيث عرفه الاشاعرة بأنه : ايجاد الله تعالى للاشياء على قدر مخصوص ووجه معين على وفق علمه تعالى وارادته : كان مبناه العلم والارادة ، وان كان من صفات الافعال . وحيث عرفه الماتريدية بأنه : علم الله تعالى أزلا بما تكون عليه المخلوقات فيما لا يزال كان راجعا لصفة العلم وهي من صفات الذات[6] .

وقد نقل العلامة (الأبي) في شرحه على صحيح مسلم تعريف المتكلمين للقدر قائلا : وهو في عرف المتكلمين عبارة عن تعلق علم الله وارادته أزلا بالكائنات قبل وجودها ، فلا حادث الا وقد قدره سبحانه وتعالى ازلا ، أي : سبق علمه به وتعلقت به ارادته[7] .

كذلك أثبت الامام النووي - في شرحه على مسلم - عقيدة أهل الحق ومخالفيهم في القدر فقال (واعلم أن مذهب أهل الحق اثبات القدر . ومعناه : أن الله تبارك وتعالى قدر الاشياء في القدم ، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه وتعالى .

وأنكرت القدرية هذا ، وزعمت : أنه سبحانه وتعالى لم يقدرها ، ولم يتقدم علمه سبحانه وتعالى بها ، وأنها مستأنفة العلم ، أي : انما يعلمها سبحانه بعد وقوعها ، وكذبوا على الله سبحانه وتعالى ، وجل عن أقوالهم الباطلة علوا كبيرا . وسميت هذه الفرقة قدرية لانكارهم القدر .

---

(١) سورة المرسلات : ٢١ - ٢٢ .   (٢) سورة الرعد : ١٧ .
(٣) سورة الحجر : ٢١ .
(٤) انظر : تفسير ابو السعود بهامش (مفاتيح الغيب) ٦ / ٢٦٣
(٥) سورة المرسلات : ٢٣ .
(٦) انظر : تحفة المريد للامام البيجوري ص ١١٣ وشرح الشبراوي على الأربعين النووية ص ١٩ .
(٧) انظر : اكمال اكمال المعلم لأبي عبد الله الأبي ١ / ٥٥ .

قال أصحاب المقالات من المتكلمين : وقد انقرضت القدرية القائلون بهذا القول الشنيع الباطل ، ولم يبق أحد من أهل القبلة عليه ، وصارت القدرية فى الازمان المتأخرة[1] تعتقد اثبات القدر ، ولكن يقولون : الخير من الله والشر من غيره ، تعالى الله عن قولهم[2] .

منهج القرآن الكريم فى اثبات القدر لله تعالى :

بناء على ما تقدم يتضح لنا ـ بجلاء ـ أن من تنكب هدى القرآن الكريم فى عقيدة القدر انما وقع فى الضلال البعيد للقصور فى ايمانه بالله تعالى أصلا ولافتقاد بليغ لمعرفة ما يجب لذاته سبحانه من الصفات التى قررها القرآن الكريم باحكام بالغ .

ولقد أسس القرآن الكريم عقيدة القدر على ثبوت الصفات الإلهية للذات العلية .

وقد قدمنا أن مبنى القدر ـ أساسا ـ انما هو على صفات : الوحدانية ـ ذاتا وصفات وأفعالا ـ والعلم والارادة ثم القدرة .

ولنبدأ بتقرير صفة (**العلم**) لأنه الركيزة الاساسية للرد على القدرية الأولى الذين زعموا أنه لا قدر وأن الأمر (أنف) أى : مستأنف لم يسبق له قدر ولا علم من الله تعالى وانما يعلمه ـ تعالى ـ بعد وقوعه . تعالى الله عن زعمهم علوا كبيرا .

هنا نقول : ان القرآن الكريم قد قرر علم الله تعالى بجميع الأشياء أولا وأبدا نصا صريحا بقوله سبحانه (**وكان الله بكل شىء عليما**)[6] وبقوله جل شأنه (**إن الله كان عليما حكيما**)[7] فعلمه تعالى محيط بكل شىء بحيث لا يغيب شىء عن علمه تعالى كما أفادته الآية الكريمة الأولى . وعلمه تعالى قديم بقدمه سبحانه غير حادث ولا مستأنف كما كذب عليه المفترون . وقد دل التعبير بقوله (**كان عليما**) على قدم العلم له سبحانه كما أجمع عليه المفسرون ، يقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره :

(فإن قيل : لم قال : « كان عليما حكيما » مع أنه الآن كذلك ؟

قلنا : قال الخليل : الخبر عن الله بهذه الالفاظ كالخبر بالحال والاستقبال ، لأنه تعالى منزه عن الدخول تحت الزمان .

---

(١) القدرية المتأخرة هم : فرقة المعتزلة ، وهم القائلون بخلق العبد لأفعاله الاختيارية

(٢) انظر شرح الإمام النووى على صحيح مسلم ١ / ١٥٤

(٦) سورة الأحزاب : ٤٠ .

(٧) سورة النساء : ١١

وقال سيبويه : القوم لما شاهدوا علما وحكمة وفضلا واحسانا تعجبوا فقيل لهم : ان الله كان كذلك ولم يزل موصوفا بهذه الصفات(١) ، ونقل القرطبي عن الزجاج أنه قال في تفسيرها (عليما ، أي الأشياء قبل خلقها ، حكيما ، فيما يقدره ويمضيه منها)(٢) .

ومن ثم فإن اقتران صفة العلم الإلهية بكلمة (كان) : يفيد في التنزيل أزلية العلم الالهي ، وقد أكد ذلك أبو بكر الرازي ـ فيما نقله عنه صاحب الاتقان ـ اذ قال : (كان في القرآن على خمسة أوجه : بمعنى الازل والابد ، كقوله (**وكان الله عليما حكيما** ...)(٣) وبقدم العلم الإلهي وأزليته يندحر زعم القدرية الأولى بأن علم الله تعالى مستأنف .

وقد أكد التنزيل ـ في مواضع عديدة ـ سبق علم الله تعالى بالأشياء لوقوعها ، من ذلك قوله تعالى (**ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث . ويعلم مافي الارحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا . وما تدرى نفس بأى أرض تموت . ان إلله عليم خبير**)(٤) وقوله جل شأنه (**إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون**)(٥) .

وقوله عز من قائل (**يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما**)(٣) .

وتبارك العليم اذ يقول (**علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله**)(٤) ، (**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**)(٥) كل هذه الدلائل المحكمة لا تبقى أثارة من الوهم القدرى المنكر لقدم علم الله تعالى الذى قدرت به المقادير أزلا ، وبهذه الشواهد القرآنية : ترسخ الركيزة الأولى للايمان بالقدر .

ثم نأتي الى الركيزة الثانية ، وهي صفة الارادة باعتبارها الصفة الالهية القديمة التى تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من المتقابلات(٦) : فنجد هذه الصفة القدسية تتعلق بالممكنات(٧) جميعها من خير وشر .

وهنا : مواطن الخلاف الذى خالف فيه القدرية الثانية ـ وهم المعتزلة ـ جمهور أهل السنة والجماعة ، حيث خصصوا الممكنات التى تتعلق بها ارادة الله تعالى : بالخير فقط ، وذهبوا الى أن ارادته تعالى لا تتعلق بالشرور والقبائح ، ونسبوا ذلك الى ارادة العبد .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٣ / ١٦١ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٥ / ٧٥ .

(٣) انظر : الاتقان ٢ / ٢٦٧ .

(٤) سورة لقمان : ٣٤ .

(٥) سورة الحجرات : ١٨ .

(٣) سورة طه : ١١٠ .

(٤) سورة المزمل : ٢٠ .

(٥) سورة التوبة : ٥١ .

(٦) انظر تحفة المريد للامام الباجوري ص ٦٥ .

(٧) تخصيص تعلق الإرادة بالممكن : يخرج به تعلقها بالواجب والمستحيل

ومن هذا المنطلق كانت الواقعة الجدلية الشهيرة بين الامام ابى اسحق الاسفرايينى الاشعرى وبين القاضى عبد الجبار المعتزلى ، حيث يروى أن القاضى عبد الجبار دخل على الصاحب ابن عباد وعنده الاستاذ أبو اسحق الاسفرايينى ، فلما رأى القاضى الاستاذ قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء .

فقال الاستاذ : سبحان من لا يجرى فى ملكه الا ما يشاء .

فقال عبد الجبار : أفيريد ربنا أن يعصى ؟.

فقال الأستاذ : افيعصى ربنا قهرا ؟

فقال عبد الجبار : افرأيت ان منعنى الهدى وقضى على بالردى أحسن الى أم أسا ؟

فقال الاستاذ : ان كان منعك ما هو لك فقد أسا ، وإن منعك ماهو له فيختص برحمته من يشاء .

فانقطع عبد الجبار لحينه[1] .

وحينما نتعرف على صفة الارادة وتعلقها فى آى التنزيل : نجد الحق متبلجا وضاء يشهد لاهل السنة والجماعة ، فمشيئة الله تعالى شاملة لجميع الممكنات واختياره تعالى وارداته يشملان مشيئة العبد واختياره وكسبه .

قال تعالى (**وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون**)[2] .

وقال تعالى (**ان هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين**)[3] .

وارادته تعالى تتعلق بهداية العبد واضلاله كما قال تعالى شأنه (**قل إن الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب**)[4] .

وقال عز من قائل (**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ..**)[5] .

وفى آيات كريمات أخرى نجد الحق تبارك وتعالى قد أناط الهداية والاضلال بسابقة استحقاق للعبد فقال جلت قدرته (**يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم**

---

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكى ٤ / ٢٦١ ـ ٢٦٢ وانظر تحفة المريد ص ٦٦ .

(٢) سورة القصص : ٦٨ . (٣) سورة التكوير : ٢٧ .

(٤) سورة الرعد : ٢٧ . (٥) سورة الأنعام : ١٢٥ .

من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم)[١] .

وقال جل من قائل (**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)**[٢] .

ولقد نرى فى القرآن الكريم صورا جدلية رائعة يحاج فيها المشركين المحتجين بالمشيئة الالهية لاشراكهم ويلزمهم الحجة البالغة اذ يقول جل شأنه (**سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين)**[٣] .

لقد بين الله تعالى ان عقابه للمشركين السابقين انما هو نتيجة تكذيبهم واشراكهم وأن الاعتذار عن الشرك ونحوه بسبق المشيئة الالهية ضرب من الكذب والتخرص على الله تعالى . وقد تجلت محاجة التنزيل لهؤلاء المتخرصين فى مطالبتهم بالدليل العلمى الذى يقيم حجتهم فقال تعالى (**قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا**) ، ولم يكن لهم الا اتباع الظن والخرص .. ثم .. لله الحجة البالغة والمشيئة المطلقة : يهدى من يشاء ويضل من يشاء .

واذا كان هؤلاء القدرية الثانية قد أنكروا تعلق الارادة الالهية بأفعال العباد فرارا من تعلق القديم بالمحدث : فإنهم محجوجون بالعلم كما قال امامنا الشافعى رضى الله عنه (ان سلم القدرى العلم خصم) اذ يقال له : أيجوز أن يقع فى الوجود خلاف ما تضمنه العلم ، فان منع : وافق قول أهل السنة ، وان أجاز لزمه نسبة الجهل . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[٤] .

ثم تأتى الركيزة الثالثة من ركائز الايمان بالقدر : وهى صفة القدرة ، فهى : الصفة الالهية التى يتأتى بها ايجاد كل ممكن واعدامه على وفق الإرادة[٥] .

انها تبرز حتمية تعلق قدرته تعالى بكل ممكن كما نطق بذلك التنزيل صراحة فى مثل قوله تعالى (.. **ولله ملك السموات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على**

---

(١) سورة المائدة : ١٦ .
(٢) سورة ابراهيم : ٢٧ .
(٣) سورة الأنعام ١٤٨ - ١٤٩ .
(٤) انظر : فتح البارى ١ / ١٢٧ .
(٥) انظر تحفة المريد ص ٦٤ .

كل شيء قدير)[1] و (**تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير**)[2] .

وقوله تعالى (**الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا**)[3] وهنا يقول الامام الرازى :

(ان فعل العبد لو وقع بقدرته : لما وقع إلا الشيء الذى أراد تكوينه وايجاده . لكن الانسان[4] لا يريد الا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك .

فان قيل : انما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل ، قلنا : ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى : لزم التسلسل وهو محال ، فلا بد من الانتهاء الى جهل أول وقع فى قلب الانسان لا بسبب جهل سابق بل الانسان أحدثه ابتداء من غير موجب ، وذلك محال : لأن الانسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ، ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه ، بل لا يحاول إلا العلم ، فوجب ألا يحصل له الا ما قصده وأراده ، وحيث لم يكن كذلك .

علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ ، وهو المراد من قوله (وخلق كل شيء فقدره تقديرا)[5] .

ومما يؤكد وقوع الفعل الكسبي للعبد بقدرة الله تعالى قوله سبحانه (**لا يقدرون على شيء مما كسبوا**) .

ثم تأتى الركيزة الرابعة مؤازرة ومتوجة للركائز الثلاث ليقوم صرح الايمان بالقدر على هذه الدعائم الاربع راسخا وشامخا : انها ركيزة (وحدة الافعال) التى توجبها صفة الوحدانية لله تعالى . فالله تعالى خالق للعباد ولجميع أعمالهم . اضطراريها واختياريها كما صرح بذلك التنزيل فى قوله تعالى (**والله خلقكم وما تعلمون**)[6] أى خلقكم وخلق عملكم : ففى هذه الآية الكريمة الرد الحاسم على المعتزلة القائلين بأن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، ومع كون هذه الافعال الاختيارية مخلوقة لله تعالى فإنه من كسب العبد أو اكتسابه كما قال تعالى (**لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت**)[7] .

ومن ثم فإن قول أهل السنة بالكسب انما هو عقيدة القرآن الكريم نصا ، بعيدا عن غلو الجبرية . القائلين بأن العبد مجبور فى كل أفعاله . وعن شطط المعتزلة القائلين بخلق العبد لافعاله الاختيارية (وخير الأمور أوسطها) .

---

(١) سورة المائدة : ١٧ . (٢) سورة الملك : ١ .

(٣) سورة الفرقان : ٢ .

(٤) لعل مراده بالإنسان هنا بعض أفراده أو حاله فى بعض الأحوال ليستقيم المعنى

(٥) انظر مفاتيح الغيب ٦ / ٣١٥ . (٦) سورة الصافات : ٩٦ .

(٧) سورة البقرة : ٢٨٦ .

وقد عرف هذا الكسب بأنه : ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به[١] فهو : ارتباط بين القدرة والفعل المقترنين وفقا للارادة الأزلية ، ومن ثم فهو أمر اعتبارى غير مؤثر ، لانفراد الحق تعالى بعموم التأثير .

وعلى هذا : فإن فعل العبد الاختيارى ـ كما يرى أهل السنة ـ من خلق الله تعالى وهو واقع بقدرته وعلى وفق ارادته ، وهو فى الوقت ذاته : من كسب العبد وإرادته وواقع بمباشرة قدرته الحادثة المخلوقة لله تعالى ، ومشيئة العبد حينئذ : انما هى داخلة فى مشيئة الله تعالى كما قال سبحانه (**وما تشاءون الا أن يشاء الله**)[٢] .

ومن ثم : فإن مناط الحساب والجزاء انما هو كسب العبد نفسه فلا جبر يقدح فى مسئولية التكليف ، ولا اختيار ينفى القدر الالهى .

ولقد تضافرت نصوص التنزيل مؤكدة هذا المعنى ، قال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة)[٣] (**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون**)[٤] ، (**ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**)[٥] ، (**من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد**)[٦] .

وفى نهاية المطاف يأتى الجواب ـ من خلاصة ما تقدم ـ على السؤال الذى أرهق عقول الانسانية على مر العصور : هل الانسان مسير أو مخير ؟

فنقول : ان الانسان من حيث أفعاله الاضطرارية مسير على الاطلاق ، ومن حيث أفعاله الاختيارية : فهو مخير فى دائرة كسبه واكتسابه . ويشهد لذلك ما نأنسه فى أفعالنا الارادية من اختيار وحرية .

ولكن مشيئته ذاتها ـ فى الوقت نفسه ـ داخلة فى نطاق المشيئة الالهية العليا : (**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**) والمشيئة الالهية العليا مرتبطة بعلم الله الازلى بما يقتضيه استعداد العبد الذاتى ، فمن العباد من يقتضى استعداده الطاعة كسبا واختيارا ، ومنهم من يقتضى استعداده المعصية اكتسابا وارادة . فالقدر الالهى مبنى على العلم والحكمة البالغين .

ومن ثم لا يتأتى للعبد أن يعترض على سيده الأعلى بقوله : لم قدرت على العصيان ولم تقدر على الطاعة ؟ فاذا ما جمح فكره الى هذا السؤال : وجد أمامه القانون الربانى

---

(١) انظر تحفة المريد : ١٠٤ .
(٢) سورة الانسان : ٣٠ .
(٣) سورة المدثر : ٣٨ .
(٤) سورة البقرة ٨١ ـ ٨٢ .
(٥) سورة البقرة : ٢٨١ .
(٦) سورة فصلت : ٤٦ .

(لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)[١] ، فحق عليه أن يذعن بالأدب لقضاء سيده فيه ، القائل وقوله الحق : **(انا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر)**[٢] فما على الانسان الا أن يسلم الامر لربه فى خضوع واطمئنان وعبودية خاشعة لقضاء الحكيم الخبير متوكلا على مولاه القائل : **(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون)**[٣] مسلما وجهه وقلبه وكليته الى سيده القائل **(ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور)**[٤] .

فرضية الإمساك عن الخوض فى القدر :

ان هذا لهو هدى القرآن الكريم فى عقيدة القدر : تسليم مطلق لله جل جلاله . ووقوف عند حدود العبودية وآدابها .

ومن ثم : فان من ألزم مقتضيات الايمان بالقضاء . كارادة أزلية لله للاشياء على ماهى عليها فيما لا يزال . ومن أوليات مستلزمات الايمان بالقدر كعقيدة عدم الخوض فى مشكلاتهما أو التقحم لاسوارهما وأسرارهما المغلقة التى لا يسفر البحث فيها الا عن الحيرة والضلال والوقوع فى التهلكة ، ولهذا : كان القدر من أبرز المسائل التى نهينا عن الخوض فيها وأمرنا بالكف عنها ، فقد روى الطبرانى بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال :

(اذا ذكر أصحابى فأمسكوا ، واذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، واذا ذكر القدر فأمسكوا)[٥] .

وقد سئل سيدنا على كرم الله وجهه عن القدر فقال : (طريق مظلم لا سبيل اليه) .[٦] إن الايمان مع التسليم هو سبيل النجاة والفوز ، وإن الايمان بالقدر مقياس حقيقى للإيمان بالله تعالى ، فقد روى الامام أحمد بسنده عن الوليد بن عباده أنه قال (دخلت على عباده وهو مريض أتخايل فيه الموت ، فقلت : ياأبتاه ، أوصنى واجتهد لى . فقال : أجلسونى فلما أجلسوه قال : يابنى انك لم تطعم طعم الايمان ، ولم تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره قلت : ياأبتاه ، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال : تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يابنى : انى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان أول ما خلق الله القلم ثم قال له : أكتب فجرى

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ .
(٢) سورة القمر : ٤٩ ـ ٥٠ .
(٣) سورة القمر : ٤٩ ـ ٥٠ .
(٤) سورة لقمان : ٢٢ .
(٥) انظر الفتح الكبير فى ضم الزيادة الى الجامع الصغير للإمام النبهانى ١ / ١١٠
(٦) انظر شرح النبراوى على الأربعين النووية ص ١٩

في تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة » ، يابني : ان مت ولست على ذلك دخلت النار)[١] .

ولمكانة الايمان بالقدر في العقيدة الاسلامية قال رسول الله ﷺ فيما رواه الديلمي في مسند الفردوس . (الايمان بالقدر نظام التوحيد)[٢] .

انه الايمان الذي يورث الرضا والسكينة والطمأنينة ويذهب الاسى والهم والحزن كما حدث بذلك الصادق المصدوق ﷺ قائلا : (الايمان بالقدر يذهب الهم والحزن .)[٣] .

وصدق الله العظيم اذ يقول (**ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور**)[٤] .

---

(١) انظر المسند للامام أحمد ٣١٧/٥ . (٢) انظر الفتح الكبير ٥١٠/١ .
(٣) أخرجه صاحب الفتح الكبير (٥١٠/١) عن الحاكم في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) سورة الحديد : ٢٢ ـ ٢٣ .

« الفصل الرابع »
شعب الإيمان

ان دراسة شعب الايمان فى رحاب التنزيل والوقوف عليها من آياته البينات حتمية لا مندوح عنها لاستكمال التعرف على جوهر الايمان وأبعاده من زواياها المختلفة ، ولتجسيد التكامل الموضوعي للإيمان فى القرآن الكريم لرؤيته بناء كاملا متسقا واضح المعالم .

ولقد فطن الى رؤية هذه الوحدة الموضوعية - فى رحاب السنة الشريفة الامام البخارى رضى الله عنه فى (كتاب الايمان) من صحيحه ، حيث استدل على زيادة الايمان ونقصانه بحديث (الشعب) ثم أخذ يتتبع ما ورد فى القرآن الكريم والاحاديث الصحيحة من بيانها فأورده في كتاب الايمان تصريحا وتلويحا معنونا لها بما يبرز انشعابها من أصل الايمان كقوله (باب حب الرسول ﷺ من الايمان) و(باب : الحياة من الايمان) وهكذا .

ومن قبل الامام البخارى : كتب سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى عامله عدى ابن عدى قائلا : (إن للايمان فرائض وشرائع وحدودا وسننا ، فمن استكملها استكمل الايمان فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها)[1] .

واذا كان الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - قد بين لنا أركان الايمان كما جاءت فى حديث جبريل عليه السلام فانه عليه الصلاة والسلام قد أوضح لنا فى سنته الغراء أن الايمان ليس أركانا فحسب ، بل أن له شعبا تربو على السبعين شعبة حيث قال ﷺ : (الايمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة أفضلها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان)[2] .

وقد توفر على بيان هذه الشعب - تفصيلا - جماعة من الأئمة منهم أبو عبد الله الحليمى الذى صنف فيها كتابه (المنهاج) والامام الحافظ أبو بكر البيهقى صاحب (شعب الايمان) الذى اختصره أبو جعفر القزوينى - وكثير من العلماء تعددت وتنوعت طرائقهم فى حصر تلك الشعب .

وكان من أبرز الاعلام المصنفين فى الشعب : الحافظ أبو حاتم بن حبان البستى ، الذى قال فى كتابه (وصف الإيمان وشعبه) :

---

(١) انظر فتح البارى بشرح البخارى ٦٢٠٥/١ .
(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ٦/٢ .

(تتبعت معنى هذا الحديث - أى حديث الشعب - مدة ، وعددت الطاعات فاذا هى تزيد على هذا العدد - أى البضع وسبعين - شيئا كثيرا ، فرجعت الى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول الله ﷺ من الايمان فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين ، فرجعت الى كتاب الله سبحانه وتعالى[1] وقرأته بالتدبر ، وعددت كل طاعة عدها الله تعالى من الايمان فاذا هى تنقص عن البضع والسبعين ، فضممت الكتاب الى السنن وأسقطت المعاد ، فاذا كل شىء عده الله تعالى ونبيه ﷺ من الايمان : تسع وسبعون شعبة ، لا تزيد عليها ولا تنقص ، فعلمت أن مراد النبى ﷺ أن هذا العدد فى الكتاب والسنن)[2] .

ومادمنا نتناول بالبحث (الايمان فى القرآن الكريم) فحقيق بنا أن نتبين هذه الشعب فى التنزيل وبيانه النبوى لنستجلى هذه الجوانب الايمانية فى صورتها القرآنية الوضاءة كما استجلاها علماء السنة بالرؤية الحديثية مستعينين فى ذلك بتدبر التنزيل .

ومن ثم : فان واجبنا فى هذا البحث : هو أن نأتى بتفاصيل تلك الشعب مصنفة ومع كل شعبة دليلها فى التنزيل ، فان أعوز النص القرآنى لجأنا الى البيان النبوى الشريف .

ولقد قام الحافظ ابن حجر العسقلانى بإحصاء هذه الشعب وأوردها - فى الفتح - مصنفة تحت أقسام ثلاثة وهى :

١ - أعمال القلب (المعتقدات والنيات) وتشتمل على أربع وعشرين شعبة متضمنة أركان الايمان .
٢ - أعمال اللسان وتشتمل على سبع شعب .
٣ - أعمال البدن وتشتمل على ثمان وثلاثين شعبة ، وهى مندرجة تحت أنواع ثلاثة : وهى :
(أ) ما يتعلق بالاعيان وهى خمس عشرة شعبة .
(ب) ما يتعلق بالاتباع وهى ست شعب .
(جـ) ما يتعلق بالعامة وهى سبع عشرة شعبة .

فجملة الشعب على هذا التصنيف تسع وستون شعبة ويمكن عدها تسعا وسبعين بتفصيل المجمل من بعضها كما ذكر الحافظ ذلك[3] .

وقد عرضت هذا التصنيف على طريقة البيهقى كما أوردها أبو جعفر القزوينى فى (مختصر) شعب الايمان) فوجدت التفاوت يسيرا ، حيث عدها البيهقى سبعا وسبعين شعبة مع التدليل لكل منها ، وسنضيف هنا مازاد منها على حصر صاحب (الفتح)

---

(١) هذه العبارة نص صريح فى استقاء شعب الإيمان من التنزيل وهو الأمر الذى لم يسبق بحثنا هذا - بتوفيق الله - إلى إبرازه على هذا النحو .

(٢) انظر : شرح النووى على مسلم ٢/٤ ، ٥ .

(٣) انظر : فتح البارى ١ / ٥٩ .

وتفصل المجمل لتكمل الشعب تسعا وسبعين شعبة مع ايراد النص القرآنى أو النبوى أو هما معا اذا لزم الامر فأقول وبالله التوفيق .

القسم الأول من شعب الايمان (أعمال القلب) ويشتمل على :

١ ـ الإيمان بالله عز وجل ويدخل فيه : الايمان بذاته تعالى وبصفاته وأسمائه وأفعاله وتفرده بالقدم والتعالى عن المماثلة على نحو ما مر بنا .

٢ ـ الإيمان بملائكة الله تعالى .

٣ ـ الإيمان بالقرآن الكريم وجميع الكتب المنزلة قبله .

٤ ـ الإيمان برسل الله عز وجل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر وما يشتمل عليه من البعث والحشر ودارى الجزاء (الجنة والنار)[1] . وقد أفرد البيهقى هذه المشتملات الثلاثة شعبا مستقلة بذاتها فى تصنيفه .

٦ ـ الايمان بأن القدر خيره وشره من الله عز وجل .

وقد تقدم الحديث عن هذه الشعب بشواهدها القرآنية والحديثة أركانا للايمان فى القرآن الكريم .

٧ ـ الإيمان بوجوب محبة الله تعالى والتحقق بها ، وايثاره تعالى بالحب على كل محبوب[2] لقوله عز من قائل (**قل إن كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين**[3]) وقوله تعالى : (**والذين آمنوا أشد حبا لله**)[4] .

٨ـ الإيمان بوجوب محبة سيدنا رسول الله ﷺ والتحقق بها وإيثاره ﷺ بالمحبة على كل محبوب بعد الله تعالى من النفس والاهل والمال والولد وغير ذلك ، لنفس الدليل السابق وهو قوله تعالى (**قل ان كان آباؤكم**) ... الخ ولحديث سيدنا أنس فى الصحيحين : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ..)[5] .

٩ ـ الإيمان بوجوب تعظيم النبى ﷺ وتبجيله وتوقيره والتحقق بذلك ، لقوله تعالى (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه ..)[6]

---

(١) وقد مر بنا ـ فى الحديث عن ركن الإيمان باليوم الآخر ـ مشتملات أخرى يجب الإيمان بها كالحساب والصراط والميزان .

(٢) أكتفى فى مختصر شعب الايمان للبيهقى بقوله (الايمان بوجوب محبة الله عز وجل) كما اكتفى فى الفتح بقوله (ومحبة الله) وقد رأينا هنا ـ بالدليل القرآنى المذكور ـ ضرورة إضافة ركنى التحقق والايثار إلى أصل المحبة كما صرح النص الكريم .

(٣) سورة التوبة : ٢٤ (٤) سورة البقرة : ١٦٥

(٥) انظر مختصر شعب الايمان للبيهقى تأليف أبى جعفر القزوينى ص ٢٩ ط المنيرية .

(٦) سورة الفتح : ٨ ـ ٩ .

ولقوله تعالى : (**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ..**)[١] فالتعزير هنا : هو التعظيم بلا خلاف .

وأيضا لقوله تعالى (**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ..**)[٢] أى : لا تقولوا : يامحمد ، ياأبا القاسم بل : يارسول الله ، يانبى الله ، ياسيدنا محمد .

وهنا نؤكد من منطلق قرآنى أنه يستحب ذكر اسم النبى ﷺ مقترنا بلفظ السيادة خلافا لمن منع ذلك من سيئى الأدب مع حضرته ﷺ زعما منهم أن لفظ السيد لا يجوز اطلاقه على المخلوق . كيف وقد قال تعالى فى حق سيدنا يحيى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام (**إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ..**)[٣] .

وقد قال الإمام القرطبى فى تفسيرها : (.. ففيه دلالة على جواز تسمية الانسان سيدا ، كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما ، وكذلك روى عن النبى ﷺ أنه قال لبنى قريظة « قوموا إلى سيدكم »[٤] ، وفى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال فى سيدنا الحسن : « ان ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[٥] .

إنه الادب والتوقير والإجلال : ومن أولى به من سيدنا رسول الله ﷺ ؟
ولقد ذكر البيهقى منزلة هذه الشعبة مما قبلها فقال (وهذه منزلة فوق منزلة المحبة ، اذ ليس كل محب معظما ، كمحبة الأب لولده والسيد لعبده : من غير تعظيم بخلاف العكس[٦] .

١٠ - الحب فى الله تعالى والبغض فيه سبحانه ، وقد ذكر ابن حجر هذه الشعبة تالية لشعبة محبة الله تعالى لتفرعها عنها ، بينما نجد فى (مختصر شعب الايمان) للبيهقى آخر شعبة فيه متلاقية فى المعنى مع هذه التسمية التى أوردها ابن حجر فقال (ان يحب الرجل لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه ، ويدخل فيه : اماطة الاذى عن الطريق المشار اليه فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى الصحيحين .
« الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها لا إله إلا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء شعبة من الايمان »[٧] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ . (٢) سورة النور : ٦٣ .
(٣) سورة آل عمران : ٣٩ .
(٤)المراد بسيدهم هنا هو سيدنا سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه والحديث رواه البخارى فى باب (مناقب سعد بن معاذ رضى الله عنه) ٢٠٨/٣ ط محمد عبد اللطيف حجازى .
(٥) انظر تفسير القرطبى : ٧٧/٤ .
(٦) انظر : مختصر الشعب ص ٣٢ . (٧) المرجع السابق ص ٢٥٠ .

ويشهد لهذه الشعبة من التنزيل قوله تعالى (**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**)(١) .

وقوله تعالى (**ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**)(٢) وقوله تعالى (**والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ..**)(٣) .

ومن الحديث الشريف قوله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(٤) .

١١ ـ الايمان بوجوب الخوف من الله تعالى والتحقق به ، لقوله تعالى (**فلا تخافوهم** وخافون ان كنتم مؤمنين)(٥) .

١٢ ـ الإيمان بوجوب الرجاء من الله عز وجل لقوله سبحانه (يرجون رحمته ويخافون عذابه)(٦) وقوله تعالى (**قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم**)(٧) .

١٣ ـ الإيمان بوجوب التوكل على الله تعالى والتحقق به لقوله سبحانه (**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**)(٨) والتوكل الشرعى هو تفويض الأمر الى الله تعالى والثقة به مع ما قدر له من التسبب ، وليس هو التواكل والتقاعس عن مباشرة الواجبات .

١٤ ـ اخلاص العمل لله عز وجل والتبرؤ من النفاق والرياء ليفرد العبد ربه بالقصد فى الطاعة ويصفى فعله عن ملاحظة المخلوقين ، قال تعالى (**فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص**)(٩) وقال سبحانه (**فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون**)(١٠) .

١٥ ـ التوبة والانابة إلى الله عز وجل لقوله تعالى (**وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون**)(١١) وقوله تعالى (**وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون**)(١٢) .

١٦ ـ الصبر على المصائب وعما تنزع النفس اليه من اللذائذ والشهوات والثبات على أحكام الكتاب والسنة فلا جزع ولا سخط . قال تعالى (**واصبروا إن الله مع**

---

(١) سورة التوبة : ٧١ .
(٢) سورة الممتحنة : ١ .
(٣) سورة الحشر : ٩ .
(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦/٢ .
(٥) سورة آل عمران : ١٧٥ .
(٦) سورة الإسراء : ٥٧ .
(٧) سورة الزمر : ٥٣ .
(٨) سورة التغابن : ١٣ .
(٩) سورة الزمر : ٢ ـ ٣ .
(١٠) سورة الماعون : ٤ ـ ٦ .
(١١) سورة النور : ٣١ .
(١٢) سورة الزمر : ٥٤ .

الصابرين)[1] وقال تعالى (**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين)**[2] .

١٧ ـ شكر الله تعالى على نعمه التى لا تحصى كما قال سبحانه (**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها)**[3] وقوله تعالى (**فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون)**[4] .

١٨ ـ الرضا بقضاء الله عز وجل ، وهو من ثمرات مقام المحبة ، لأن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب[5] . قال تعالى فى شأن من أحبهم فأحبوه ورضى عنهم ورضوا عنه :
(**والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم)**[6] .

١٩ ـ الزهد[7] وقصر الامل فى الدنيا . لقوله تعالى (**ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)**[8] ، ولقوله تعالى : (**فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور)**[9] ، ولقوله تعالى (**فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها)**[10] .

٢٠ ـ الحياء من الله تعالى[11] وهو الشعبة التى صرح بها مولانا المصطفى ﷺ فى حديث الشعب بقوله (والحياء شعبة من الايمان) وقد بين النبى ﷺ الحياء الشرعى فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « استحيوا من الله حق الحياء » قلنا : يارسول الله : انا لنستحى والحمد لله ، قال : « ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[12] انها مقاييس الحياء الذى معتمده الخوف من الله تعالى واستشعار

---

(١) سورة الأنفال : ٤٦ .　　(٢) سورة البقرة : ٤٥ .
(٣) سورة النحل : ١٨ .　　(٤) سورة البقرة : ١٥٢ .
(٥) انظر احياء علوم الدين للإمام الغزالى ٣٤٣/٤ ـ ٣٤٧ ط التجارية .
(٦) سورة التوبة : ١٠٦ .
(٧) قسم الإمام أحمد ، الزهد إلى ثلاثة أقسام : الأول : ترك الحرام ـ وهو زهد العوام ، والثانى : ترك الفضول من الحلال ـ وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله ـ وهو زهد العارفين (خواص الخواص) انظر مختصر شعب الإيمان بتعليق محمد منير الدمشقى : ٢٢٠ .
(٨) سورة طه : ١٣١　　(٩) سورة فاطر : ٥ .
(١٠) سورة محمد : ١٨ .
(١١) هذه الشعبة ـ فيما أرى ـ متفرعة عن شعبة الخوف من الله تعالى ، إذ عرف الحياء بأنه : تغير وانكسار يعترى الانسان من خوف ما يعاب به لذا لم ترد فى تصنيف ابن حجر للشعب .
(١٢) أخرجه المنذرى عن الترمذى فى الترغيب والترهيب ٧٦/٥ ط التجارية .

مراقبته ورؤية احسانه ، فهو مجمع لشعب شتى وقد قال تعالى (**وإياى فارهبون**)[1] .

٢١ ـ الوفاء بالعهود وبالعقود ، وفى مقدمة هذه العهود : عهد الله تعالى . . (**وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون**)[2] ، (**وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون**)[3] ، ثم الوفاء بشتى العهود ، لقوله تعالى (**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا**)[4] ، ومن شعب الوفاء : الوفاء بالعقود ، وهو حفظ ما يقتضيه العقد والقيام بواجبه سواء كان بين العبد وربه ـ كالنذر ـ لقوله تعالى (**وليوفوا نذورهم**)[5] أم كان بين العبد والعبد من سائر المخلوقين كالمعاملات التى أجازها الشرع لقوله تعالى (**يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**)[6] .

٢٢ ـ الرحمة : وهى رقة فى القلب تقتضى التفضل والإحسان ، وقد ذكرها صاحب (الفتح) مطلقة بينما ذكرت فى (مختصر الشعب) مقيدة ومعها خصلة أخرى فجاء عنوان هذه الشعبة فيه : (رحم الصغير وتوقير الكبير) ، والذى نرجحه أن توقير الكبير يدخل فى شعبة التواضع التى أوردها ابن حجر[7] :
ولقد تجسدت الرحمة خلقا كريما لسيدنا رسول الله ﷺ ووصفا لذاته الشريفة فى قوله تعالى (**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**)[8] ، كما تجسدت شعبة الرحمة فى صحابة سيدنا رسول الله ﷺ وأبرزها القرآن الكريم فى قوله تعالى (**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**)[9] وقد قال ﷺ (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله تعالى)[10] .

٢٣ ـ التواضع وترك الكبر لأن الله تعالى ندد بالمتكبرين فى مواضع كثيرة فى التنزيل كقوله تعالى (**قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين**)[11] ووصف تعالى أحبابه بلين الجانب والتذلل لاخوانهم فى الايمان فى قوله تعالى (**فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**) وقد قال ﷺ (من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا)[12] .

---

(١) سورة البقرة : ٤٠ . (٢) سورة النحل : ٩١ .
(٣) سورة البقرة : ٤٠ . (٤) سورة الإسراء : ٣٤ .
(٥) سورة الحج : ٢٩ . (٦) سورة المائدة : ١ .
(٧) انظر مختصر شعب الايمان للبيهقى ص ٢٤٥ ، وانظر فتح البارى ١/٥٨ .
(٨) سورة التوبة : ١٢٨ . (٩) سورة الفتح : ٢٩ .
(١٠) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٥/٧٧ ومختصر الشعب / ٣٤٦ .
(١١) سورة الزمر : ٧٢ . (١٢) رواه أبو داود فى سننه ٤/٣٦٢ .

٢٤ ـ ترك العجب ، وهو استعظام النفس وخصالها ـ التى هى من نعم الله تعالى ـ والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم سبحانه والأمن من زوالها[١] قال تعالى (**ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين**)[٢] وقال ﷺ (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه)[٣] .

٢٥ ـ ترك الغضب لقوله تعالى (والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون)[٤] ولما رواه أبو هريرة رضى الله عنه من أن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى قال : (لا تغضب ، فردد مرارا : قال : (لاتغضب)[٥] ، ويدفع الغضب بالحلم الذى هو من حسن الخلق .

٢٦ ـ ترك الحقد الذى هو من مترتبات الغضب[٦] لأنه عبارة عن الانطواء على العداوة والبغضاء وقد قال تعالى (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم)[٧] وقال سبحانه حكاية عن عباده المؤمنين (يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)[٨] قال البيضاوى مفسرا لقوله تعالى (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) : حقدا لهم[٩] . وقد قرن البيهقى شعبة ترك الحقد بترك الحسد بينما جعل ابن حجر كلا منهما شعبة مستقلة .

٢٧ ـ ترك الحسد وهو تمنى زوال نعمة الغير وهو متفرع عن الحقد الذى هو ثمرة للغضب[١٠] وقد علمنا الله تعالى ـ فى كتابه الكريم ـ أن نتعوذ من شر الحاسد فقال جل شأنه : (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد اذا حسد)[١١] ، كما نهانا ﷺ عن الحسد وأسبابه ومترتباته قائلا : (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله اخوانا)[١٢] .

٢٨ ـ السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة ، وهذه الشعبة التى انفرد بها مختصر شعب البيهقى عن صاحب (الفتح) انما هى فرع عن شعبتى الخوف والرجاء ، اذ

---

(١) انظر الأربعين فى أصول الدين للإمام الغزالى ص ١٥٦ .
(٢) سورة التوبة : ٢٥ .
(٣) رواه الطبرانى وغيره ، وتخريجه فى : إتحاف السادة المتقين للزبيدى ٤٠٧/٨
(٤) سورة الشورى : ٣٧ .
(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب من صحيحه ٤٦/٤
(٦) قال الإمام الغزالى : (أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفى فى الحال : رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا) انظر الاحياء بشرحه : اتحاف السادة المتقين ٣٧/٨ .
(٧) سورة النور : ٢٢ . (٨) سورة الحشر : ١٠ .
(٩) أنظر تفسير البيضاوى ٢٦٩/٢
(١٠) انظر الاحياء بشرحه اتحاف السادة المتقين ٥٠/٨ .
(١١) سورة الفلق (١٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١١٦/١٦ .

الحسنة تورث الرجاء والسيئة تولد الخوف فى قلب المؤمن ومن ثم قال ﷺ (ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)[١] .

٢٩ ـ شح المرء بدينه حتى يكون القذف فى النار أحب اليه من الكفر وقد ساق القرآن الكريم لنا الدليل العملى على تحقق هذه الشعبة فيمن وقر الإيمان فى قلبه وذلك فى قصة أصحاب الأخدود من سورة البروج اذ قال سبحانه (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)[٢] .
هذه هى شعب الايمان المتفرعة عن أعمال القلب[٣] .

القسم الثانى من شعب الايمان (أعمال اللسان)[٤] : وتشمل :

٣٠ ـ النطق بالشهادتين ، وهو داخل فى نطاق المأمورية فى قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا)[٥] حيث الخطاب فيه للمؤمنين[٦] ، للامر بالتلفظ بما آمنوا به .

٣١ ـ تلاوة القرآن الكريم : لقوله تعالى (فاقرءوا ما تيسر من القرآن)[٧] ونحوه ، وقد عنون لهذه الشعبة فى مختصر البيهقى بما هو أعم من التلاوة ، فجاءت تحت عنوان :
(تعظيم القرآن بتعلمه وتعليمه وحفظ حدوده ، وأحكامه وعلم حلاله وحرامه وتبجيل أهله وحفاظه)[٨] وهو لعمرى نعم الصواب .

٣٢ ـ طلب العلم الشرعى وهو معرفة الله وما جاء من عنده من وحى وكتاب ومعرفة النبوة ومعرفة أحكام الله تعالى ومصادرها من الكتاب والسنة والاجماع والقياس فان تعلم ذلك ـ بالقدر المستطاع ـ شعبة ايمانية عظمى لأنه الموصل الى خشية الله تعالى وتعظيمه وحسن عبادته لقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[٩] وقوله جل شأنه (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى المسند (١٨/١) عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
(٢) سورة البروج : ٤ ـ ٨ .
(٣) أورد ابن حجر فى تصنيفه للشعب أربعا وعشرين شعبة مندرجة تحت أعمال القلب وقد أفردت منها تعظيم النبى ﷺ بشعبة وجعلت منها شعبتى التواضع وترك الكبر واحدة ، ثم أضفت إليها أربعا ـ تدخل معها تحت أعمال القلب مما ورد فى مختصر شعب الايمان للبيهقى وهى التى تحمل هذه الأرقام (١٩ ـ ٢٠ ـ ٢٨ ـ ٢٩) .
(٤) هذا هو تصنيف ابن حجر فى (الفتح) والذى نراه : أن أعمال هذا القسم ليست لسانية محضة وإن كان للسان دخل فى مباشرتها فإن تعلم العلم وتعليمه إنما هو بالجنان قبل اللسان .
(٥) سورة البقرة : ١٣٦ .
(٦) انظر تفسير البيضاوى ٧٦/١
(٧) سورة المزمل : ٢٠
(٨) انظر مختصر شعب الإيمان ٤٦ .
(٩) سورة فاطر : ٢٨

يتذكر أولوا الألباب)[١] .

٣٣ ـ نشر العلم وتعليمه لقوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه)[٢] ، ولقوله سبحانه (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم)[٣] .

٣٤ ـ ذكر الله تعالى كثيرا لقوله سبحانه (ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا)[٤] ، ومن أرفع مراتب الذكر : الصلاة على النبى ﷺ لقوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)[٥] .

٣٥ ـ الدعاء لقوله تعالى (وقال ربكم ادعونى استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين)[٦] وقوله تعالى (قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم)[٧] .

٣٦ ـ حفظ اللسان عما لا ينبغى من الكذب والفحش والغيبة والنميمة واللغو والوقيعة فى أعراض الناس ، وقد جعل البيهقى تحريم أعراض الناس شعبة مستقلة عن شعبة حفظ اللسان عما لا يحتاج اليه[٨] ، والقرآن الكريم حافل بأدلة ذلك كله كقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[٩] وقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا)[١٠]؟ وقوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة)[١١] وقوله سبحانه (والذين هم عن اللغو معرضون)[١٢] .

القسم الثالث من شعب الايمان : أعمال البدن : وهو أنواع ثلاثة :

(النوع الأول) : ما يتعلق بالأعيان ويشمل ما يلى :

٣٧ ـ التطهير حسا وحكما : ويدخل فى هذه الشعبة : اجتناب النجاسات الحسية كما يدخل فيها تنقية القلب عن النجاسات المعنوية من الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة

---

(١) سورة الزمر : ٩ .
(٢) سورة آل عمران : ١٨٧ .
(٣) سورة التوبة : ١٢٢ .
(٤) سورة الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢ .
(٥) سورة الأحزاب : ٥٦ .
(٦) سورة غافر : ٦٠ .
(٧) سورة الفرقان : ٧٧ .
(٨) انظر مختصر شعب الإيمان للبيهقى ص ١٠٧ ـ ١٦٠ ط المنيرية .
(٩) سورة التوبة : ١١٩ .
(١٠) سورة الحجرات : ١٢ .
(١١) سورة النور : ١٩ .
(١٢) سورة المؤمنون : ٣ .

الباطنة لقوله تعالى (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)[١] قال الامام البيضاوى فى تفسيرها : (« يحبون أن يتطهروا » : من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله ، وقيل : من الجنابة فلا ينامون عليها)[٢] .

٣٨ ـ ستر العورة ، لقوله تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم)[٣] فقد قال القرطبى فى تفسيره (قال كثير من العلماء : هذه الآية دليل على وجوب ستر العورة)[٤] وقد انفرد صاحب (الفتح) بهذه الشعبة فلم ترد فى مختصر شعب الايمان للبيهقى .

٣٩ ـ الصلاة فرضا ونفلا لقوله تعالى (وأقيموا الصلاة)[٥] ولعظم مكانة الصلاة فى الإيمان أطلق لفظ الإيمان فى القرآن الكريم على الصلاة وتلك فى قوله تعالى (وما كان الله ليضيع ايمانكم)[٦] أى صلاتكم الى بيت المقدس .

٤٠ ـ الزكاة فرضا ونفلا لقوله تعالى (وآتوا الزكاة)[٧] وقوله سبحانه (يأيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم)[٨] .

٤١ ـ الصيام فرضا ونفلا لقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام)[٩] وقوله سبحانه : (والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما)[١٠] .

٤٢ ـ الحج : لقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا)[١١] .

٤٣ ـ العمرة : لقوله سبحانه (وأتموا الحج والعمرة لله)[١٢] .

٤٤ ـ الاعتكاف لقوله تعالى (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود)[١٣] .

٤٥ ـ التماس ليلة القدر وقيامها ، وناهيك بسورة القدر دليلا على شرف ليلتها ، ومن ثم نجد فى صحيح البخارى (باب قيام ليلة القدر من الإيمان) وفيه روى الحديث

---

(١) سورة التوبة : ١٠٨
(٢) انظر : تفسير البيضاوى ٣٦٠/١
(٣) سورة الأعراف : ٢٦
(٤) انظر : تفسير القرطبى ١٨٢/٧
(٥) سورة البقرة : ٤٣
(٦) سورة البقرة : ١٤٣ .
(٧) سورة البقرة : ٤٣ .
(٨) سورة البقرة : ٢٥٤ .
(٩) سورة البقرة : ١٨٣ .
(١٠) سورة الأحزاب : ٣٥ .
(١١) سورة آل عمران : ٩٧ .
(١٢) سورة البقرة : ١٩٦ .
(١٣) سورة البقرة : ١٢٥

الشريف « من يقم ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »)(١) .

٤٦ ـ الفرار بالدين من الفتن لقوله تعالى (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا)(٢) .
قال البيضاوى عند تفسيرها : (وفى الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من اقامة دينه)(٣) وقد انفرد ابن حجر بهذه الشعبة عن البيهقى متأثرا بالإمام البخارى فى صحيحه(٤) .

٤٧ ـ الجود والسخاء لقوله تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ...)(٥) ويدخل فى هذه الشعبة : اطعام الطعام كما ذكر صاحب الفتح .

٤٨ ـ اكرام الضيف وهو شعبة جليلة يدخل بعضها فى شعبة الجود وينفرد عظمها فى خدمة الضيف بالنفس التى هى أعز من المال . قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين)(٦) قال القاضى البيضاوى : (أى مكرمين عند الله أو عند ابراهيم إذ خدمهم بنفسه وزوجته)(٧) وقال سيدنا رسول الله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)(٨) .

٤٩ ـ فك الرقاب وعتقها بوجه التقرب الى الله عز وجل لقوله تعالى (فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة)(٩) .

٥٠ ـ أداء الكفارات الواجبات بالجنايات وهى بنص القرآن الكريم والسنة المطهرة أربع كفارات : كفارة القتل وكفارة الظهار وكفارة اليمين وكفار الفطر فى صوم رمضان ويقرب منها ما يجب باسم الفدية ، وأنوع الكفارات : عتق وصدقة وصيام ومن أداتها فى التنزيل قوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين ..)(١٠) .

٥١ ـ التحرى فى الإيمان بمعنى أن يطلب باليمين ماهو أحرى بالقصد ، فلا يجعل الله

---

(١) انظر : فتح البارى بشرح البخارى ٩٩/١ ط الحلبى .
(٢) سورة النساء : ٩٧ .
(٣) انظر أنوار التنزيل ٢٠٣/١ .
(٤) انظر فتح البارى ٥٩/١ ، ٧٥ ط الحلبى .
(٥) سورة آل عمران : ١٣٤ .
(٦) سورة الذاريات : ٢٤ .
(٧) انظر أنوار التنزيل ٣٣٤/٢ .
(٨) انظر صحيح البخارى : كتاب الأدب ٤٨/٤ .
(٩) سورة البلد : ١١ ـ ١٣ .
(١٠) سورة المائدة : ٨٩ .

تعالى عرضة لليمين كما قال تعالى (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)(١) قال البيضاوى عند تفسيرها (ولا تجعلوه معرضا لأيمانكم فتبتذلوه بكثرة الحلف به)(٢) وكما قال تعالى (واحفظوا أيمانكم)(٣) ، أى بأن لا تبتذلوها لكل أمر أو بأن تبروا بها ما استطعتم .

(**النوع الثانى من شعب أعمال البدن**) ما يتعلق بالاتباع ويشمل :

٥٢ ـ التعفف بالنكاح لقوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)(٤) ولقوله ﷺ (يامعشر الشباب : من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء)(٥) ولم ترد هذه الشعبة التى أوردها صاحب (الفتح) ـ على هذا النحو ـ فى مختصر شعب البيهقى وانما ورد فيه وجوب التعفف ـ عاما ـ فى شعبة تحريم الفروج استنادا الى قوله تعالى (ويحفظوا فروجهم)(٦) وقوله سبحانه (ويحفظن فروجهن)(٧) ويندرج فى هذه الشعبة حقوق الزوجية .

٥٣ ـ القيام بحقوق الأولاد ، وقد جعلها البيهقى عامة لحقوق الأولاد والأهلين فجاءت مكملة للشعبة السابقة ، وتعنى هذه الشعبة : قيام الرجل على ولده وأهله بالتربية القرآنية المحمدية وانفاقه عليهم وتعليمه إياهم من أمور دينهم ما يحتاجون إليه لقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)(٨) .

٥٤ ـ بر الوالدين ، لقوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا)(٩) ولقوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا)(١٠) .

٥٥ ـ صلة الرحم لقوله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)(١١) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٤ .
(٢) انظر أنوار التنزيل ١٠٤/١ .
(٣) سورة المائدة : ٨٩ .
(٤) سورة النساء : ٣ .
(٥) أخرجه عن الخمسة : صاحب (التاج الجامع للأصول) ٢٧٨/٢ .
(٦) سورة النور : ٣٠ .
(٧) سورة النور : ٣١ .
(٨) سورة التحريم : ٦ .
(٩) سورة النساء : ٣٦ .
(١٠) سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٢٤ .
(١١) سورة محمد : ٢٢ ـ ٢٣ .

٥٦ ـ الإحسان إلى المماليك ، لقوله تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم)(١) ومن مقتضيات هذا الاحسان : الرفق به .

٥٧ ـ قيام المملوك بحق سيده من لزومه واقامته فيما يراه له ويأمره به وطاعته فيما يطيق لقوله ﷺ (العبد اذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين)(٢) .

(النوع الثالث من شعب أعمال البدن) : ما يتعلق بالعامة ، ويندرج تحته :

٥٨ ـ الحكم بين الناس بالعدل لقوله تعالى (واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)(٣) .

٥٩ ـ طاعة أولى الأمر لقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)(٤) وأولو الأمر هم الحكام وأمراء السرايا والعلماء ، وطاعتهم واجبة فيما لا معصية فيه للخالق جل شأنه .

٦٠ ـ التمسك بما عليه الجماعة لقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)(٥) وقوله سبحانه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء)(٦) .

٦١ ـ الإصلاح بين الناس ويشمل : الإصلاح بين المسلمين فى المعاملات والإصلاح بين الزوجين والاصلاح بين المسلم والكافر والاصلاح بين الفئة الباغية والفئة العادلة . قال تعالى : (**لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس**)(٧) قال الحافظ بن حجر (ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة) قال تعالى (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله)(٨) .

٦٢ ـ التعاون على البر والتقوى ، لقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)(٩) وقد أدخل صاحب (الفتح) فى هذه الشعبة : شعبة أخرى وردت مستقلة فى مختصر الشعب للبيهقى ، ألا وهى : الأمر بالمعروف

---

(١) سورة النساء : ٣٦ .

(٢) انظر صحيح البخارى ٥٦/٢ ط محمد عبد اللطيف .

(٣) سورة النساء : ٥٨ .

(٤) سورة النساء : ٥٩ .

(٥) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٦) سورة الانعام : ١٥٩ .

(٧) سورة النساء : ١١٤ .

(٨) سورة الحجرات : ٩ .

(٩) سورة المائدة : ٢ .

والنهي عن المنكر ، قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)(١) .

٦٣ ـ الجهاد في سبيل الله تعالى لقوله جل شأنه (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون)(٢) ، وقد أمرنا الله تعالى بالغلظة على الكفار وأعداء الله تعالى فقال (ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)(٣) وقد جعل البيهقي مباعدة الكفار والغلظة عليهم شعبة مستقلة(٤) . كما جعل كلا من المرابطة في سبيل الله تعالى والثبات للعدو وترك الفرار من الزحف شعبة بنفسها وهما من متممات الجهاد وأركانه . لقوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ..)(٥) وقوله سبحانه (ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا)(٦) .

٦٤ ـ أداء الأمانات الى أهلها لقوله تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها)(٧) وقد أدخل ابن حجر في هذه الشعبة : أداء الخمس من المغنم بينما ورد في مختصر الشعب للبيهقي شعبة بذاتها(٨) قال تعالى (واعلموا انما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ..)(٩) .

٦٥ ـ حسن المعاملة(١٠) وكسب الحلال . يقول الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما)(١١) ويقول جل شأنه (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا لله إن كنتم اياه تعبدون)(١٢)

وقال ﷺ (رحم الله عبدا سمحا اذا باع سمحا اذا اشترى سمحا اذا اقتضى)(١٣) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .
(٢) سورة المائدة : ٣٥ .
(٣) سورة التوبة : ١٢٣ .
(٤) انظر مختصر الشعب : ١١٦ .
(٥) سورة آل عمران : ٢٠٠ .
(٦) سورة الأنفال : ٤٥ .
(٧) سورة النساء : ٥٨ .
(٨) انظر فتح الباري ١/٥٩ ومختصر الشعب للبيهقي : ٨٧ .
(٩) سور الأنفال : ٤ .
(١٠) يبدو من تصنيف الحافظ بن حجر أن المراد بالمعاملة هنا خصوص المعاملة المالية بدليل أنه الحق بهذه الشعبة (جمع المال من حله) أما حسن الخلق الذي أفرده البيهقي بشعبة مستقلة فقد تقدم مضمونها في شعب : الرحمة والتواضع وترك الغضب وغيرها .
(١١) سورة النساء : ٢٩ .
(١٢) سورة البقرة : ١٧٢ .
(١٣) أخرجه الحافظ المنذري عن البخاري وابن ماجة ـ واللفظ له ـ في الترغيب والترهيب ٤ ـ ٢٩ .

٦٦ - انفاق المال في حقه . وقد جعل ابن حجر من هذه الشعبة : ترك التبذير والاسراف ، وهو ما جعله البيهقي شعبة بذاتها ، قوامها : الاقتصاد فى النفقة وضم اليها تحريم أكل المال بالباطل . قال تعالى (ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما)(١) وقال تعالى شأنه (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)(٢) .

٦٧ - اكرام الجار لقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب ..)(٣) .

٦٨ - كف الأذى عن الناس لقوله تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا)(٤) وقد روى الإمام أحمد عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله تعالى وجهاد في سبيله ، قلت : يارسول الله : فأى الرقاب أفضل ؟ قال : أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنا ، قال : فان لم أجد ؟ قال : تعين صانعا أو تصنع لأخرق ، وقال : فإن لم أستطع ؟ قال : كف أذاك عن الناس فانها صدقة تصدق بها عن نفسك)(٥) ويدخل فى هذه الشعبة ما جعله البيهقى شعبة بنفسه وهو الستر على أصحاب القروف والذنوب وعدم هتك أستارهم ما لم يكن منهم مجاهرة أو اصرار على الذنب(٦) .

٦٩ - اقامة حدود الله تعالى . وقد أطلق شيخ الإسلام ابن حجر هذا العنوان دون أن يبين المراد من الحدود ، وبالبحث وجدنا أشفى بيان لمعنى الحدود فيما أورد الإمام الواحدى(٧) فى تفسيره عن الازهرى قال (حدود الله على ضربين : ضرب منها ماحد للناس فى مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحل وحرم وأمر بالانتهاء إليها ونهى عن تعديها .

والضرب الثاني : عقوبات جعلت لمن تعداها كحد السارق وحد الزاني وحد القاذف ، سميت حدودا لأنها تحد أى تمنع من ارتكاب المعاصى التى جعلت عقوبات فيها ، وسميت الأولى حدوداً لانها غايات أمر الله لا تتعدى).

---

(١) سورة النساء : ٥ .
(٢) سورة الاسراء : ٢٩ .
(٣) سورة النساء : ٣٦ .
(٤) سورة الأحزاب : ٥٨ .
(٥) انظر المسند : ٥ . ١٥٠ .
(٦) انظر مختصر الشعب : ٢٢٤ .
(٧) هو أبو الحسن على بن أحمد الواحدى إمام المفسرين فى القرن الخامس الهجرى (ت ٤٦٨هـ) وقد قدم مؤلف هذا الكتاب بحثه الذى نال به شهادة العالمية (الدكتوراه) عن (الواحدى ومنهجه فى التفسير) وطبعت الرسالة ونشرت بالمجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

ثم عقب أبو الحسن الواحدى على ذلك بقوله (وعلى ما ذكر الازهرى وهو حسن صحيح : الضرب الأول سمى حدودا : لأنها ممنوعة لا تؤتى كالاكل بعد الفجر فى الصوم ، والضرب الثانى مانع . والمصدر يطلق على المفعول والفاعل كثيرا كقولهم نسج اليمن وضرب الأمير . وقوله تعالى (.. إن أصبح ماؤكم غورا)(١) .

ويؤكد ما ذكرنا من المعنى فى الحدود قوله تعالى (.. فلا تقربوها)(٢) أى : لا تأتوها فبين أنها ممنوعة)(٣) .

وبهذا البيان الشافى لمعنى الحدود : تستوعب هذه الشعبة التى أوردها صاحب (الفتح) خمسا من الشعب الواردة فى مختصر شعب الايمان للبيهقى وهى :

(أ) تحريم قتل النفوس والجنايات عليها لقوله تعالى (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ..)(٤) .

(ب) تحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف لقوله تعالى (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا)(٥) .

(جـ) قبض اليد عن الأموال ، ويدخل فيها : تحريم السرقة وقطع الطريق وأكل الرشا وأكل ما لا يستحقه شرعا لقوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل)(٦) .

(د) وجوب التورع فى المطاعم والمشارب والاجتناب عما لا يحل منها ، لقوله تعالى (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب)(٧)

وقوله سبحانه (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)(٨) .

(هـ) تحريم ما حرم من الملابس والزى والأوانى والامتناع عما يكره منها لاحاديث كثيرة منها قوله ﷺ (من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة)(٩) ولما رواه البخارى عن ابن ابى ليلى قال : كان حذيفة بالمدائن فاستسقى وأتاه دهقان بماء فى إناء من فضة فرماه به . وقال : إنى لم أرمه إلا أنى نهيته فلم ينته . قال رسول الله ﷺ (الذهب والفضة والحرير والديباج هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة)(١٠) وبالمفهوم الأشمل : فإن حدود الله هى كل أحكامه المشروعة .

---

(١) سورة الملك : ٣٠ .

(٢) من قوله تعالى (تلك حدود الله فلا تقربوها) سورة البقرة : ١٨٧ .

(٣) أنظر تفسير البسيط للواحدى (مخطوط) ٤٠٩/١ .

(٤) سورة النساء : ٩٣ .

(٥) سورة الإسراء : ٣٢ .

(٦) سورة البقرة : ١٨٨ .

(٧) سورة المائدة : ٣ .

(٨) سورة المائدة : ٩٠ .

(٩) انظر صحيح البخارى ٢١/٤ .

(١٠) نفس المصدر .

٧٠ - اجتناب اللهو وتحريم الملاعب والملاهي المخالفة للشريعة لقوله تعالى (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة)[١] ولمثل قوله ﷺ (من لعب بالنردا[٢] شير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه)[٣] .

٧١ - الغيرة وترك المذاء[٤] ، لقوله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم نارا)[٥] وقوله سبحانه (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن)[٦] .
ولقوله ﷺ (ان الله يغار وان المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم عليه)[٧] ومن ثم فان غيرة المؤمن (الشرعية) من غيرة الله عز وجل .

٧٢ - تقديم القرابين التي يتقرب بها الى الله عز وجل من الانعام ، كالهدى والاضحية والعقيقة لقوله تعالى (فصل لربك وانحر)[٨] ، وقوله تعالى شأنه (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير)[٩] .

٧٣ - القرض الحسن مع الوفاء به ، لقوله تعالى (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة)[١٠] .
ولقوله ﷺ (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ يريد اتلافها أتلفه الله)[١١] .

وقد انفرد الحافظ بن حجر بهذه الشعبة الجليلة .

٧٤ - رد السلام لقوله تعالى (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها)[١٢] .

٧٥ - تشميت العاطس لقوله ﷺ (اذا عطس أحدكم فحمد الله فشمتوه فإن لم يحمد الله فلا تشمتوه)[١٣] .

---

(١) سورة الجمعة : ١١

(٢) النرد شير : اسم أعجمي معرب (وشير) بمعنى حلو ، ويطلق على ما يعرف الآن بالطاولة .

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/١٥ .

(٤) تعرف الغيرة بأنها الحمية والانفة كما في النهاية وعرفها القاضي عياض بأنها تغير القلب وهيجان الغضب أي عند رؤية مالا ينبغي . وأما المذاء - بكسر الميم - فقد عرفه الحليمي بأنه الجمع بين الرجال والنساء وتخليتهم يمادي بعضهم بعضا - أخذا من المذي - وقيل هو أن يتحول الرجل عن قرائنه الذي يضاجع عليه حليلته ليفترشه غيره - والعياذ بالله - (مختصر الشعب : ٢٣٦) .

(٥) سورة التحريم : ٦٠ .

(٦) سورة النور : ٣١ .

(٧) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ٧٨/١٧ .

(٨) سورة الكوثر : ٢ .

(٩) سورة الحج : ٣٦ .

(١٠) سورة البقرة : ٢٤٥ .

(١١) انظر صحيح البخاري ٣٧/٢ .

(١٢) سورة النساء : ٨٦ .

(١٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٢١/١٨ .

٧٦ ـ عيادة المريض لقوله ﷺ من عاد مريضا لم يزل فى خرفة الجنة قيل : يارسول الله : وما خرفة الجنة ؟ قال (جناها)(١) .

٧٧ ـ اتباع الجنائز والصلاة على من مات من أهل القبلة لما رواه البخارى عن البراء ابن عازب قال (أمرنا النبى ﷺ بسبع ونهانا عن سبع : أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض واجابة الداعى ونصرة المظلوم ، وابرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس ، ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب ، والحرير والديباج والقسىّ والاستبرق)(٢) .

٧٨ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الوارد ـ بدليله ـ مع شعبة التعاون على البر والتقوى .

٧٩ ـ إماطة الأذى عن الطريق وهى أدنى شعب الايمان بنص الحديث الشريف الذى أوردناه قرينا لها فى شعبة الحب فى الله تعالى .

تلك هى شعب الإيمان كما وردت فى القرآن الكريم والسنة المطهرة نسأل الله تعالى أن يحققنا بها ويحيينا بها وأن يميتنا عليها على أحسن حال بجاه رسوله الأعظم سيدنا محمد ﷺ .

•••

(١) نفس المصدر ١٢٥/١٦ .

(٢) انظر صحيح البخارى ١٥٠/١ .

(الفصل الخامس)
مقاييس الايمان وصفات المؤمنين

تجلت عناية القرآن الكريم بتقويم الجانب الايماني وقياس مدى تحققه في كيان المؤمن وسلوكه ، فكان من أروع خصائص المنهج القرآني في بناء العقيدة الإيمانية : أنه لم يطرح المبادىء مجردة ، أو التعاليم مطلقة ، وإنما ربطها بالواقع ، وقرنها بالمعايير التطبيقية ووشجها بالمقاييس التقديرية ليتسنى لكل مستبصر معرفة مبلغه من الإيمان ودرجته من اليقين (ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون)[1] ، (يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات)[2] .

وإذا كان محور الايمان هو (شهادة أن لا اله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله) فان مواقف الخلق من كلمة التوحيد شتى ومتفاوتة تفاوتا بعيدا . فمن الناس من يلفظها ، ومنهم من يتلفظ بها ، ومنهم من يتعقلها ومنهم من يؤمن بها ، وثمة من يوقن بها وهناك من يتحقق بها شهودا ومشاهدة . (ان هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم)[3] .

ولا يتأتى لمخلوق أن يتسنم درجة اليقين - التى هى ذروة الإيمان - إلا إذا تحققت فيه شعب الايمان التى عرضنا لها ، وتمثلت فيه تمثلا كاملا ، وعلى قدر حظ العبد من هذه الشعب - كيفا وكما - ينال العبد من درجات الإيمان .

ومن ثم : كانت مقاييس الإيمان ونعوت المؤمنين الصادقين فى القرآن العظيم منارات وسرجا على طريق الايمان ، يرى العبد فى ضوئها ذاتيته الإيمانية ومبلغها من الصدق والتحقق ويسترشد بها لتكميل تلك الذاتية على هدى وبصيرة .

وبالتدبر فى آى التنزيل التى عرضت لمقاييس الإيمان : نستطيع أن نصنف طرائق عرض القرآن الكريم لها الى أنواع ثلاثة :

(النوع الأول) المقاييس الشرطية : وهى التى جعل تحقق الايمان فيها شرطا مقتضيا لتحقيق أمر ما .

(النوع الثانى) المقاييس الحصرية : وهى التى ورد بها قصر المؤمنين على صفات يتجسد فيها جوهر الايمان وتضىء فيها شعبه أو التى حصرت فيها صفة الإيمان ، فيمن تحققوا به فنطق حالهم بحقيقتهم وسلوكهم بيقينهم .

(النوع الثالث) المقاييس الوصفية : وهى التى جاءت بأوصاف ، ونعوت المؤمنين الصادقين فأما المقاييس التى تنتظم فى سلك النوع الأول :

---

(١) سورة الأنعام : ٣٢ .
(٢) سورة المجادلة : ١١ .
(٣) سورة الواقعة : ٩٥ ، ٩٦ .

فقد وردت بها آيات عديدة : من ذلك قوله تعالى (.. فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)(١) .

ولقد تضمنت هذه الآية الكريمة مقاييس أربعة هى :

١ ـ تقوى الله تعالى : وتعنى اجمالا : امتثال المأمورات واجتناب المنهيات طبقا لما جاء به التنزيل وبينه الرسول الكريم ﷺ .
ولتقوى فى القرآن بحث مستقل سيأتى فى هذا المصنف إن شاء الله تعالى .

٢ ـ اصلاح ذات البين . وقد مضى ايراده شعبة من شعب الايمان ، والمراد به اصلاح الحال التى بينكم بالمودة وترك النزاع ، وبالمواساة ، والمساعدة فيما رزقكم الله تعالى .
فإن حسن الصلة بين المسلم وأخيه مظهرا لقوة الإيمان بينهما .

٣ ـ طاعة الله تعالى : فهى معقد الخير والفلاح والمقياس الحقيقى للإيمان به سبحانه .

٤ ـ طاعة الرسول الأعظم ﷺ فهى مقياس لطاعة الله تعالى ، لقوله سبحانه : (من يطع الرسول ، فقد أطاع الله)(٢) .

وقد تكرر الأمر فى نفس السورة ـ الأنفال ـ بطاعة الله والرسول ﷺ . حيث قال تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون)(٣) .

وقد قال البيضاوى فى تفسيرها (أى : ولا تتولوا عن الرسول فإن المراد من الآية : الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه ، وذكر طاعة الله : للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله فى طاعة الرسول لقوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله)(٤) .

ثم تكرر الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ فى ذات السورة مرة أخرى ـ بصورة الأمر بالاستجابة لهما ـ إذ قال عز من قائل : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)(٥) وفى هذه الآية الكريمة تتجلى ثمرة الطاعة فى قوله سبحانه (لما يحييكم) فإن فى طاعة الله ورسوله : الحياة كأسمى وأرفع ما تكون الحياة ، إنها حياة القلب بالعلم الشرعى وحياة الروح بالعيش فى ساحة الإيمان وإنها للحياة الابدية فى كنف الله ورسوله متعنا الله تعالى بها فى الدارين بجاه سيد الكونين صلوات الله وسلامه عليه .

ومن الآيات التى جاءت متضمنة تأكيد هذا المقياس الايمانى الشرطى ـ طاعة الله ورسوله ـ قوله تعالى (يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ان كانوا مؤمنين)(٦) قال البيضاوى (.. « والله ورسوله أحق أن يرضوه » : أحق

---

(١) سورة الأنفال : ١ .
(٢) سورة النساء : ٨٠ .
(٣) الأنفال : ٢٠ .
(٤) أنظر أنوار التنزيل ١/٢٢٥ .
(٥) سورة الأنفال : ٢٤ .
(٦) سورة التوبة : ٦٢ .

بالارضاء بالطاعة والوفاق . وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين)[1] .

ومن الآيات التى جاءت فيها التقوى مقياسا شرطيا للإيمان قوله تعالى (**اذ قال الحواريون ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**)[2] فهذا معاضد لما جاء فى آية الانفال .

ومن ثم يتحصل لنا من فاتحة سورة الانفال أربعة[3] مقاييس شرطية للايمان وقد عقب عليها البيضاوى فى تفسيره بقوله (.. فإن الإيمان يقتضى ذلك . أو : ان كنتم كاملى الإيمان ، فإن كمال الايمان بهذه الثلاثة : طاعة الاوامر والاتقاء عن المعاصى واصلاح ذات البين بالعدل والإحسان)[4] .

كذلك جاء الخوف من الله تعالى وانتفاء الخوف مما سواه مقياسا شرطيا للإيمان فى التنزيل حيث قال سبحانه (**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**)[5] .

لقد علل القاضى البيضاوى لهذا الشرط قائلا : (فإن الإيمان يقتضى إيثار خوف الله تعالى على خوف الناس)[6] .

وأيضا أثبت الحق تعالى أحقيته بأن يخشى منه دون ما سواه ومن سواه إذ قال عز من قائل (أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)[7] .

والخشية : هى الخوف مع التعظيم ولذلك خصت بالعلماء فى قوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء)[8] .

ومن المقاييس الشرطية للايمان فى القرآن الكريم : التوكل على الله تعالى .

قال عز وجل (وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[9] والمعنى : ان كنتم مصدقين بالله تعالى وآياته فخصوه سبحانه باسناد جميع الامور إليه مع الثقة به والاعتماد عليه وذلك لا يتحصل إلا بعد أن تكونوا مخلصين لله تبارك وتعالى مستسلمين بأنفسكم له سبحانه ليس للشيطان فيكم نصيب والا فاتركوا أمر التوكل[10] .

ومن المقاييس الشرطية للايمان فى التنزيل أيضا : انتفاء موالاة الكافرين . حيث قال سبحانه وتعالى : (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

---

(١) انظر : أنوار التنزيل ٣٥١/١ . (٢) سورة المائدة : ١١٢ .
(٣) هى أربعة تفصيلا وثلاثة اجمالا بضم طاعة الرسول ﷺ إلى طاعة الله تعالى .
(٤) انظر أنوار التنزيل ٣٦٩/١ . (٥) سورة آل عمران : ١٧٥ .
(٦) انظر أنوار التنزيل : ١٦٦/١ . (٧) سورة التوبة : ١٣ .
(٨) سورة فاطر : ٢٨ . (٩) سورة يونس : ٨٤ .
(١٠) انظر روح المعانى للإمام الألوسى ١١/ ١٧٠ .

سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ولو كانوا[1] يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون)[2] .

ويعاضد هذا المقياس الشرطى قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير)[3] .

وكذلك نجد من مقاييس الإيمان من هذا النوع فى القرآن الكريم انتفاء الوهن والضعف عن الجهاد وانتفاء الحزن على من يكرمه الله بالشهادة فى سبيل الله تعالى وعلو الشأن على أعداء الله فقد قال سبحانه وتعالى (**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين**)[4] .

قال العلامة البيضاوى عند تفسير الآية الكريمة (.. ، إن كنتم مؤمنين ، متعلق بالنهى أى : لا تهنوا ان صح إيمانكم فانه يقتضى قوة القلب بالوثوق على الله . أو بالأعلون)[5] .

ومن المقاييس الايمانية الشرطية أيضا : انتفاء الله وترك الربا :
قال تعالى (**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين**)[6]
ومضمون هذا القياس الايمانى : أن مصداق الإيمان القلبى امتثال الامر الشرعى والالتزام بما شرع الله سبحانه وتعالى .

وأما المقاييس التى ينتظمها النوع الثانى (وهى المقاييس الحصرية) : فقد وردت بها آيات كثيرة فى التنزيل .

فمن ذلك قوله تعالى (**انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**)[7] .

ولقد جاءت هذه الآيات الكريمات الثلاث تالية للآية الأولى من سورة الأنفال التى تضمنت ـ كما بينا آنفا ـ أربعة مقاييس شرطية للإيمان فكان من روعة اعجاز التنزيل

---

(١) فسر الضمير (اسم كان) بالمنافقين الموالين للمشركين أو اليهود المجاهرين (روح المعانى ٦/٢١٤) .
(٢) سورة المائدة : ٨٠ ، ٨١ .
(٣) سورة آل عمران : ٢٨ .
(٤) سورة آل عمران : ١٣٩ .
(٥) انظر أنوار التنزيل ١ ، ١٥٧ .
(٦) سورة البقرة : ٢٧٨ .
(٧) سورة الأنفال : ٢ ـ ٤ .

فى نظمه وبيانه أن يردفها بهذه الآيات الثلاث[1] التى تضمنت خمسا من المقاييس الحصرية للايمان لتبلغ جملة المقاييس تسعا من نوعين متآخيين فى ثلاث آيات متتاليات جسدت حقيقة الايمان الكامل للعيان .

أما المقاييس الحصرية التى جاءت فى الآيات الثلاث فهى :

١ ـ وجل القلب وخوفه وفزعه عند ذكر الله تعالى استعظاما لشأنه الجليل وتهيبا منه جل وعلا كما قال جل شأنه (**الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ..**)[2] وهذا المقياس : أخص مما ذكرناه فى شعب الايمان عن شعبة الخوف من الله تعالى ، يقول الامام الفخر قدس الله سره :
(وقال أصحاب الحقائق : الخوف على قسمين : خوف العقاب وخوف العظمة والجلال . أما خوف العقاب : فهو للعصاة ، وأما خوف الجلال والعظمة : فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلاً وذلك لأنه تعالى غنى لذاته عن كل الموجودات ، وما سواه من الموجودات فمحتاجون إليه ، والمحتاج إذا حضر عند الملك الغنى يهابه ويخافه وليست تلك الهيبة من العقاب بل مجرد علمه بكونه غنيا عنه وكونه محتاجا إليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف)[3] .

ومن ثم يعلم : أن ثمة من يخافون عذاب الله[4] وهناك من يخافون ذات الله تعالى بما لها من جلال وهيبة وعظمة ، وهؤلاء هم الأعلون الذين يقع الخوف والوجل فى قلوبهم بمجرد ذكره تعالى لذاته رضى الله عنهم وجعلنا منهم ومعهم فى الدارين .

٢ ـ زيادة الإيمان بسماع تلاوة القرآن الكريم ، فإن سماع آيات التنزيل بما تتضمنه من كثرة الدلائل والبراهين يزيل الشك ويقوى اليقين ويضيء القلب بأنوار كلام الله تعالى ويزيد فى الايمان بزيادة القدر المؤمن به ، ويربيه وينميه بالعمل بما كلف به العبد فى كتاب ربه . فإذا ما أحس العبد عند سماع آيات الله تتلى عليه بقوة فى ايمانه وسكينة فى قلبه وحنين إلى ربه دل ذلك على أنه مؤمن حقا .

---

(١) قال الإمام الفخر الرازى فى الربط بين قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله ..) وبين الآية السابقة اعلم أنه تعالى لما قال (وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين) واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزما للطاعة ، شرح ذلك فى هذه الآية مزيد شرح وتفصيل وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات فقال (إنما المؤمنون ..) الآية ، واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول أمور خمسة) انظر مفاتيح الغيب ٤/ ٣٤٨ .

(٢) سورة الزمر : ٢٣ .　　(٣) انظر : مفاتيح الغيب ٣٤٩/٤ .

(٤) من فسر الوجل فى الآية بهذا المعنى للخوف قال بأن المؤمن : هو الرجل الذى يهم بمعصية فيقال له اتق الله فينزع عنها خوفا من عقابه (انظر تفسير البيضاوى ٣٢١/١) .

٣ ـ التوكل على الله تعالى وتفويض الأمور كلها إلى جنابه الأعلى والثقة بالصدق فى وعده ووعيده ، وقد أفاد تقديم المتعلق على عامله فى قوله تعالى (وعلى ربهم يتوكلون) الحصر ومفاده : أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على ربهم ، وهذه الحالة ـ كما يقول الإمام الفخر ـ (مرتبة عالية ودرجة شريفة ، وهى أن الإنسان بحيث يصير ولا يبقى له اعتماد فى أمر من الأمور إلا على الله)[١] .

ولمنزلة التوكل على الله تعالى من الإيمان نجده قد ورد فى التنزيل مقياسا شرطيا تارة ومقياسا حصريا ـ كما هنا ـ تارة أخرى .

ثم إن هذه المقاييس الحصرية الثلاثة التى تضمنتها الآية الثانية من (الأنفال) قد جاءت على نمط بديع فى ترتيبها ، حيث جاءت مرتبة ترتيبا تصاعديا بحيث تسلم كل مرتبة منها الى تاليتها باقتضاء محكم وتسلسل مبهر .
فالمرتبة الأولى : هى الوجل والخوف من الله تعالى .
والمرتبة الثانية : هى الانقياد لمقامات التكاليف لله .
والمرتبة الثالثة : هى الانقطاع بالكلية عما سوى الله والاعتماد بالكلية على فضل الله بل الغنى بالكلية عما سوى الله تعالى[٢] .

٤ ـ اقامة الصلاة : بمعنى أدائها فى أوقاتها مع المواظبة عليها وتعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيغ فى أفعالها .

٥ ـ الانفاق من كل ما رزق الله تعالى من النعم الظاهرة والباطنة . فالانفاق فى الآية الكريمة للزكاة المفروضة وللصدقة المندوبة فى المال وفى غيره . قال الامام البيضاوى (واليه ذهب من قال ومما خصصناهم به من أنوار المعرفة يفيضون)[٣] .
ومن بديع النظم فى القرآن الكريم : أن المقاييس الحصرية الثلاثة الواردة فى ثانية آيات (الأنفال) جاءت بالأعمال القلبية من الخشية والاخلاص والتوكل ثم جاءت الآية الثالثة بمقياسين من قبيل الأعمال القالبية وهى الصلاة والصدقة[٤] .
ثم أن الوجل والايمان والتوكل من حظ القلب . والصلاة من حظ البدن والزكاة من حظ المال .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٣٤٩/٤ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) انظر أنوار التنزيل ١٥/١
(٤) انظر تفسير الألوسى ١٦٧/٩ .

ولقد عقب التنزيل على تلك النعوت المثلى التى جاءت بها المقاييس الحصرية الخمسة بهذا التعقيب الحصرى المحكم (**أولئك هم المؤمنون حقا ..**) أى هؤلاء هم الذين اكتملت فيهم حقيقة الإيمان واستوى فيه ظاهرهم وباطنهم .
ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم على ادراك بصير بهذه المقاييس الايمانية وكانوا يعرضون إيمانهم عليها لمعرفة مدى تحققهم بحق الايمان وحقيقته ، فقد روى القرطبى فى تفسيره أن رجلا سأل الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فقال : يأبا سعيد : أمؤمن أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان : فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب : فأنا به مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى (**انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم . إلى قوله . أولئك هم المؤمنون حقا**) : فوالله ما أدرى أنا منهم أم لا(١) !!(٢) .

ومن المقاييس الإيمانية الحصرية فى التنزيل ما ورد فى قوله تعالى (**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون**)(٣) .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد قوله تعالى . فى سابقتها . (**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ...**) فأرشدت الآية اللاحقة الى حقيقة الإيمان ، ومفادها : إن كنتم تريدون الايمان : فإن المؤمنين الصادقين هم من آمنوا بالله وبرسوله ثم لم يشكوا بل أيقنوا بما آمنوا به وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى طاعة الله تعالى على تكثر فنونها من العبادات البدنية المحضة والمالية الصرفة والمشتملة عليهما معا كالحج والجهاد(٤) ومن ثم تضمنت هذه الآية الكريمة من المقاييس : .

١ . الإيمان بالله تعالى .
٢ . الإيمان برسول الله ﷺ وبما جاء به .
٣ . الإيقان وعدم الارتياب(٥) أو الشك فى الإيمان بدءا واستمرارا .
٤ . الجهاد بالمال وبالنفس فى سبيل الله تعالى ومرضاته لأنهم أيقنوا أن بعد هذه الدار دارا فجاهدوا طالبين العقبى (**أولئك هم الصادقون**) فى إيمانهم وفى صلتهم بالله تعالى .

---

(١) لا شك أن هذا القول من الإمام الحسن إنما هو من قبيل اتهام النفس والوقوف مع آداب العبودية مع الله تعالى وإلا : فهو من علية المؤمنين المتحققين ، وناهيك بسيد التابعين ، .
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبى ١٦٧/٧ .
(٣) سورة الحجرات : ١٥ .
(٤) انظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧٥٧/٧ .
(٥) الارتياب هو الشك مع التهمة .

ثم من المقاييس الإيمانية الحصرية في القرآن الكريم : ما تضمنه قوله تعالى شأنه : (**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**)(١) حيث حصر(٢) الإيمان في تحكيمه ﷺ فيما شجر بينهم وما عطف عليه ، ومن ثم فقد تضمنت هذه الآية الكريمة ثلاثة مقاييس حصرية للإيمان وقد عبر عنها الإمام الفخر بالشرائط إذ قال قدس سره (اعلم أن قوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون » : قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط :

(أولها) : قوله تعالى (**حتى يحكموك فيما شجر بينهم**) وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمنا .

الشرط الثاني : قوله « **ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت** » قال الزجاج : لا تضيق صدورهم من أقضيتك . واعلم أن الراضي بحكم الرسول عليه الصلاة والسلام قد يكون راضيا به في الظاهر دون القلب . فبين في هذه الآية أنه لا بد من حصول الرضا به في القلب ، واعلم أن ميل القلب ونفرته شيء خارج عن وسع البشر ، فليس المراد من الآية ذلك ، بل المراد منه : أن يحصل الجزم واليقين في القلب بأن الذي يحكم به الرسول هو الحق والصدق .

(الشرط الثالث) : قوله تعالى « **ويسلموا تسليما** » : واعلم أن من عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقا وصدقا قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف في ذلك القبول ، فبين تعالى أنه كما لا بد في الإيمان من حصول ذلك اليقين في القلب : فلا بد أيضا من التسليم معه في الظاهر . فقوله « ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت » المراد به : الانقياد في الباطن وقوله : « ويسلموا تسليما » المراد منه : الانقياد في الظاهر والله أعلم)(٣) .

ولقد ورد الانقياد لحكم الله ورسوله ﷺ مقياسا حصريا للإيمان - أيضا في قوله تعالى شأنه (**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**)(٤) .

لقد جاءت هذه الآية الكريمة بهذا المقياس الإيماني عقيب تبيان الحق تعالى لشأن من أعرض عن حكم الله ورسوله فتنكب طريق الإيمان ، وهم الذين قال تعالى فيهم (**ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين**)(٥) .

---

(١) سورة النساء : ٦٥ .

(٢) طريق القصر في الآية الكريمة هو النفي - بلا - والاستثناء - بحتى - التي تأتي مرادفة لإلا في الاستثناء كما صرح ابن هشام في المغني (١/١٢٥ ط / صبيح) .

(٣) انظر مفاتيح الغيب ٣/٢٥٤ .

(٤) سورة النور : ٥١ .

(٥) سورة النور : ٤٧ - ٤٩ .

ثم شخص التنزيل أدواءهم وأمراضهم القلبية الحائلة بينهم وبين تحقيق الإيمان فقال سبحانه من قائل (**أفى قلوبهم مرض ؟ أم ارتابوا ؟ أمن يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون**)(١) .

ومن المقاييس الحصرية للإيمان فى التنزيل ما ذكره الحق تعالى ذكره بقوله : (**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم**)(٢) .

قال الإمام البيضاوى فى تفسيرها (لما قسم المؤمنين ثلاثة أقسام بين أن الكاملين فى الإيمان منهم هم الذين حققوا إيمانهم بتحصيل مقتضاه من : الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق . ووعد لهم الموعد الكريم فقال « لهم مغفرة ورزق كريم » لا تبعة له ولا منة فيه)(٣) .

ومن المقاييس الإيمانية الحصرية فى القرآن الكريم ما ورد فى قوله تعالى (**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**)(٤) .

ففى هذه الآيات الكريمات من مقاييس الإيمان ما يلى :

١ - ان المؤمن هو من يخر ساجدا لله تعالى تعظيما لآياته عند سماعها اجلالا لخالقه وخوفا من سطوته وعذابه « حيث إن السجود مظهر للتعظيم والخشية » .

٢ - وأن المؤمن هو من اذا ذكر بآيات ربه سبح بحمده ساجدا أو مصليا(٥) ونزهه عما لا يليق به تعالى تنزيها مصحوبا بالحمد والشكر على ما وفقه اليه من الإسلام والهدى .

٣ - وأن المؤمن هو المتواضع لعظمة الله تعالى فلا يستكبرون عن الإيمان والطاعة بل هو دائم العبودية والعكوف على خدمة سيده جل شأنه .

---

(١) سورة النور : ٥٠ .
(٢) سورة الأنفال : ٧٤ .
(٣) أنظر أنوار التنزيل ١/٢٣٦ .
(٤) سورة السجدة : ١٥ - ١٧ .
(٥) نقل القرطبى عن الإمام سفيان أنه قال (وسبحوا بحمد ربهم) أى : صلوا حمدا لربهم . انظر تفسير القرطبى ١٤/٩٩ .

٤ ـ والمتحقق بكمال الإيمان هو من يتجافى جنبه عن مضجعه ويتنحى عن فرشه فزعا الى ربه مؤثرا للوقوف لجنابه والحظوة بخطابه على حظ بدنه ونفسه كما كان حال سيدنا رسول الله ﷺ اذ قال فيه سيدنا عبد الله بن رواحة رضى الله عنه :

وفينـا رسول الله يتلـو كتابـه ... اذا انشق معروف من الصبح ساطـع
يبيت يجافى جنبه عن فـراشه ... اذا استثـقلت بالمشركيـن المضاجـع

إنه التهجد وقيام الليل الذى كان دأب سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

٥ ـ وأن المؤمن بآيات ربه حقا هو من يدعو ربه فى كل حال[1] خوفا من عذابه وطمعا فى ثوابه أو خوفا من القطيعة وطمعا فى دوام الوصول .

٦ ـ وأن المؤمن حقا هو من ينفق من كل ما آتاه الله من نعمة ومما رزقه من فضله فليس الانفاق قاصرا على الزكاة المالية فحسب كما ذكرنا من قبل .

والنتيجة : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

لقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى أمر هذا الجزاء (الأمر فى هذا أجل وأعظم من أن يعرف تفسيره)[2] .

اللهم اجعلنا من هؤلاء المؤمنين بك وبآياتك الحسنى واحشرنا معهم الى جوار نبيك الأعظم ﷺ آمين .

ثم ننتقل إلى ثالث أنواع المقاييس الإيمانية فى القرآن الكريم وهو :

(المقياس الوصفى) : الذى جسدته لنا أوصاف ونعوت كمل المؤمنين فى التنزيل الحكيم ويعتمد هذا المقياس ـ أساسا ـ على الصفات المخصصة التى تخصص المؤمنين بمن تحققوا بكمالات الإيمان واستجمعوا شعبه وارتقوا فى معاريج مثالياته التى لا ينهض لها إلا الخاصة الذين اجتباهم ربهم لقربه وحباهم بتمحيص ذواتهم لجنابه الاقدس فتسنموا ذرى الفلاح أولئك الذين قال فيهم جل شأنه (**قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون**)[3] .

---

(١) ذكر القرطبى أن الدعاء هنا يحتمل أن يكون صفة مستأنفة ، أى : تتجافى جنوبهم وهم أيضا فى كل حال يدعون ربهم ليلهم ونهارهم (الجامع لأحكام القرآن ١٠٣/١٤) .

(٢) انظر تفسير القرطبى ١٤/١٤ . (٣) سورة المؤمنين : ١ ـ ١٠ .

لقد تضمنت هذه الآيات الكريمات من المقاييس الإيمانية الوصفية ما يأتي :

١ ـ خشوع القلب في الصلاة . وهذا الخشوع مركب من الخوف والتذلل[١] وهو مستلزم لخشوع الأعضاء في الصلاة ، وللحضور مع الحق تبارك وتعالى وبه يتم مقصود الصلاة وهو الصلة بالله تعالى ومن هيئات هذا الخشوع ملازمة البصر لموضع السجود .

٢ ـ الإعراض عن اللغو ـ وهو ما لا يعني من قول أو فعل[٢] . لأن المؤمن الحقيقي لديه من الجد ما يشغله عن اللغو واللهو كلية ـ والإعراض أبلغ من الترك لافادة البعد عنه رأسا .

فإذا ما أردنا أن نتصور ـ في ضوء هذا المقياس ـ مؤمنا حقيقيا ، فلنتصور انسانا لا يلتفت عن ربه اطلاقا ، اذ أن نفي اللغو بالاعراض مثبت لتمام الاقبال على الله تعالى .

٣ ـ فعل الزكاة ، والزكاة ـ كما يقول الزمخشري ـ اسم مشترك بين عين ومعنى ، فالعين : القدر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير . والمعنى : فعل المزكي الذي هو التزكية وهو الذي أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له[٣] ، وعلى هذا فالمراد من الزكاة هنا ماهو أعم من الحق الواجب في المال ، وهو فعل كل محمود مرضي من الطاعات المطهرة للعبد من الأوشاب كقوله تعالى (**قد أفلح من تزكى**)[٤] ، أي تطهر من الكفر والمعصية أو تكثر من التقوى[٥] .

٤ ـ حفظ الرجل فرجه إلا من زوجته أو أمته ، وقد مر بنا أن هذا شعبة من شعب الإيمان .

٥ ـ رعاية الأمانة والعهد ، وهذا مقياس جامع لكل حقوق الحق تعالى وكذلك الخلق . قال القرطبي (والأمانة والعهد : يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك ، وغاية ذلك : حفظه والقيام به ، والأمانة أعم من العهد ، وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد)[٦] .

---

(١) انظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٣١٩/٦ .
(٢) هذا هو معنى اللغو كما ذكره البيضاوي في تفسيره (٨١/٢) وقد نقل القرطبي في تفسيره (١٠٥/١٢) عن الإمام الحسن أنه فسر اللغو بالمعاصي كلها . وعليه يكون مفاد هذا المقياس الإيماني : الإعراض عن المعاصي بالكلية وهو مفاد جليل .
(٣) أنظر الكشاف ٢٦/٣ .
(٤) سورة الأعلى : ١٤ .
(٥) انظر تفسير البيضاوي ٤٣٥/٢ .
(٦) أنظر الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٠٧/١٢ .

٦ ـ المحافظة على الصلاة بتأديتها فى أوقاتها بشروطها وإتمام أركانها مع المداومة عليها ، ولعظم أمر الصلاة وسمو منزلتها فى الإيمان : صدرت بها نعوت المؤمنين كما ختمت بها ، وكان البدء بالخشوع لأنه روح الصلاة ، والختم بالمواظبة لاستيفاء الفضل مع الزيادة . والجزاء (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)

ومن المقاييس الإيمانية الوصفية فى القرآن الكريم أيضا : ما ورد في قوله تعالى : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين)(١) .

قال الإمام الفخر عند تفسير هذه الآية الكريمة : (اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : بين فى هذه الآية أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسع وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : فى رفع قوله (التائبون ـ العابدون ـ الحامدون) وجوه : الأول : أنه رفع على المدح والتقدير : هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين فى قوله (اشترى من المؤمنين أنفسهم) هم التائبون)(٢) .

هذا وقد قرأ أبى وعبد الله ـ وهى فى مصحفه ـ (التائبين العابدين) بالجر ، فيكون صفة للمؤمنين(٣) . ومن ثم يتضح أن الصفات التسع إنما هى صفات مخصصة للمؤمنين وبالتالى فانها مقاييس وصفية للإيمان . وهذه المقاييس هى :

١ ـ التوبة من كل شرك ونفاق ومعصية وهذه التوبة لا تتحقق إلا بأمور أربعة : أولها : ما قد عبر الفخر عنه بقوله (احتراق القلب في الحال على صدور تلك المعصية عنه . وثانيها : الندم على ما مضى . وثالثها : عزمه على الترك فى المستقبل . ورابعها : أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة : طلب رضوان الله تعالى وعبوديته(٤) .

٢ ـ دوام العبادة لله عز وجل ، وأحسن ما عرفت به العبادة ما أوردناه فى كتابنا (ضياء الفرقان) من أنها : غاية الخضوع والتذلل لمن يعتقد الخاضع له أوصاف الربوبية(٥) وقد فسر قتادة (العابدون) بقوله : « هم قوم أخذوا من أبدانهم فى ليلهم ونهارهم » .

---

(١) سورة التوبة : ١١٢ .
(٢) انظر مفاتيح الغيب ٤/٥٠٧ ـ ٥٠٨ .
(٣) انظر مفاتيح الغيب وتفسير القرطبى ٨/٢٧١
(٤) نفس المصدر .
(٥) والتعريف ثابت فى زاد المسلم للحافظ الشنقيطى ٢/٣١ والنسخة من ضياء الفرقان / ٥٢ .

٣ ـ القيام بحق حمد الله تعالى وشكره على نعمه دينا ودنيا وجعل ذلك عادة ملازمة .

٤ ـ السياحة : وقد فسرها الامام الفخر قدس الله سره ـ بوجوه ثلاثة : أولها : الصيام . استنادا إلى قول الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : كل ما ذكر فى القرآن من السياحة فهو الصيام وثانيها : الانتقال من بلد الى بلد لطلب العلم وهو قول عكرمة . وثالثها : الضرب فى الأرض للجهاد فى سبيل الله تعالى وهو قول أبى مسلم(١) .

٥ ، ٦ ـ الركوع والسجود فى الصلاة فرضا ونفلا وقد خصهما بالذكر من بين أركانها لدلالتهما على غاية الخضوع والعبودية التى هى المقصود من الصلاة .

٧ ، ٨ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمراد بالمعروف : الإيمان وقيل السنة ، وبالمنكر الكفر وقيل البدعة ، وقيل هو عموم فى كل معروف ومنكر(٢) .

٩ ـ حفظ حدود الله تعالى وهو مقياس جامع ـ ولذا ختم به ـ ويشمل القيام بطاعة الله تعالى فى كل ما بينه وعينه من الحقائق والشرائع ويدخل فيه ضمنا . حفظ فرائض الله تعالى بأدائها على أكمل وجه . كما يتضمن : القيام على أمر الله تعالى ورعاية حقوقه جل شأنه(٣) .

ثم فى خاتمة هذه المقاييس الإيمانية الوصفية : (وبشر المؤمنين) وفيها يقول البيضاوى : يعنى به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل ووضع المؤمنين موضع ضميرهم . للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم الى ذلك ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك وحذف المبشر به : للتعظيم كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن احاطة الإفهام وتعبير الكلام)(٤) .

ثم فى خاتمة تناولنا للمقاييس الإيمانية فى التنزيل نستشرف إلى رياض السنة المحمدية المطهرة على صاحبها أزكى التحية وأفضل الصلاة وأتم السلام .

من مقاييس الإيمان فى السنة النبوية الشريفة :

روى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عن النبى ﷺ قال (لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)(٥) .

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ٥٠٨/٤ ـ ٨٠٩ . (٢) انظر تفسير القرطبى ٢٧٠/٨ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١٥٧/٤ وتفسير البيضاوى ٣٦١/١ .
(٤) نفس المصدر . (٥) انظر المسند ٤٤١/٩ ـ ٤٤٢ .

ومن المقاييس الإيمانية أيضا : ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الجموح رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول مامعناه (لا يحق للعبد حق صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى ويبغض لله ، فإذا أحب لله تبارك وتعالى وأبغض لله تبارك وتعالى فقد استحق الولاء من الله وإن أوليائى من عبادى وأحبائى من خلقى الذين يذكرون بذكرى وأذكر بذكرهم[1] إنه مقياس الولاية لله عز وجل التى هى تتويج تحقق الإيمان .

وقد بين الحديث الشريف أن من أقرب الطرق اليها الحب فى الله تعالى والبغض فيه وهما من شعب الإيمان كما تقدم لنا .

ثم نقف على مقياس آخر من أروع المقاييس الإيمانية فى السنة المطهرة :

وذلك فى الحديث الذى رواه البزار ـ فى مسنده ـ والبيهقى ـ فى الشعب ـ عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه : أن النبى ﷺ لقى رجلا يقال له حارثة[2] فى بعض سكك المدينة فقال ، كيف أصبحت ياحارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : ان لكل قول[3] حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر الى عرش ربى . وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار . فقال ، مؤمن نور الله قلبه ، وفى رواية ، عرفت فالزم مؤمن نور الله قلبه . وفى رواية الطبرانى ، من سره أن ينظر إلى من نور الله قلبه فلينظر إلى الحارث بن مالك ،)[4] .

ومن هذا الحديث الشريف نستنبط هذه المقاييس الإيمانية التى تجسد حقيقة حق الإيمان :

١ ـ عزوف النفس عن الدنيا ومتاعها والزهد فيها بالكلية .
٢ ـ اسهار الليل بالقيام للسيد الأعلى جل شأنه .
٣ ـ إظماء النهار بالصيام للواحد الصمد حتى تتفجر ينابيع الحكمة فى قلب المؤمن .
٤ ـ المشاهدة للملكوت وكشف الأستار ليرى العارف من العرش إلى الفرش بنور الله تعالى . وينظر إلى أهل الجنة وأهل النار بعد أن تصفى روحه من كدر الاغيار .. ولا يعجب الإنسان العادى من اثبات هذه المراتب العلية فإنها ليست لآحاد الناس بل أنها قاصرة على من عرفه النبى ﷺ (مؤمن نور الله قلبه) وعلى من وصل إلى درجة المعرفة فقيل له (عرفت فالزم) اللهم اجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر المسند ٣/٤٣٠ .

(٢) ورد فيما أخرجه الطبرانى أنه : الحارث بن مالك الأنصارى رضى الله عنه (انظر : اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين ٩/٣٢٧) .

(٣) فى بعض الروايات (لكل حق حقيقة) انظر اللمع للطوسى ٣٠ ، ١٤٣ ، ١٨٠ .

(٤) انظر تخريج الحديث فى المراجع الآنفة وفى كتاب (الإعلام بإن التصوف من شريعة الإسلام) .

(الفصل السادس)

ثمرة الإيمان فى الدنيا وفى الآخرة

كشف لنا التنزيل عن عظمة النتاج الذى يحققه الإيمان الصادق للمؤمن فى دنياه وفى أخراه ليعرف العبد عاقبة أمره وثمار صلته بالله تعالى فيزداد المؤمنون ايمانا مع إيمانهم ولتجتذب الفطر التواقة للنور إلى رحاب الإيمان والأمان .

فإبراز هذه الثمار الإيمانية ركيزة أساسية فى منهج القرآن الكريم فى الدعوة إلى الإيمان وذلك بطريق الترغيب القائم على تجسيد النتائج الإيمانية التى يسفر عنها نور الإيمان .

وقد لاح لنا فى تعرفنا على هذه النتائج والثمار فى التنزيل : أنها تبلغ من الكثرة والشمول والتشعب حدا بعيدا يستوجب استقصاؤه تصنيفا مستقلا ، ومن ثم جنح بنا البحث إلى الرؤية الشمولية نتعرف بها أبرز هذه النتائج ونستعرضها فى إطار منهجى وقد ارتأينا - بتوفيق الله تعالى - تصنيف هذه الثمار الإيمانية إلى :

(أ) ثمار تتحقق للمؤمن فى الدنيا .
(ب) ثمار تتحقق للمؤمن فى الدنيا والآخرة .
(جـ) ثمار يجتنيها المؤمن فى الدار الآخرة فحسب حيث لا تتحقق فى دار التكليف .

فأما الثمار التى يحققها الإيمان للعبد فى الدنيا : فإن من أبرزها - مما سجله التنزيل الحكيم - ما يأتى :

١ - الإخراج من الظلمات إلى النور : قال تعالى (**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**)(١) وهذه الظلمات هى : ظلمات الكفر والجهل واتباع الهوى وقبول الوساوس والشبه المؤدية الى الكفر ، وهذا الإخراج إلى نور الإيمان انما هو بهداية الله تعالى وتوفيقه(٢) . كما قال تعالى شأنه (**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**)(٣) .

٢ - هداية القلب إلى سلوك الصراط المستقيم المؤدى إلى الجنة وإلى إدراك الحقائق كما قال تعالى (**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من**

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .
(٢) انظر أنوار التنزيل ١١٨/١ .
(٣) سورة الزمر : ٢٢ .

تحتهم الأنهار فى جنات النعيم)[1] ، وكما قال سبحانه **(وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم)**[2] **والهداية هى : الدلالة الموصلة الى البغية وهى مشروطة بحصول الإيمان كما قال عز من قائل (ومن يؤمن بالله يهد قلبه)**[3] .

٣ ـ الأمن من العذاب والاهتداء إلى الحق والصواب لقوله تعالى **(الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)**[4] .

٤ ـ الاستخلاف فى الأرض للمؤمنين .

٥ ـ تمكين الدين المرتضى لهم .

٦ ـ تبديلهم من بعد خوفهم من عدوهم أمنا ونصرا ، وهذه الثمار الثلاث محققة بالوعد الإلهى فى قوله تعالى **(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما أستخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ..)**[5] قال الإمام الفخر فى تفسيرها :
(أعلم أن تقدير النظم : بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ أى الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ـ أن يستخلفهم فى الأرض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليهم من قبلهم فى زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما ، وأنه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك : هو أن يؤيدهم بالنصرة والإعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدوننى آمنين لا يشركون بى شيئا ولا يخافون)[6] .

٧ ـ دفاع الله تعالى عن المؤمنين كما قال سبحانه **(إن الله يدافع عن الذين آمنوا ..)**[7] أى : يبالغ فى دفع غوائل الكفرة والمشركين واضرارهم التى من جملتها : الصد عن سبيل الله تعالى مبالغة من يغالب فيه أو يدفعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد إلى الإضرار بالمسلمين كما فى قوله تعالى **(كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ..**[8] **)**[9] .

---

(١) سورة يونس : ٩ .
(٢) سورة الحج : ٥٤ .
(٣) سورة التغابن : ١١ .
(٤) سورة الأنعام : ٨٢ .
(٥) سورة النور : ٥٥ .
(٦) انظر مفاتيح الغيب ٦/٣٠٠ .
(٧) سورة الحج : ٣٨ .
(٨) سورة المائدة : ٦٤ .
(٩) انظر تفسير أبى السعود بهامش مفاتيح الغيب ٧/١٢٩ .

٨ ـ انزال السكينة على المؤمنين كما قال تعالى (**ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين**)(١) والمراد بالسكينة هنا : الرحمة التى تسكن بها القلوب وتطمئن اطمئنانا كليا مستتبعا للنصر القريب وقيل : هى الأمان لحضرته ﷺ ولمن معه من المؤمنين(٢) .

٩ ـ زيادة الإيمان للمؤمنين وذلك بأمور مترتبة على إيمانهم منها : إنزال السكينة فى قلوبهم كما قال عز من قائل (**هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم**)(٣) وفى المراد بالسكينة ههنا وجوه : منها : الطمأنينة والثبات ، المسببان عن الصلح والأمن . ومنها : الرحمة وقيل : العقل ، لسكونه عن الميل إلى الشهوات وعن الرعب ، وقيل : هى الوقار والعظمة لله تعالى ولرسوله ﷺ وقيل : هى السكون والميل إلى ماجاء به الرسول ﷺ من الشرائع .
وقيل السكينة : ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمنه كما روى أن سيدنا عليا كرم الله وجهه قال : إن السكينة لتنطق على لسان عمر(٤) .
ومن الأمور المترتبة على الإيمان وتتحقق بها زيادته للمؤمنين : تلاوة القرآن الكريم كما قال تعالى (**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا**)(٥) ، ومنها أيضا نزول الخطب والابتلاء إذ يقول سبحانه (**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما**)(٦) .

١٠ ـ التقوى مع زيادة الهدى . قال تعالى (**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**)(٧) قال الإمام القرطبى فى تفسيرها (.. والذين اهتدوا ، أى : للإيمان زادهم الله هدى وقيل : زادهم النبى ﷺ هدى . وقيل ما يستمعون من القرآن هدى ، أى : يتضاعف يقينهم ، وقال الفراء : زادهم اعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى . وقيل : زادهم نزول الناسخ هدى . وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها : زادهم علما قاله الربيع بن أنس .
الثانى : أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا . قاله الضحاك . .
الثالث : زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقا لنبيهم . قاله الكلبى . .
الرابع : شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان .
« وآتاهم تقواهم » : أى : ألهمهم إياها وقيل : فيه خمسة وجوه :

---

(١) سورة التوبة : ٢٦ .
(٢) انظر : روح المعانى ١٠/٧٥ .
(٣) سورة الفتح : ٤ .
(٤) انظر : تفسير الامام الآلوسى ٢٦/ ٩٣ .
(٥) سورة الأنفال : ٢ .
(٦) سورة الأحزاب : ٢٢ .
(٧) سورة محمد : ١٧ .

أحدها : آتاهم الخشية . قاله الربيع .
الثاني : ثواب تقواهم في الآخرة . قاله السدى . .
الثالث : وفقهم للعمل الذى فرض عليهم . قاله مقاتل . .
الرابع : بين لهم ما يتقون . قاله ابن زياد والسدى أيضا . .
الخامس : انه ترك المنسوخ ، والعمل بالناسخ . قاله عطية الماوردى . .
ويحتمل سادسا : انه ترك الرخص والأخذ بالعزائم(1) .

١١ ـ الانتفاع بما في القرآن الكريم من الهدى والبشرى والرحمة ، والشفاء والذكرى والموعظة ؛ إذ الإيمان هو المصحح لجنى هاتيك الثمار ، كما قال تعالى (**طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين**)(2)
(**وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين**)(3)
(**إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون**)(4)
(**يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين**)(5) .

وننتقل إلى بيان ما يحققه الإيمان للمؤمنين من ثمار فى الدنيا والآخرة معا : وهي الثمار التى ليست بالتكاليف في دار الدنيا فحسب ، وتنقطع بفنائها من حيث هى أمور تكليفية بل إنها الثمار الدائمة الممتدة إلى الخلود فى دار البقاء ولها فى كل من الدارين مظهرها الذى يناسبها مع توفى القاسم المشترك فى كل منهما . ومن أبرز تلك الثمار :

١ ـ ولاية الله تعالى : التى يتولى بها عباده المؤمنين كما قال جل شأنه (**الله ولى الذين آمنوا ..**)(6)
وولاية الله تعالى : هى حفظه وحياطته ومحبته ونصرته وقربه ومودته ، وهى متحققة بمعناها العام للمؤمنين وبمعناها الخاص للمؤمنين المتقين .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/٢٣٩ ـ ٢٤٠ .
(٢) سورة النمل : ١ .
(٣) سورة الاسراء : ٨٢ .
(٤) سورة العنكبوت : ٥١ .
(٥) سورة يونس : ٥٧ .
(٦) سورة البقرة : ٢٥٧ .

٢ ـ ولاية النبى ﷺ وأولويته بالمؤمنين من أنفسهم لقوله تعالى (**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**)[١]

وقوله تعالى (**النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ..**)[٢]

قال البيضاوى فى تفسيرها : (.. « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » : فى الأمور كلها فإنه لا يأمرهم ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم بخلاف النفس فلذلك أطلق ، فيجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم وأمره أنفذ فيهم من أمرها ، وشفقته عليهم أتم من شفقتهم عليها)[٣] .

٣ ـ ولاية الملائكة للمؤمنين حيث قال تعالى (**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم**)[٤] .

٤ ـ ولاية المؤمنين بعضهم لبعض كما قال تعالى (**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض**)[٥] وأخوتهم فى الإيمان كما قال سبحانه (**إنما المؤمنون إخوة**)[٦] .

٥ ـ حب الله تبارك وتعالى كما قال جل شأنه (**ومن الناس من يتخذ أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ..**)[٧]

وحب الله تعالى مستلزم لحب سيدنا رسول الله ﷺ ولحب من أحب الله من المؤمنين ولحب ما أحب الله تعالى من الطاعات والأعمال والأشياء ومقياس حب الله تعالى طاعته فى الأمر والنهى .

٦ ـ معية الله تبارك وتعالى للمؤمنين بالتأييد والعون والإمداد والتوفيق كما قال تعالى (**وأن الله مع المؤمنين**)[٨] فهى معية خاصة مضافة إلى المعية العامة .

---

(١) سورة المائدة : ٥٥ ـ ٥٦ .
(٢) سورة الأحزاب : ٦ .
(٣) انظر أنوار التنزيل ٢/١٩٠ .
(٤) سورة فصلت : ٣٠ ـ ٣٢ .
(٥) سورة التوبة : ٧١ .
(٦) سورة الحجرات : ١٠ .
(٧) سورة البقرة : ١٦٥ .
(٨) سورة الأنفال : ١٩ .

٧ ـ نصر الله تعالى للمؤمنين كما قال تعالى (**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**)(١) . وكما قال تعالى شأنه (**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**)(٢) وهذا النصر إنما يكون بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة وقد قال القاضى البيضاوى معقبا على هذه الآية الكريمة (أى فى الدارين ولا ينقض ذلك بما كان لاعدائهم عليهم من الغلبة أحيانا ، إذ العبرة بالعواقب وغالب الأمر)(٣) .

٨ ـ العزة للمؤمنين كما قال تعالى شأنه (**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**)(٤) أى : لهم الغلبة والقوة ، وقد نقل الإمام الآلوسى عن سيدى أبى حفص السهروردى ـ قدس الله سره التفريق بين العزة والكبر بما نصه : (العزة غير الكبر لأن العزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه واكرامها أن لا يضعها لأقسام عاجلة كما أن الكبر : جهل الإنسان بنفسه وانزالها فوق منزلتها ، فالعزة ضد الذلة كما أن الكبر ضد التواضع)(٥) .

٩ ـ الرفعة لقوله تعالى (**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**)(٦) قال العلامة البيضاوى (.. « يرفع الله الذين آمنوا منكم » : بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وايوائهم غرف الجنان فى الآخرة)(٧) .

١٠ ـ النجاة من الهلاك فى الدنيا ومن العذاب فى الآخرة . قال تعالى (**ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين**)(٨)

وقال عز شأنه (**يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين**)(٩) إن هذا هو ربح التجارة الإيمانية .. التجارة التى لا تبور .. أنها التجارة المنجية من العذاب الأليم والمخلدة فى النعيم المقيم قوامها : الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله وقد تقدم أن الجهاد من شعب الإيمان فالجزاء مترتب على الإيمان المكتمل .

---

(١) سورة الروم : ٤٧ .
(٢) سورة غافر : ٥١ .
(٣) انظر أنوار التنزيل : ٣٦٩/٢ .
(٤) سورة المنافقون : ٨ .
(٥) انظر روح المعانى ٢٧/ ١١٦ .
(٦) سورة المجادلة : ١١ .
(٧) انظر أنوار التنزيل ٣٦٥/٢
(٨) سورة يونس : ١٠٣ .
(٩) سورة الصف : ١١ ـ ١٣ .

ومن دلالة هذه الآيات الكريمات نستوضح : أن التجارة المنجية من عذاب الله تعالى مبنية على شرط وجزاء فالشرط : هو تحقق الإيمان والجهاد والجواب : غفران الذنوب ودخول الجنات و(ذلك الفوز العظيم) ثم نعمة أخرى منتظمة في سلك الجزاء وهى (نصر من الله وفتح قريب) والبشرى بذلك كله للمؤمنين .

١١ ـ الفلاح : وهو الفوز والظفر بالمطلوب في الدنيا والآخرة وقد حقق الحق تعالى حصول الفلاح للمؤمنين إذ قال جل شأنه (**قد أفلح المؤمنون**)[١] وقد تقدم بيانهم .

١٢ ـ التثبيت بالقول الثابت كما قال تعالى شأنه (**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة**)[٢] ويمقتضى هذا التثبيت الالهى : لا يزل المؤمنون عن دينهم إذا افتتنوا فى الدنيا ـ كأصحاب الأخدود ـ ولا يتلعثمون اذا سئلوا عن معتقدهم فى القبر و في الموقف ، ولا تدهشهم أهوال القيامة[٣] .. اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة واجعلنا من عبادك السعداء بجاه نبيك سيدنا محمد ﷺ .

١٣ ـ شفاعة سيدنا محمد ﷺ فهى محققة لأمته فى الدنيا والآخرة لقوله تعالى : (**من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه**)[٤] وقوله سبحانه (**ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما**)[٥] ، فهذا تشفع به ﷺ وباستغفاره فى الدنيا ـ ولقوله ﷺ ـ فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٥٤٠) عن أبى هريرة (أنا سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الأرض وأول شافع وأول مشفع) اللهم شفع فينا نبيك سيدنا محمد سيد الأنبياء ﷺ وآله وصحبه وتابعيه وورثته الأوفياء الأولياء ياخالق الأرض والسماء .

وأما الثمار التى تنتظر المؤمن فى دار أخراه :

فإن آى التنزيل حافلة بتبشير المؤمنين الصادقين بما وعدهم به ربهم من أصناف العطاء الإلهى الذى لا يحد بمدى ولا يقدر بقدر ولا يدخل فى مكنة العقل استكناه ماهيته[٦] ومن خلال وفرة وتنوع هذا العطاء نقتطف أقرب هذه الثمار إلى متناولنا الآن :

---

(١) سورة المؤمنون : ١ .
(٢) سورة إبراهيم : ٢٧ .
(٣) انظر أنوار التنزيل ١/٤٣٨ .
(٤) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٥) سورة النساء : ٦٤ .
(٦) أعنى بهذا الصنف الأخير الذى يندر تصوره عن طاقة العقل : رؤية البارى جل جلاله إذ هى محققة بلا كيف ولا احاطة ولا جهة ولا مكان ولا بحيز .. الخ هذه المقولات .

١ ـ انتفاء كل من الحزن على ما فات والخوف مما هو آت (**فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**)(١) أى : لا خوف عليهم من العذاب ولا هم يحزنون بفوات الثواب(٢) وهذا الانتفاء إنما هو فى الآخرة لأن المؤمن لا ينبغى له أن يأمن من مكر الله ولا من عذابه طالما هو فى هذه الدار . لكن إذا وصل إلى دار القرار فى حفظ العزيز الغفار فلا خوف عليه من عذاب النار ، فلقد حكى سبحانه قول المؤمنين فى جنات عدن بقوله تعالى (**وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور**)(٣) وقال تعالى : (**ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون**)(٤) .

٢ ـ ظهور نور المؤمن يسعى بين يديه وبيمينه على الصراط كما قال تعالى (**يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير**)(٥) .

٣ ـ **دخول الجنة : ومجرد دخول الجنة ـ بغض النظر مبدئيا عن نعيمها والخلود فيها ـ نعمة كبرى وثمرة عظمى عبر عنها مولانا عز وجل بالفوز إذ قال تعالى (فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز**)(٦) فبحسب داخل الجنة أنه نجا من عذاب النار وأدخل دار الأمان والأطمئنان أيا كان منزله فيها ، ولا يكون دخول الجنة إلا بعد تحقق المنة بتكفير السيئات وغفران الزلات إذ لا تكون التحلية إلا بعد التخلية ، ولذا يقول سبحانه (**ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار**)(٧) .

٤ ـ التنعم بنعيم الجنات مع الخلود فيها : وإنها لجنان ثمان ورد ذكرها جميعا فى القرآن الكريم وهى : جنة الخلد وجنة المأوى وجنة النعيم ودار السلام ودار المقامة وجنة عدن وجنة الفردوس ثم الوسيلة(٨) التى قال عنها سيدنا رسول الله ﷺ ـ فيما رواه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه : (إذا صليتم على فسلوا لى الوسيلة ، قيل يارسول الله وما الوسيلة : قال : أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن

---

(١) سورة الأنعام : ٤٨ .
(٢) انظر أنوار التنزيل : ٢٦١/١ .
(٣) سورة فاطر : ٣٤ .
(٤) سورة الزخرف : ٦٨ .
(٥) سورة التحريم : ٨ .
(٦) سورة آل عمران : ١٨٥ .
(٧) سورة التحريم : ٨ .
(٨) ذكر المفسرون أنها منزلة سيدنا محمد ﷺ وداره فى الجنة وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وبها فسرت الوسيلة ـ على وجه ـ فى قوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) المائدة : ٣٥ انظر تفسير ابن كثير ٩٧/٣ ط الشعب .

أكون أنا هو)[1] ألهم آت سيدنا محمدا ﷺ الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة .

وقد حفل القرآن الكريم بوصف نعيم الجنان الذى تتوق اليه افئدة المؤمنين وتشتاقه قلوب عباد الله الصالحين فقال عز من قائل (**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون**)[2] .

وقال تعالى شأنه (**ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون**)[3] .

ويقول سبحانه (**ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا**)[4] ، وألوان من النعيم يخلد فيها المؤمنون ويحبرون .

٥ . ثم مع نعيم الجنات هناك درجات عند الله تعالى في الآخرة درجات فى القرب الالهى والنعيم الآخروى يرتفع اليها المؤمن فى الآخرة (**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا**[5] .

فالمقصود بهذه الثمرة الإيمانية الأخروية : إنما هو الدرجات العلى التى لا تنال إلا فى الآخرة فهى التى قال عنها الحق تعالى (**ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى**)[6] إنها مراتب فى القرب والنعيم متفاوتة على قدر وصلاح المؤمن وصلته بربه فى دار الدنيا .

- الحاق ذرية المؤمن بدرجته فى الجنة وان كانوا دونه لتقريهم عينه كما قال تعالى : (**والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين**[7] وقد روى البزار - مرفوعا - عن النبى ﷺ أنه قال (ان الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته وان كانوا دونه لتقربهم عينه - ثم تلا هذه الآية

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٢/٢٦٥

(٢) سورة البقرة : ٢٥ .

(٣) سورة الزخرف : ٦٨ - ٧٢ .

(٤) سورة الكهف : ٣١ .

(٥) سورة الإسراء : ١٩ - ٢١ .

(٦) سورة طه : ٧٥ - ٨٦ .

(٧) سورة الطور : ٢١ .

٧ ـ وللمؤمنين ـ في الجنة ـ مايشاءون عند ربهم ـ قال تعالى (.. **والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير**)(١) أى أن لهم ما يشتهون من ربهم من فنون الملذات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولقد روى الحافظ ابن كثير في تفسيره والحافظ السيوطى فى الدر المنثور بالإسناد المتصل عن أبى طيبة أنه قال (ان الشرب(٢) من أهل الجنة لتظلهم السحابة فتقول : ماأمطركم ؟ قال : فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم حتى أن القائل منهم ليقول : أمطرينا كواعب أترابا(٣) .

٨ـ رضوان الله الأكبر وهو الفوز العظيم الذى هو أسمى من الجنات ونعيمها بل : هو المبدأ لكل سعادة وكرامة إلى نيل الوصول والفوز باللقاء(٤) وقد قال تعالى جل شأنه (**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم**)(٥)
وقد أخرج البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ (ان الله يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة ، يقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يارب وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا)(٦) .
اللهم امنحنا رضوانك الأكبر وعطاءك الأوفر وفضلك الجزيل بلا سلب بعد عطاء ياكريم بجاه نبيك الكريم عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

٩ ـ أرفع مراتب النعيم : النظر إلى وجه الله الكريم ، وهو المراد بالزيادة فى قوله تعالى : (**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**)(٧) فقد روى الامام أحمد بسنده عن سيدنا صهيب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (الذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد ياأهل الجنة : إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه . فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم

---

(١) سورة الشورى : ٢٢ .
(٢) أى الجماعة المجتمعون على الشرب وفى الدر المنثور (٥٦) السرب
(٣) انظر تفسير ابن كثير ١٨٧/٧
(٤) انظر انوار التنزيل ٣٥٣/١
(٥) سورة التوبة / ٧٢
(٦) انظر صحيح البخارى (كتاب الرقاق ٩١/٤)
(٧) سورة يونس / ٢٦

الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم)[١] .

اللهم متعنا بالنظر إلى وجهك الكريم بجاه نبيك الكريم ياكريم .

تلك هى أبرز ثمرات الإيمان التى أعدها الله تعالى بمنه وفضله لعباده المؤمنين فى دار الدنيا ودار الآخرة .

(الفصل السابع)
مثل عليا ونماذج رفيعة
للمؤمنين والمؤمنات فى القرآن الكريم

حينما نتدبر آى التنزيل المتعلقة بالإيمان - من جوانبه وزواياه المختلفة - نقف على نماذج شامخة وصور رائعة تتجسد فيها عظمة الإيمان وقوته وروعته والتفانى فى الحفاظ على مبادئه والذود عن حماه ، والإذعان للحق والمضى فى سبيله مهما تراكمت العوائق وتكاثرة العقبات وأدلهمت الخطوب حتى تنجاب الظلمات وتنقشع الغواشى وينشق دجى الليل عن ضياء الفجر مصحوبا بأذان الحق معلنا أن (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) .

وفى تلك النماذج السامية يبدو ألق الصدق وعبير الصفاء واشراقة الروح بسموها ونورانيتها المتألقة : انها الشخصيات الربانية التى اصطفاها الحق تعالى لنفسه ورباها على عينه لتكون منارات هادية وقيادات مرشدة يتأسى بها التواقون إلى النور فى كل عصر ومصر انها نماذج القرآن للإيمان .

ولقد ساق لنا الذكر الحكيم هذه المثل الإيمانية والنماذج الشخصية عبر الرسالات السماوية المتعددة ليؤكد أن نور الإيمان الحق يسرى فيها وينتظمها جميعها .. وسنسوق من هذه المثل ما يجسد عظمة الإيمان وروعته على امتداد الرسالات السماوية عبر أحقاب التاريخ حتى جاءت الرسالة المحمدية الخاتمة الكاملة المكملة لخير أمة أخرجت للناس فسطعت أنوارها وتجلت مثاليتها الوضاءة فى صحابة واتباع سيد المرسلين ﷺ .

وهاهى تلك المثل الإيمانية التى تقدمها من كتاب الله تعالى من خلال التاريخ الإيمانى كله :

---

(١) أنظر المسند ٤ /٣٣٣ .

أولا : مثل من الأمم السابقة : ونذكر منهم :

١ - سحرة فرعون : وهم الذين قص علينا القرآن الكريم قصتهم الايمانية فى أكثر من موضع فى التنزيل فمرة فى سورة (الأعراف) وأخرى فى (طه) وثالثة فى (الشعراء) ففى سورة الأعراف يقول سبحانه (**ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال ان كنت جئت بآية فأت بها أن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وانكم لمن المقربين قالوا ياموسى اما أن تلقى واما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين**)[١] انها قوة الايمان وروعة الإسلام .

٢ - امرأة فرعون (آسية) ومريم ابنة عمران رضى الله عنهما مثلان رفيعان للمرأة المؤمنة المحصنة يقول تعالى شأنه : (**وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين**)[٢] ولقد قال سيدنا رسول الله ﷺ (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[٣] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٠٣ - ١٢٦ واقرأ نفس القصة فى سياقين آخرين فى سورة (طه) الآيات ٥٦ - ٧٥ وفى سورة الشعراء : الآيات ١٠ - ٥١ .

(٢) سورة التحريم : ١١ - ١٢ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الأطعمة من صحيحه ٣ /١٩٨ .

وقال ﷺ (حسبك من نساء العالمين : مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون)[١] .

٣ـ الحواريون : وهم صفوة أصحاب سيدنا عيسى ـ على نبينا الأعظم وعليه الصلاة والسلام ـ وتسميتهم مأخوذة من الحور وهو البياض الخالص ، وقد سموا بذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم ، وقيل كانوا ملوكا يلبسون البياض وقد استنصر بهم سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام من اليهود ، وقيل : كانوا قصارين يحورون الثياب أو يبيضونها[٢] . ماذا قال الله تعالى في شأنهم ؟ قال تعالى : « **فلما أحس عيسى منهم[٣] الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين**)[٤] أي : مع الشاهدين بوحدانيتك أو : مع الأنبياء الذين يشهدون لاتباعهم ، أو : أمة سيدنا محمد ﷺ فانهم شهداء على الناس)[٥] .
وقال تعالى : (**وإذ أوحيت[٦] إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون : إذ قال الحواريون ياعسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين**)[٧] وقد روى الإمامان : الطبري وابن كثير ـ في شأن المائدة ـ عن الامام ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : (نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا اذا شاءوا)[٨] .
كما عرض القاضي البيضاوي لبعض الأقوال الأخرى في شأن نزول المائدة . فمما قاله في هذا الصدد :.. وقيل : لما وعد الله انزالها بهذه الشريطة : استعفوا وقالوا : لانريد ، فلم تنزل .
وعن مجاهد : أن هذا مثل ضربه الله لمقترحي المعجزات .
وعن بعض الصوفية[٩] : المائدة ههنا : عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٧٠٣/٥) وقال (هذا حديث صحيح) .
(٢) أنظر أنوار التنزيل ١ / ١٤٠ .   (٣) الضمير المجرور لبني إسرائيل .
(٤) سورة آل عمران : ٥٢ ، ٥٣ .   (٥) أنظر أنوار التنزيل ١ / ١٤٠ .
(٦) أي أمرتهم على ألسنة رسلي (أنوار التنزيل ١ /٢٥١) .
(٧) سورة المائدة : ١١٥ .   (٨) أنظر تفسير ابن كثير ٢٢٢/٣ .
(٩) يفيد هذا النقل عن بعض الصوفية أن الامام البيضاوي كان صوفي النزعة حيث جعل الصوفية من مصادره في التفسير مع الإذعان لأقوالهم النورانية دونما تعقيب عليها بالنكران .

الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن . وعلى هذا : فلعل الحال : أنهم رغبوا فى حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها . فقال لهم عيسى - عليه الصلاة والسلام - ان حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها ، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه ، فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله سبحانه أن انزاله سهل ، ولكن فيه خطر وخوف عاقبة ، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعل لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالا بعيدا)[1] .

لقد أنبأ هذا التفسير الإشارى عن حقيقة الحواريين من خلال درس سلوكى رفيع .

٤ - أصحاب الكهف والرقيم[2] : نموذج قرآنى آخر للمؤمنين الصادقين ، ويتمثل فى فتية من أشراف الروم أرادهم (دقيانوس) على الشرك فأبوا وثبتوا على الإيمان بالله تعالى وأووا إلى الكهف فأحاطهم الله تعالى بعنايته ورعايته وقواهم بالصبر والتمسك بالحق ونشر لهم من عظيم رحمته فخرق لهم العوائد وأظهر فيهم ولهم الكرامات البينات وجعلهم آية من آيات الله وحديثا خالد الذكر فواح الأريج ومثلا رائعا للمؤمنين الموقنين .

يقول ربنا جل شأنه فى قصتهم من سورة (الكهف) - التى عنونت باسم موضع أحداث تلك القصة الإيمانية :

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا فضربنا على آذانهم[3] فى الكهف سنين عددا ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين[4] أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الهاً لقد قلنا إذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا . وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا . وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين[5] وإذا

---

(١) انظر أنوار التنزيل للامام البيضاوى رضى الله عنه ٢٥٦/١ .

(٢) الكهف : هو الغار الواسع فى الجبل ، والرقيم : أما اسم الجبل أو الوادى الذى فيه كهفهم أو اسم قريتهم أو كلبهم ، أو لوح رصاصى أو حجرى رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف .

(٣) المعنى : ضربنا عليها حجابا يمنع السماع أى أنمناهم أنامة لا تنبههم فيها الأصوات .

(٤) المراد بالحزبين : الفريقان المختلفان فى مدة لبثهم فى الكهف .

(٥) أى : تميل الشمس عن كهفهم وقت طلوعها إلى اليمين لئلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لأن الكهف كان جنوبيا (انظر تفسير البيضاوى ٤/٢) .

غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه[١] . ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليامرشدا . وتحسبهم أيقاظا وهم رقود . ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال[٢] وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد[٣] لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا . وكذلك بعثناهم[٤] ليتساءلوا بينهم . قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم . قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة[٥] فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا . إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا . وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم . قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا[٦] . سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا)[٧] ، [٨] .

أنها قصة قلوب اجتمعت على الإيمان وتمردت على الكفر والعصيان فلم تخش فى الله بطشا ولا تنكيلا ، ولم تكن عزلتهم عن قومهم إلا نفرة من ظلمة الشرك وفرارا إلى الله تعالى بدينهم لينشر لهم مولاهم من رحمته .

وفى الكهف كانت الآيات البينات والكرامات الظاهرات .

ثانياً : مثل إيمانية عليا من الأمة المحمدية :

ونأتى إلى أكرم الأمم على الله تعالى : إلى خير أمة أخرجت للناس ، إلى أمة الرسول الأعظم سيدنا محمد ﷺ ، فنجد أشرف المثل الإيمانية وأعظمها : ونقف أمام قمم شامخة ورواسى ثابتة على الإيمان واليقين ، والنور المبين ، فنسجل لها التنزيل آيات تشهد بالمجد والفخار وعلى رأس تلك المثل العليا :

---

(١) أي فى متسع من الكهف - فى وسطه - بحيث ينالهم روح الهواء ولا يؤذيهم كرب الغار ولا حر الشمس .
(٢) أي نقلبهم فى رقدتهم كيلا تأكل الأرض ما يليها من أجسادهم .
(٣) أي : بفناء الكهف .
(٤) أي كما أنمناهم آية بعثناهم آية دالة على كمال قدرتنا .
(٥) الورق : الفضة . والمدينة : طرسوس .
(٦) قال الإمام النسفي فى تفسيره (٣ /٧) : (... « قال الذين غلبوا على أمرهم » : من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم « لنتخذن عليهم » على باب الكهف « مسجدا » يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم) .
(٧) المعنى : لا تجادل فى شأن الفتية إلا جدالا ظاهرا غير متعمق فيه ولا تسأل أحدا من أهل الكتاب عن قصتهم .
(٨) سورة الكهف : ٩ - ٢٢ .

١ - الصديق الأعظم سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

أنه الصاحب الأول لسيدنا رسول الله ﷺ : ورفيقه فى الغار وفيه نزل قوله تعالى **(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)**(١) .

ان هذه الآية الكريمة ـ كما يقول القرطبى(٢) ـ تضمنت فضائل الصديق رضى الله عنه :

١ ـ لأنها حققت وصف الصحبة له فى كتاب الله تعالى ، ومن ثم قال بعض العلماء : من أنكر أن يكون عمر وعثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله ﷺ : فهو كذاب مبتدع ومن أنكر أن يكون أبو بكر رضى الله عنه صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لأنه أنكر نص القرآن(٣) .

٢ ـ ولأنها أثبتت نصرة الصديق رضى الله للنبى ﷺ وانفراده بهذه المنة العظمى فى هذا الموطن الجليل .

ولذا قال الامام سفيان بن عيينة (خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التى فى قوله (إلا تنصروه)(٤) .

ومن ثم قال بعض المفسرين فى تفسير الآية الكريمة (.. فقد نصره الله بصاحبه فى الغار بتأنيسه له وحمله على عنقه وبوفائه ووقايته له بنفسه ومواساته له بماله)(٥) .

وقال سيدنا الامام الليث بن سعد رضى الله عنه (ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبى بكر الصديق)(٦) .

٣ ـ كما أثبتت الآية الكريمة لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه معية خاصة مع الله تعالى ورسوله ﷺ ومن ثم نقل القرطبى عن الامام المحاسبى رضى الله عنه أنه قال فى قوله تعالى (إن الله معنا) (يعنى معهما بالنصر والدفاع لا على معنى ما عم به الخلائق)(٧) .

وفى هذه الآية الكريمة سر لطيف كشف عنه أبو بكر بن العربى بروايته عن جمال الإسلام أبى القاسم أنه قال (قال موسى ﷺ ، كلا إن معى ربى سيهدين ، وقال

---

(١) سورة التوبة : ٤٠ .
(٢) أنظر تفسيره ١٤٦/٨ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفسه ص ١٤٣ .
(٥) نفس المصدر .
(٦) نفس المصدر .
(٧) نفس المصدر .

فى محمد ﷺ ، لا تحزن إن الله معنا ، لا جرم لما كان الله مع موسى وحده ارتد أصحابه بعده فرجع من عند ربه ووجدهم يعبدون العجل . ولما قال فى محمد ﷺ (إن الله معنا) بقى أبو بكر مهتديا موحدا عالما جازما قائما بالأمر فلم يتطرق إليه اختلال[1] .

وسيدنا أبو بكر هو الذى شهد له التنزيل بالفضل إذ قال تعالى : **(ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا)[2] وهو الذى شهد له التنزيل بالتصديق والتقوى فقال تعالى : (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين)[3] .**

قال الحافظ السيوطى : (.. وأخرج ابن جرير والباوردى - فى معرفة الصحابة - وابن عساكر من طريق أسيد بن صفوان - وله صحبة - عن على بن أبى طالب قال : (والذى جاء بالصدق ، محمد ﷺ ، وصدق به ، أبو بكر رضى الله عنه ، هكذا الرواية بالحق ولعلها قراءة لعلى رضى الله عنه)[4] أنه الصديق الأكبر والمدافع الأول عن الدعوة الإسلامية المحمدية ، وقد روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ؟ قال : رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبى ﷺ وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه وخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ فقال : (اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟؟)[5] رضى الله عنك ياثانى اثنين يا صديق سيدنا رسول الله ﷺ .

٢ - المهاجرون والأنصار :

أروع المثل الإيمانية الصادقة ، وتلك شهادة القرآن الكريم لهم بعظمة التفانى فى نصرة الله ورسوله ﷺ وبروعة الإخاء فى الله تعالى .

قال تعالى شأنه : **(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم)[6] .**

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ١٤٧/٨ .
(٢) سورة النور : ٢٢
(٣) سورة الزمر : ٣٣ - ٣٤
(٤) أنظر الدر المنثور ٣٢٨/٥ وتفسير القرطبى ٢٥٦/١٥ .
(٥) أنظر صحيح البخارى ١٩٥/٢ .
(٦) سورة الحشر : ٨ - ١٠

بالعظمة الإيمان فى قلوب المهاجرين والأنصار . صنوان من الطراز الأرفع فى الإيمان والتضحية والإيثار ، فهؤلاء المؤمنون المهاجرون من صحابه سيدنا رسول الله ﷺ ما أخرجهم من ديارهم وأموالهم إلا ابتغاء فضل الله ورضوانه ونصرة الله ورسوله فتجسد فيهم صدق الإيمان واليقين .

وهؤلاء الأنصار الأخيار الذين تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان تجسد فيهم الحب فى الله تعالى فأحبوا إخوانهم المهاجرين ولم يجدوا فى أنفسهم حسدا أو حزازة من تميزهم عليهم فى الفيء ونحوه بل تجاوزوا هذه السماحة إلى القمة فآثروهم على أنفسهم حتى مع إلمام الخصاصة والحاجة بهم ، وهاك المثل الأرفع فى الإخاء الذى يفوق بروعته كل ما راود أحلام الفلاسفة من مثاليات نظرية .

روى البخارى بسنده عن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال : لما قدموا المدينة[1] آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع قال[2] لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالا فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها . قال : بارك الله تعالى لك فى أهلك ومالك . أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع ، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدوّ ، ثم جاء يوما وبه أثر صفرة فقال النبى ﷺ مهيم[3] ؟ قال : تزوجت قال : كم سقت إليها ؟ قال نواة من ذهب أو وزن نواة من ذهب)[4] وأمثلة وأمثلة تشع بأضواء التربية الإيمانية المحمدية المثلى .

٣ - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه : وفيهم قال الحق جل شأنه (**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما**)[5] أخرج الإمام أحمد[6] ومسلم والترمذى والنسائى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : عن أنس بن النضر - سميت به ، ولم يشهد مع النبى ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال : فى أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع . قال :

---

(١) أى : لما قدم المهاجرون .

(٢) القائل سيدنا سعد بن الربيع .

(٣) أى : ما حالك وشأنك .

(٤) أنظر صحيح البخارى ٢/٢٠٦ ط محمد عبد اللطيف .

(٥) سورة الأحزاب : ٢٣ - ٢٤ .

(٦) انظر المسند ٣/١٩٤ وتفسير القرطبى ١/١٩٥ وروح المعانى ٢١/١٧٠ وتفسير ابن كثير ٦/٣٩٣ - ٣٩٤ ط الشعب . والرواية فى المصدر الأخير أقرب إلى ما فى المسند مع تصحيح ما ألم بنسخ المسند من اضطراب فى السند وزيادة تكرار لفظ (قال) فى المتن .

فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد . فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا عمر : أين ؟ واها لريح الجنة أجده دون أحد . قال : فقاتلهم حتى قتل ، قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية .

فقالت أخته ـ عمتي الربيع ابنه النضر ـ فما عرفت أخي إلا ببنانه ، ونزلت هذه الآية (**من المؤمنين .. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه**[1] **ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**) قال : كانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه) .

وفي تفسير قوله تعالى (فمنهم من قضى نحبه ..) الخ . يقول الإمام القرطبي : (أي : منه من بذل جهده على الوفاء بعهده حتى قتل مثل حمزة ، وسعد بن معاذ وأنس بن النضر وغيرهم ، ومنهم من ينتظر الشهادة وما بدلوا عهدهم ونذرهم)[2] .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه أنه قال : وقد قيل له : حدثنا عن طلحة . (ذاك امرؤ نزل فيه آية من كتاب الله (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) وكان سيدنا طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه وقد ثبت يوم أحد حتى أصيبت يده)[3] .

٤ ـ أصحاب النبي ﷺ عامة : وهم الذين قال فيهم[4] جل شأنه : (**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما**)[5] .

لقد أثبت القرآن الكريم في هذه الآية المباركة هذه الصفات الحسنى والمناقب العظمى :

١ ـ انهم ـ من منطلق الإيمان به ـ والتشرف بمعيته والتأدب بآدابه ﷺ : أشداء على

---

(١) النحب الوقت والمدة ويطلق على الموت : كما يطلق على النذر والعهد وهو الأنسب لسياق الآية الكريمة .

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٤/١٦٠ .

(٣) انظر أسباب النزول للواحدي بتحقيق السيد صقر ص ٣٧٢ وتفسير الأمام الألوسي ٢٦/١٧١ .

(٤) يرى الإمام ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالذين معه : من شهد الحديبية بينما يرى الجمهور أن المراد بهم جميع أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم أجمعين (تفسير الألوسي ١٠/١٢٣) .

(٥) سورة الفتح : ٢٩ .

الكفار ، أي غلاظ عليهم كالأسد على فريسته كما أمر الحق تعالى بقوله : (**يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة**)(١) .

٢ ـ وأنهم رحماء بينهم ، إذ بقدر ما فيهم من غلظة وشدة على أعداء الدين تمتلىء قلوبهم بالرحمة والرقة والرأفة والمحبة لإخوانهم المؤمنين كما قال تعالى : (**فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**)(٢) .

ولقد بلغ من تشدد الصحابة رضوان الله عليهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أن تمس أبدانهم .

كما بلغ من تراحمهم فيما بينهم : أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه . روى ذلك الامام الحسن رضى الله تعالى عنه(٣) .

٣ ـ كما وصفهم بكثرة العمل والعبادة والتقرب إلى الله عز وجل بالصلاة التى هى خير الأعمال ومعراج الوصول إلى ملك الملوك جل وعلا .

٤ ـ ونعتهم بالإخلاص لله تعالى فى عبادتهم وابتغائهم منه سبحانه وتعالى الفضل والرضوان ..

٥ ـ كذلك وسمهم سبحانه فى وجوههم بعلامات يعرفون بها ـ فى الدنيا والآخرة ـ أنهم سجدوا لله تعالى وهذه العلامات هى :

(أ) إما الآثار الحسية التى تحدث فى جباه السجاد من كثرة السجود ، وقد كان كل من العليين ـ سيدى على زين العابدين بن مولانا الامام الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وسيدى على بن عبد الله بن العباس رضى الله عنهم اجمعين ـ يقال له : ذو الثفنات لأن كثرة سجودهما أحدثت فى مواقعة منهما أشباه ثفنات البعير(٤) .

(ب) وإما هى السمت الحسن وخشوع يبدو على الوجه كما قاله الامام ابن عباس رضى الله عنه(٥) .

(جـ) وإما هى : بياض وصفرة وبهيج يعترى الوجه من السهر . كما روى الامام الحسن وغيره(٦) .

(د) وإما هى : النور الذى يغشى وجوههم يوم القيامة كما رواه الطبرانى وابن مرذويه بسند حسن عن أبى بن كعب قال : (قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : « سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » : النور يوم القيامة)(٧) .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٣ (٢) سورة المائدة : ٥٤

(٣) انظر روح المعانى للامام الألوسى ١٢٣/٢٦ .

(٤) انظر البحر المحيط لابى حيان ٨ ـ ١٠٢ .

(٥) نفس المصدر . (٦) نفس المصدر .

(٧) انظر روح المعانى للامام الألوسى ١٢٥/٢٦ .

وقد عقب الامام الألوسي ـ قدس الله سره ـ على هذا بقوله (ولا يبعد أن يكون النور علامة في وجوههم في الدنيا والآخرة لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم : خصه النبي ﷺ بالذكر وإذا صح الحديث فهو مذهبي)[١] وأقول هذا هو القول ونعم قائلة .

٦ ـ ثم لقد أثبت الحق ـ تعالى شأنه ـ مثل هؤلاء الصحابة الأكرمين ووصفهم الرائع العجيب الشأن الجارى في الغرابة مجرى الأمثال السائرة في كل من التوراة والانجيل . وهذا المثبت في الكتابين الالهيين السابقين إما مثل واحد ـ كما ذهب إليه مجاهد والفراء ـ وهذا المثل هو وصفهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم .. الخ والمبين بالتمثيل المستأنف (كزرع) الخ .. وإما مثلان ـ كما قال الامام ابن عباس رضي الله عنهما ـ أحدهما مثبت في التوراة وهو ما ذكر أولا من نعوتهم الجليلة ـ وعليه يكون الوقف على التوراة . وثانيهما : مثبت في الانجيل وهو (كزرع أخرج شطأه ..) الخ .

وهذا هو الرأى الأرجح لأنه مؤيد بما روى عن قتادة من قوله : (مثل أصحاب النبى ﷺ في الانجيل مكتوب : أنه سيخرج من أمة محمد ﷺ قوم ينبتون نباتا كالزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[٢] .

ونقل ابن كثير عن الامام مالك رضى الله تعالى عنه أنه قال : (بلغنى أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون ، والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا) وعقب ابن كثير بقوله : وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها : أصحاب رسول الله ﷺ وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ولهذا قال ههنا : (ذلك مثلهم في التوراة) ثم قال : (ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه أى : فراخه[٣] .

(فآزره) : أى شده (فاستغلظ) : أى : شب وطال (فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى : فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطء مع الزرع (ليغيظ بهم الكفار)[٤] .

---

(١) نفس المصدر .
(٢) انظر : البحر المحيط لابى حيان ١٠٢/٨ وروح المعانى للامام الألوسى ١٢٦/٢٦ .
(٣) يطلق الشطء في اللغة على فرخ الزرع والنخل وعلى ورق الزرع وعلى الطرف وعلى السنبل .
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٣٤٣/٧ .

ثم قال عز من قائل (**وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم**[١] مغفرة وأجرا عظيما) ألحقنا الله تعالى بهم وحشرنا فى معيتهم المباركة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

تلك هى المثل العليا والنماذج الرفيعة للمؤمنين نختتم بها موضوع الإيمان[٢] فى القرآن العظيم ، وأسأل الله تعالى بجاه رسوله الأعظم سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه الأكرمين أن يثبت قلوبنا على الإيمان والإسلام والاحسان حتى نلقاه فى زمرة أحبابه المؤمنين اللهم آمين .

★ ★ ★

(١) نص جمهرة المفسرين على أن (من) هنا : لبيان الجنس لا للتبعيض . لأنهم كلهم بالصفة المذكورة .

(٢) مما يجدر التنويه اليه : أن موضوع الإيمان فى التنزيل قد اقتضى منا هذا التوسع فى البحث نظرا لسعة اطاره الموضوعى ولتشعب جوانبه التى يعد كل منها موضوعا قائما برأسه .

الباب الثانى
التقوى فى القرآن الكريم

وفى نور الذكر الحكيم وفى هدى البيان النبوى الكريم : نتعايش مع التقوى ونقتات من زادها - الذى هو خير الزاد - كما تعايشنا مع الإيمان فى القرآن الكريم ، وتضلعنا من ينبوعه النورانى الزاخر بالعطاء ، فالتقوى هى الامتداد الحيوى للإيمان وهى نتاجه وثمرته وهى مقياس تحقق حقيقته وإن شئت فقل : إنها حقيقة حقه .

ولأن الحقيقة أخص من الحق - لأنه لبه وسويداء قلبه[1] - فإن العلاقة بينها وبينه هى العموم والخصوص المطلق ، فكل تقى مؤمن وليس كل مؤمنا تقيا ، ومن ثم : كان تحقق التقوى مقياسا صادقا لاكتمال الإيمان فى قلب المؤمن كما قال سبحانه (**قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**)[2] أى : إن صدقتم فى ادعاء الإيمان والإسلام فاتقوا الله ، فإن ذلك مما يوجب التقوى[3] .

ولأن التقوى هى امتداد الإيمان وثمرته العظمى ونتاج هداه : قال تعالى (**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**)[4] فالتقوى فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ممن وفقهم للإيمان الكامل ، والأتقياء خاصة عباد الله المؤمنين ، ومن ثم كانت التقوى مع الايمان هما ركيزتا الولاية الخاصة لله عز وجل حيث قال تعالى (**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم**)[5] .

ونقول : الولاية الخاصة : لأن ثمة ولاية عامة هى لعامة المؤمنين ومبناها هو الإيمان وحده كما قال تعالى (**الله ولى الذين آمنوا**)[6] فإذا ما انضمت التقوى إلى الإيمان ارتقى المؤمن بهما الى أوج الولاية التى يمن الله تعالى بها على خاصة عباده وهم ورثة

---

(١) آية ذلك قوله ﷺ لسيدنا حارثة - فى الحديث الذى أوردناه فى مقاييس الإيمان - أن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟) الخ .

(٢) سورة المائدة : ١١٢ .

(٣) أنظر ارشاد العقل السليم للامام ابى السعود ٢/٧٣ .

(٤) سورة (محمد) : ١٧ .

(٥) سورة يونس : ٦٢ - ٦٤ .

(٦) سورة البقرة : ٢٥٧ .

الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليه أجمعين ، وهم الذين وعدهم الحق تعالى بالبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وبالفوز العظيم .

كذلك قصر الحق تعالى ولايته الخاصة على عباده المتقين فقال تعالى شأنه (**إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**)[١] .

لهذا الارتباط الوثيق بين الإيمان والتقوى : ارتأينا ـ بتوفيق الله تعالى ـ إردافها به فى البحث الموضوعى فى التنزيل لتستجمع معالم الإيمان فى إطاره الخاص وذروته العليا (التقوى) . وللتقوى فى القرآن العظيم جانب موضوعى رحيب يتجلى فيه جوهرها وحقيقتها وتتضح فى إطاره معالمها وأبعادها ويتاح ـ بالوقوف عليه ـ استكناه خصائصهاوخصالها وإدراك خوافيها ومراميها ، ورؤية مدارجها ومراتبها . ثم التعرف على نتاجها وثمارها .

لقد حفل التنزيل بإبراز هذه المعطيات للتقوى فى مواطن شتى بالغة الكثرة من آياته البينات النيرات ، حيث وردت مادة (التقوى) وما تفرع واشتق من أصلها اللغوى (وقى) وفى ثمانية وخمسين ومائتين موضعا من التنزيل[٢] .

وقد تكشف لنا بالبحث ـ بتوفيق الله تعالى ـ أن الجوانب الرئيسية لهذا الموضوع فى القرآن تتمثل فى أربعة :

أولها : حقيقة التقوى ومنزلتها من الدين .

ثانيها : مراتبها ودرجاتها .

ثالثها : جوانبها وشعابها .

رابعها : نتاجها وثمارها .

وسنسلط فيما يلى ضوء البحث على هذه الجوانب الموضوعية فى التنزيل الحكيم فأقول وبالله التوفيق .

الفصل الأول : حقيقة التقوى :

للتقوى حقيقة لغوية ـ وردت بها فى الاستعمال اللغوى ـ وحقيقة شرعية استعملت بها فى لسان الشرع الشريف وبها نطق الكتاب والسنة وهى محل بحثنا التفسيرى .

---

(١) سورة الأنفال : ٣٤ .

(٢) من هذه المواضع تسعة عشر موضعا وردت بها مشتقات الولاية بدون إبدال الواو تاء ، وباقى المواضع بالإبدال . والاحصاء من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ص ٧٥٨ ـ ٧٦١ .

فأما حقيقتها اللغوية : فهي اسم على (فعلى) مأخوذ من وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء[1] . والوقاية في أصل اللغة : هي الصياغة والحفظ[2] وتطلق على الدفع وعلى التجنب والحذر[3] وكذلك تطلق مجازا على الخوف من حيث هو أصلها ومنشؤها .

قال الراغب في (مفرداته) : (الوقاية : حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره يقال : وقيت الشيء أقيه وقاية ووقاء ، قال (فوقاهم الله[4] (ووقاهم عذاب الجحيم)[5] [6] .. ومالهم من الله من واق)[7] (مالك من الله من ولي ولا واق)[8] (.. قوا أنفسكم وأهليكم نارا)[9] .

والتقوى : جعل النفس في وقاية مما يخاف . هذا تحقيقه .

ثم يسمى الخوف تارة : تقوى ، والتقوى خوفا حسب تسمية الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه)[10] .

وإذا كانت التقوى - في أصلها اللغوي - تعني الصيانة والحفظ - كما رأينا - فإنها وردت في التنزيل بمعان شتى لها بالمعنى اللغوي الحقيقي وشائج وعلائق كالسببية والمسببية واللزومية ونحو ذلك . يقول الإمام الرازي في تفسيره - بعد تبيان المعنيين اللغوي والشرعي للتقوى - (واعلم أنّ التقوى هي الخشية ، قال في أول (النساء) : « **يأيها الناس اتقوا ربكم** » ومثله في أول (الحج) وفي الشعراء (**إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون**)[11] يعني : ألا تخشون الله ؟ وكذلك قال هود وصالح ولوط وشعيب لقولهم[12] . وفي العنكبوت : قال إبراهيم لقومه « اعبدوا الله واتقوه »[13] يعني : اخشوه وكذا قوله « اتقوا الله حق تقاته »[14] « **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** »[15] « **واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا** »[16] [17]) .

---

(١) الوقاية - بفتح الواو وكسرها وضمها والوقاء بفتح الواو وكسرها - وكذلك الوقي - بفتح الواو وسكون القاف - والواقية : كلها مصادر للفعل (وقى) . كذلك يرى ابن الأعرابي : أن التقاة والتقية والتقوى والاتقاء : واحد وعليه تكون التقوى مصدرا (انظر لسان العرب ٢٠/٢٨١ ، ٢٨٢) .

(٢) وقد عرفها القاضي البيضاوي في اللغة بأنها : فرط الصيانة . وتعقبه الشهاب بقوله (وفيما قاله شيء لأن المذكور في كتب اللغة : تفسيرها بالحفظ والصيانة وما ذكره من الزيادة زيادة) انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ١/١٩٧ .

(٣) أنظر اللسان ١٠/٢٨١ - ٢٨٢ .

(٤) سورة الإنسان : ١١ .

(٥) في نص (المفردات) خطأ بالنسخ حيث أبدلت السعير بالجحيم .

(٦) سورة الدخان : ٥٦ .

(٧) سورة الرعد : ٣٤ .

(٨) سورة الرعد : ٣٧ .

(٩) سورة التحريم : ٦ .

(١٠) أنظر مفردات الراغب ص ٥٣٠ .

(١١) الآية : ١٠٦ .

(١٢) أنظر الآيات : ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٧٧ من سورة الشعراء .

(١٣) سورة العنكبوت : ١٦ .

(١٤) سورة آل عمران : ١٠٢ .

(١٥) سورة البقرة : ١٩٧ .

(١٦) سورة البقرة : ٤٨ .

(١٧) أنظر مفاتيح الغيب : ١/٢٦١ .

لقد عزا الإمام الفخر التقوى فى هذه الآيات الكريمات إلى الخشية مع أنه قد فسر بعضها فى موضعه تفسيرا آخر[١] . وذلك من قبيل تسمية الشيء بمقتضيه كما مر بنا ، ثم إنه يعود فيقول فى نفس الموضع من تفسيره الكبير . واعلم أن حقيقة التقوى - وإن كانت هى التى ذكرناها إلا أنها قد جاءت فى القرآن الكريم والغرض الأصلى منها : الإيمان تارة والتوبة أخرى والطاعة ثالثا ، وترك المعصية رابعا والأخلاق خامسا .

أما الإيمان فقوله تعالى ، وألزمهم كلمة التقوى ، أى التوحيد ، **أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى**[٢] وفى الشعراء (.. **قوم فرعون ألا يتقون**)[٣] أى : ألا يؤمنون .؟ وأما التوبة فقوله ، **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ..**[٤] أى تابوا .

وأما الطاعة : فقوله فى (النحل) : (**أن انذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون**)[٥] وفيها أيضا : (**أفغير الله تتقون**)[٦] ؟ وفى المؤمنون) : (**وأنا ربكم فاتقون ..**)[٧] .

وأما ترك المعصية : فقوله : (**وأتوا البيوت من أبوابها واتقو الله**)[٨] أى : فلا تعصوه وأما الإخلاص : فقوله فى (الحج) ، **فإنها من تقوى القلوب**[٩] أى : من إخلاص القلوب ، فكذا قوله ، **وإياى فاتقون**[١٠] .

وهكذا يعرض فخر المفسرين لاستعمالات التقوى فى القرآن الكريم لتبدو معانيها آخذة من شرب الأصل اللغوى ومتدفقة فى حياض المعنى الشرعى ، ومن هذا المنطلق ننتقل إلى بيان .

الحقيقة الشرعية للتقوى :

لقد تعددت وتنوعت الآثار والأقوال والآراء فى بيان حقيقة التقوى الشرعية وتجسيدها من مناظير شتى ورؤى متفاوتة فى الإحاطة بجوهرها واستجماع معالمها إلا أنها بهذا الثراء والتنوع تحقق تضافرا فى تصوير الحقيقة من سائر جوانبها ومعالمها ومن ثم : سنعرض لنخبة من تلك التعاريف والأقوال الشارحة للتقوى التى تضمنتها التفاسير المختلفة والمصادر الحافلة لنقف على مقربة من الحقيقة .

ولقد تراءى لنا أن نصنف تلك التعاريف بحسب الجامع المشترك بينها ، حيث تتلاقى

---

(١) انظر مثلا تفسيره للتقوى فى قوله تعالى ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، بأنها : معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه تعالى . (مفاتيح الغيب ٢/١٦٨) .

(٢) سورة الحجرات : ٣ .

(٣) سورة الشعراء : ١١ .

(٤) سورة الأعراف : ٦٩ .

(٥) سورة النحل : ٢ .

(٦) سورة النحل : ٥٢ .

(٧) سورة المؤمنون : ٥٢ .

(٨) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٩) سورة الحج : ٣٢ .

(١٠) سورة البقرة : ٤١ .

كل زمرة منها فى إطار كلى واحد ، وتتعدد الرؤى وتتنوع العبارات فى داخل هذا الإطار .

فثمة اتجاه يرمى إلى تعريف التقوى بالجانب السلبى - وهو جانب الترك والتجنب والصيانة - فحسب .

ومن ثم يكون متعلق[1] التقوى حينئذ : هو المحظورات والمناهى والآثام الشرعية وفى هذا الاتجاه تعاريف كثيرة للتقوى ، نجد من أبرزها :

١ - تعريف سيدنا على بن أبى طالب - كرم الله وجهه ورضى عنه - الذى أورده الفخر فى تفسيره وهو : التقوى : ترك الاصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة[2] .

٢ - تعريف سيدى أبى يزيد البسطامى - رضى الله عنه - الذى أورده أبو السعود فى تفسيره وهو (التقوى هو التورع عن كل ما فيه شبهة[3] .
وهو مستقى من قول الحبيب المصطفى ﷺ (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه[4] ونظيره قول سيدنا عبد الله بن سيدنا عمر رضى الله تعالى عنهما (لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك فى الصدر)[5] .

وفى إطار مفهوم الورع أيضا يعرف شهر بن حوشب[6] : المتقى بأنه : من يترك مالا بأس به حذرا من الوقوع فيما فيه بأس[7] .

٣ - تعريف أبى عبد الله الروزبارى - الذى نقله عنه الإمام القشيرى رضى الله عنهما وهو : (التقوى : مجانبة ما يبعدك عن الله)[8] .

٤ - تعريف ابى القاسم النصراباذى - رضى الله عنه - وهو (التقوى أن يتقى العبد ما سوى الله عز وجل)[9] .

---

(١) نعنى بالمتعلق هنا : متعلق التقوى المباشر ، وهو متعلق الترك والصيانة وإلا فمن الممكن تعلق التقوى المباشر . من هذا الجانب السلبى - بالأوامر تعلقا غير مباشر بان يتقى ترك الأوامر - فيكون سلب السلب ايجابا .

(٢) انظر مفاتيح الغيب : ١٦١/١ .

(٣) انظر ارشاد العقل السليم ٢٦/١ .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان من صحيحه ١ /١٣ .

(٥) أنظر صحيح البخارى : ٦/١ .

(٦) هو التابعى الجليل شهر بن حوشب الاشعرى الشامى المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، قرأ على الامام ابن عباس رضى الله عنهما وكان كثير الرواية حسن الحديث ترجمه ابن العماد فى شذرات الذهب ١١٩/١ .

(٧) انظر تفسير ابن السعود ٢٢/١ . (٨) انظر الرسالة القشيرية ١٧٩/١ . (٩) نفسه ٢٧٨/١ .

٥ ـ تعريف سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه الذى أورده فى تفسيره وهو : (التقوى) ألا يجد الخلق فى لسانك عيبا ، ولا الملائكة فى أفعالك عيبا ، ولا ملك العرش فى سرك عيبا)[١] .

٦ ـ تعريف سيدى أبى العباس بن مسروق الطوسى رضى الله عنه قال (التقوى : ألا تمد عينيك إلى زهرة الدنيا ولا تتفكر بقلبك فيها)[٢] .

٧ ـ تعريف الإمام الغزالى رضى الله عنه الذى أورده عن شيوخ الصوفية رضوان الله عليهم أجمعين وهو : (التقوى : هى تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى تحصل لك من قوة العزم على تركها[٣] وقاية بينك وبين المعاصى)[٤] وقد رجح حجة الإسلام هذا التعريف للتقوى على غيره فى تعليقه عليه باستدلال قرآنى رائع بقوله : (فهذه هى الحقيقة فى التقوى دون الأولين[٥] . ألا ترى أن الله تعالى يقول **(ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون)**[٦] .

ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى فعلمت أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهى تنزيه القلب عما ذكرناه[٧] .

٨ ـ تعريف الإمام ابى السعود العمادى للتقوى ـ فى تفسيره ـ بقوله (والتقوى فى عرف الشرع عبارة عن كمال الترقى عما يضره فى الآخرة)[٨] وقد تبعه فيه الامام الألوسى .

الاتجاه الثانى فى تعريف التقوى :

تعريفها بالجانب الإيجابى وهو جانب الإيجاد والفعل ، وإذا كان الاتجاه الأول يظاهره دلالة الأصل اللغوى لمادة الوقاية فإن هذا الاتجاه يؤيده صياغة (الافتعال) من المادة والعدول به عن صياغة الفعل) وذلك : لأن الافتعال له معان منها الإجاد ، قال اللغويون ومنه : اتقى[٩] .

---

(١) مفاتيح الغيب : ١/١٦١ .
(٢) طبقات الصوفية للسلمى ٢٤١ .
(٣) أى على ترك الذنوب .
(٤) انظر سراج الطالبين شرح منهاج العابدين ١/٣٤٢ .
(٥) أى دون تعريفها بالخشية والطاعة .
(٦) سورة النور : ٥٢ .
(٧) انظر سراج الطالبين ١/٣٤٦ ، ٣٤٧ .
(٨) انظر تفسير ابو السعود ١/٢٢ .
(٩) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ١/١٩٧ .

وفي هذا الاتجاه نجد جملة من التعاريف من بينها :

١ ـ تعريف سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ـ الذى رواه عنه الشعبى ـ وهو : (التقوى : كرم الخلق وطيب المطعم)[١] .

٢ ـ تعريف الضحاك بن مزاحم ـ الذى أورده عنه الطبرى ـ من قوله (والتقوى : عمل بطاعة الله)[٢] .

٣ ـ تعريف الواقدى ـ الذى أورده عنه الفخر فى تفسيره ـ وهو (التقوى : أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق)[٣] .

٤ ـ تعريف الامام سهل بن عبد الله التسترى ـ رضى الله عنه ـ وهو (التقوى : مشاهدة الأحوال على قدم الانفراد) .

قال صاحب (التعرف) معناه : أن يتقى مما سوى الله : سكونا إليه واستجلاء له[٤] .

الاتجاه الثالث :

تعريف التقوى بالجانبين ـ السلبى والإيجابى ـ معا ـ

وهو منحه الكثير من المفسرين والعلماء لاشتماله على التخلية والتحلية فى إطار معرف واحد ، ولذا نجد كثرة وافرة من التعاريف المندرجة تحت هذا الاتجاه :

١ ـ فالحقيقة الشرعية للتقوى عند سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما هى : (الحذر من الله وعقوبته فى ترك ما عرف من الهدى ، والرجاء لرحمته فى التصديق بما جاء به)[٥] .

٢ ـ وعند سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه هى : (أن يطاع الله فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر)[٦] .

٣ ـ وعند سيدنا الحسن البصرى رضى الله عنه هى (ألا تختار على الله سوى الله ، وتعلم أن الأمور كلها بيد الله)[٧]

---

(١) انظر طبقات الصوفية لابى عبد الرحمن السلمى ص ١٠٨ .

(٢) انظر جامع البيان ٢٨١/٢ ط الحلبى .

(٣) انظر مفاتيح الغيب ١٦٣/١ .

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ طه عبد الباقى ص ٩٨ .

(٥) انظر تفسير الطبرى ٩٩/١ ط الحلبى والدر المنثور للسيوطى ٢٤/١ وجامع العلوم والحكم لابن رجب ص ١٤٩ .

(٦) رواه ابن كثير موقوفا وصحح اسناده ثم رواه مرفوعا الى النبى ﷺ وخرجه عن الحاكم فى مستدركه الذى صححه على شرط الشيخين أنظر تفسير ابن كثير ٧١/١ ـ ٧٢ .

(٧) انظر مفاتيح الغيب : ١٦١/١ .

٤ ـ وعند سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه هى (ترك ما حرم الله تعالى وأداء ما فرض الله سبحانه)[١] .

٥ ـ وعند طلق بن حبيب رضى الله عنه هى : (العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله وترك معاصى الله على نور من الله مخافة عذاب الله)[٢] .

٦ ـ وعند الإمام الجنيد رضى الله عنه هى (أن لا يراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك)[٣] .

٧ ـ وعند الإمام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه هى (التبرؤ من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى والرجوع إلى الله والافتقار الى حول الله تعالى وقوته)[٤] .

٨ ـ وعند الإمام شهاب الدين أبى عبد الله عمر السهروردى رضى الله عنه هى : (الاحتماء عن مساخط المولى والتحرز عن المخاوف والتشمير للوظائف[٥] وقد أردف رضوان الله عليه هذا التعريف بشرح حقيقة التقوى قائلا : (.. التقوى حفظ النفس عما يؤثمها) .

ثم اتفق العلماء على أن التقوى هى : الاقتداء برسول الله ﷺ قولا وفعلا ، ظاهرا وباطنا فالقول : التمسك بأقواله والفعل متابعته فى افعاله والظاهر : محافظة الحدود والباطن الخوف والإخلاص .

أجل : هذا هو فصل الخطاب فى شرح مضمون التقوى فى الشرع : الاقتداء التام بسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ والتزام منهاجه الرضاء ظاهرا وباطنا فى جميع ماجاءنا عن ربه عز وجل .

٩ ـ ثم نجد ـ فى هذا الاتجاه أيضا ـ الامام فخر الدين الرازى ـ رضى الله عنه ـ يعرف حقيقة التقوى فى تفسيره قائلا (والتقوى فى عرف الشرع والقرآن عبارة عن : فعل الواجبات وترك المحظورات)[٦] وعلى هذا أيضا : درج كثير من العلماء فى تبيان

---

(١) انظر تفسير ابى السعود ٢٢/١ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ١١٩/١ ، والدر المنثور ٢٤/١ (واللفظ له مخرجا عن ابن ابى حاتم وغيره) .
(٣) انظر نتائج الافكار سهل القدسية فى بيان معانى شرح الرسالة القشيرية ١٤٨/٢ .
(٤) انظر : تفسير الامام التسترى ص ٨ ط الحلبى وتفسير أبى السعود ٢٢/١ .
(٥) انظر (جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب) للامام السهروردى ص ١٢ ط حلب وانظر توثيق نسبته له فى فهرس الخزانة التيمورية ١٤٧/٣ .
(٦) انظر مفاتيح الغيب ١٦٩/٢ .

مضمون التقوى بأنه امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه سبحانه(١) ، والمحققون منهم : على شمول الأوامر لجميع المندوبات والقربات وعلى شمول المنهيات لجميع الصغائر والمكروهات(٢) .

وبعد تبيان هذه الاتجاهات الثلاثة فى تعريف التقوى - فى الشرع - نستطيع أن نتبين - بجلاء - : انسحاب المدلول اللغوى للتقوى وهو الحفظ والصيانة - واستبطانه فى جميع التعاريف الاصطلاحية والشرعية ، إذ مؤداها جميعا ما حققه الراغب من جعل النفس فى وقاية مما يخاف .

كذلك - نتحقق - بجلاء من أن الدعامة الرئيسية التى تقوم عليها التقوى الشرعية إنما هى الخوف من الله تعالى لذاته أو لعقابه ، فخوف الغضب أو العذاب هو الدافع إلى فرط الصيانة من موجباته من فعل أو ترك ، ومن ثم : يفرغ التقى وسعه وجهده فى الاحتماء من مساخط المولى عز وجل ونحوها والتشمر لوظائف العبادة والعبودية لله تعالى حيث يجد العبد ذاتيته الربانية فى التخلى عما يشغل عن الله عز وجل والتحلى بصحبة الحق تعالى على قدم الاقتداء بسيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين .

« الفصل الثانى »

منزلة التقوى من الدين :

ومن المنطلق القرآنى والبيان المحمدى نتعرف منزلة التقوى من الدين(٣) : فمن آى التنزيل نستطلع شرف مكانة التقوى فى إطار الدين الشامل . إنها الأصل الأصيل لقواعد الدين والجامع الشامل لأركانه وشعابه وفروعه ثم هى الثمرة اليانعة التى تحتل ذروة شجرة الإسلام ، هى الماء السارى بالحياة فى أصل الشجرة والمتدفق فى عروقها والصاعد الى ذروتها فى عنان السماء .

من ثم كانت التقوى هى وصية رب العالمين للأولين والآخرين . قال تعالى (**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله**)(٤) **وهى صنو التوحيد فى رسالة الله ووحيه الذى نزل به ملائكته على رسله ليبلغوها للناس . قال تعالى (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا**

---

(١) انظر تفسير ابن عطية ١/١٤٤ وحاشية الجمل على الجلالين ١/١١ - ١٢ وشرح النبراوى على الاربعين النووية ص ٧١ وقد أكد ابن رجب الحنبلى هذا الاتجاه بانه هو الحقيقة وأن العدول عنه الى الاقتصار على الجانب السلبى انما هو من قبيل التغليب فقال فى جامع العلوم والحكم (ص ١٥٠) (وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال ابو هريرة - وسئل عن التقوى - فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟ قال : نعم - قال فكيف صنعت ؟ قال : إذا رأيت الشوك عزلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه ، قال : ذاك التقوى) .

(٢) انظر حاشية السيد الشريف الجرجانى على الكشاف (١/١٢٠) وانظر : روح المعانى للامام الالوسى ١/١٠٨ وحاشية الشهاب على البيضاوى ١/١٩٨ .

(٣) ستعرف المزيد عن منزلة التقوى لدى الوقوف على ثمارها عبر السطور القادمة .

(٤) سورة النساء : ١٣١ .

فاتقون) قال البيضاوى فى تفسيرها (والآية تدل على نزول الوحى بواسطة الملائكة وأن حاصله : التنبيه على التوحيد الذى هو منتهى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى الذى هو أقصى كمالات القوة العملية)(١) .

ومن ثم أمر الحق تعالى عباده بالتقوى فى أكثر من ثمانين موطنا فى التنزيل(٢) . وقد جعل سبحانه (التقوى) هى غاية العبادة بأسرها إذ قال عز من قائل : **(ياأيها الناس اعبدو ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)**(٣) .

قال العلامة البيضاوى فى تفسيرها (نبه به : على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو : التبرى من كل شيء سوى الله تعالى الا الله)(٤) .

وناهيك بحديث النبى ﷺ الذى رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن رجلا جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك(٥) : أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض)(٦) صدقت ياسيدى يارسول الله وأعظمت النصيحة صلى الله عليك وآلك وصحبك وورثتك وسلم عدد كمالاتك الحسنى وكفاء ما أسديت من فضل للعالمين . ثم : لقد جسد لنا الصادق المصدوق ﷺ منزلة التقوى فى حديث آخر مروى عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - بلفظ : (عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ..)(٧) قال الحافظ المناوى فى شرحه (أى أنها - وإن قل لفظها - كلمة جامعة لحقوق الحق وحقوق الخلق)(٨) .

وأخرج الترمذى عن يزيد بن سلمة الجعفى أنه قال : يارسول الله إنى قد سمعت منك

---

(١) انظر انوار التنزيل ٤٥٢/١ .

(٢) ورد الأمر بصيغة (اتق) ثلاث مرات وبصيغة اتقين) مرة وبصيغة (اتقوا) تسع وستين مرة وبصيغة (فليتقوا) مرة واحدة وبصيغة (اتقون) اربع مرات وبصيغة (قوا) مرة واحدة فجملتها : اربع وثمانون مرة والاحصاء من المعجم المفهرس ص ٧٥٨ - ٧٦٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢١

(٤) أنظر أنوار التنزيل ٣٠/١ .

(٥) قال الحافظ ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم ص ١٥٠ : وخرج الامام أحمد من حديث ابى سعيد الخدرى قال : قلت يارسول الله أوصنى . قال : أوصيك ..) .

(٦) انظر المسند ٨٢/٣ .

(٧) أخرجه الحافظ السيوطى من مسند ابى يعلى عن ابى سعيد . انظر التخريج فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٣٦/٤٣ كما أخرجه الامام القشيرى فى الرسالة القشيرية ٢٧٧/١ بسنده المتصل .

(٨) نفس المصدر الاسبق .

حديثا كثيرا أخاف أن ينسيني أوله آخره فحدثني بكلمة تكون جماعا . قال (اتق الله فيما تعلم)[1] .

ومن ثم كانت التقوى . لأنها رأس الدين وجماع أصوله وآدابه . هي وصية سلفنا الصالح . رضوان الله عليهم أجمعين . فكان سيدنا أبو بكر الصديق . رضي الله عنه . يقول في خطبته (.. أما بعد : فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين »)[2] [3] .

وكتب سيدنا عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . إلى ابنه سيدنا عبد الله (أما بعد : فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه من اتقاه وقاه ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك)[4] .

واستعمل سيدنا علي بن ابي طالب . كرم الله وجهه ورضي عنه . رجلا على سرية فقال له (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بد لك من لقاه ولا منتهى لك دونه : وهو يملك الدنيا والآخرة)[5] .

لقد أوصى أئمة سلفنا الصالح . رضي الله عنهم أجميعن وجمعنا بهم في عليين . بالتقوى من منطلق عرفانهم لمنزلتها في كتاب الله تعالى ، فهي خير الزاد للمعاد . قال تعالى (**وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولي الألباب**)[6] وهي خير لباس لقوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)[7] ثم هي مناط التفاضل في المنزلة عند الله تعالى (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)[8] .

وفيما يلي من مباحث التقوى : مزيد تعرف على شرف منزلتها في الإسلام وعظمة مكانتها في القرآن الكريم .

« الفصل الثالث »

مراتب التقوى ودرجاتها :

عني أئمة المفسرين لآي التنزيل ، الفاقهين عن الله تعالى بتبيان مراتب التقوى وشرح منازلها ودرجاتها من منطلق فهمهم لحقيقتها وبصرهم بمرامي التنزيل في تجسيد مراتبها في معارج الكمال ومدارج الفلاح التي تكفل التنزيل بإبرازها ليهتدي اليها أولوا البصائر والألباب ممن حظوا بشرف الخطاب من لدن قس الجناس (**واتقون يأولي الألباب**)[9]

(١) انظر سنن الترمذي : كتاب العلم ٥/٤٩ .
(٢) سورة الأنبياء : ٩٠ .
(٣) انظر جامع العلوم والحكم ص ١٥٠ . ١٥١ ط الحلبي .
(٤) نفس المرجع .
(٥) نفس المرجع .
(٦) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٧) سورة الأعراف : ٢٦ .
(٨) سورة الحجرات : ١٣ .
(٩) سورة البقرة : ١٩٧ .

(**فاتقوا الله يأولى الألباب الذى آمنوا قد أنزل الله اليكم ذكرا**)[١] .

لقد أبرز الإمام البيضاوى ـ قدس الله سره ـ بثاقب عرفانه القرآنى مراتب التقوى لدى بيان مدلول (المتقى) عند تفسير قوله تعالى (هدى للمتقين) فقال : (وهو ـ فى عرف الشرع ـ اسم لمن يقى نفسه مما يضره فى الآخرة ، وله ثلاث مراتب :

الأولى : التوقى من العذاب المخلد ، بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى (**وألزمهم كلمة التقوى**)[٢] .

الثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك ـ حتى الصغائر عند قوم ، وهو المتعارف باسم التقوى فى الشرع والمعنى بقوله تعالى (**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ..**)[٣] .

الثالثة : أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق (سبحانه وتعالى)[٤] ويتبتل إليه بشراشره[٥] وهو التقوى الحقيقى المطلوب بقوله (**اتقوا الله حق تقاته**)[٦] وقد فسر قوله (**هدى للمتقين**) ههنا على الأوجه الثلاثة)[٧] .

وقد أخذ العلامة أبو السعود فى تفسيره هذه المراتب برمتها من شيخه البيضاوى وعلق على أعلاها بساطع بيانه المشرف المنبىء عن مشاركته لشيخه فى مذاقه الصوفى النورانى الرفيع فقال : (ولهذه المرتبة عرض عريض فيتفاوت فيه طبقات أصحابها حسب تفاوت درجات استعدادهم الفائضة عليهم بموجب المشيئة الإلهية المبنية على الحكم الأبية أقصاها : ما انتهى إليه همم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث جمعوا بين رياستى النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح عن العروج إلى معالم الأرواح ولم يصدهم الملابسة بمصالح الخلق عن الاستغراق فى شئون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية المؤيدة بالقوة القدسية .

وهداية الكتاب المبين : شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين[٨] .

ونجد فى رسالة الامام الجليل ابى القاسم القشيرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ اشراقا فيضيا يبين عن نسبية مراتب التقوى لأهلها فيقول ـ قدس الله سره ـ :

التقوى على وجوه :

---

(١) سورة الطلاق : ١٠ . (٢) سورة الفتح : ٢٦ . (٣) سورة الأعراف : ٩٦ .

(٤) مضافة منى للتنزيه ولبيان أنه تعالى هو المراد بالحق .

(٥) الشراشر : فى الأصل : والمراد بها : النفس ، والمعنى ينقطع إليه بكليته ونفسه . انظر : حاشية الشهاب ١٩٨/١) .

(٦) سورة آل عمران : ١٠٢ . (٧) انظر أنوار التنزيل ١٣/١ .

(٨) انظر : ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : ٢٦/١ .

للعامة ، تقوى الشرك ، وللخاصة : تقوى المعاصي ، وللأولياء : تقوى التوسل بالأفعال وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال ، إذ تقواهم منه إليه[1] .

وللإمام الغزالي ـ قدس الله سره ـ تصنيف آخر لمنازل التقوى ـ نقله عن شيوخه ـ في « منهاج العابدين » فقال : (ثم قالوا ـ رحمهم الله ـ منازل التقوى ثلاث : تقوى عن الشرك ، وتقوى عن البدعة ، وتقوى عن المعاصي الفرعية . ولقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في آية واحدة ، وهي قوله جل من قائل : (**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا**)[2] .

فالتقوى الأولى : تقوى عن الشرك والإيمان الذي في مقابلتها : التوحيد .
والتقوى الثانية : عن البدعة ؛ والإيمان الذي ذكر معها : إقرار عقود السنة والجماعة .

والتقوى الثالثة : عن المعاصي الفرعية ـ ولا إقرار في هذه المنزلة ـ فقابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها فتكون منزلة مستقيمي الطاعة ، فالآية جمعت ذكر المنازل الثلاث منزلة الإيمان ومنزلة السنة ومنزلة استقامة الطاعة ، فهذا ما قاله العلماء رحمهم الله في بيان لمعنى التقوى)[3] .

ثم نجد منهاجا رابعا ـ في تصنيف مراتب التقوى في التنزيل ـ يضيفه الامام العارف سيد أحمد بن عجيبة الحسني ـ رضي الله عنه ـ في تفسيره الفريد (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) فيقول عليه سحائب الرضوان :
والمتقي : من جعل بينه وبين مقت الله وقاية وله ثلاث درجات :
ـ حفظ الجوارح من المخالفات .
ـ وحفظ القلوب من المساوىء والهفوات .
ـ وحفظ السرائر من الوقوف مع المحسوسات .
فالأول : لمقام الإسلام وإليه توجه الخطاب (**فاتقوا الله ما استطعتم**)[4] .
والثانية : لمقام الإيمان وإليه توجه الخطاب بقوله (**فاتقوا الله يأولي الألباب**)[5] .
والثالثة : لمقام الإحسان وإليه توجه الخطاب بقوله (**اتقوا الله حق تقاته**)[6] [7] .

ولقد أوضح الإمام ابن عجيبة المقامات الثلاثة في تفسيره لقوله تعالى (**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا**

(١) انظر الرسالة القشيرية : ٢٨٢/١ . (٢) سورة المائدة : ٩٣ .
(٣) انظر سراج الطالبين للشيخ احسان محمد دحلان ٣٤٧/١ ـ ٣٤٩ ط الحلبي .
(٤) سورة التغابن : ١٦ (٥) سورة الطلاق : ١٠ . (٦) سورة آل عمران : ١٠٢ .
(٧) انظر تفسير البحر المديد الجزء المنشور بمجلة لواء الإسلام العدد الخامس من السنة الثانية والثلاثين) ص ٨ ـ ٩ .

الصالحات ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين)[1] فى تفسيره الإشارى الوضاء فقال :

(المقامات التى يقطعها المريد ثلاثة : مقام الإسلام ومقام الإيمان ومقام الإحسان فمادام المريد مشتغلا بالعمل الظاهر من صلاة وصيام وذكر اللسان سمى مقام الإسلام ، فإذا انتقل إلى العمل الباطن من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية : سمى مقام الإيمان فإذا انتقل من الباطن .. (إلى عمل الروح)[2] من فكرة ونظرة وشهود وعيان : سمى مقام الإحسان ، وهذا اصطلاح الصوفية : سمعوا ما يتعلق بإصلاح الظواهر : إسلاما وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر : إيمانا . وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر : إحسانا[3] .

ومن ثم يتضح لنا أن إطار التقوى شامل لجميع جوانب الدين وأن مراتب التقوى ـ وفقا للمنهج الأخير خاصة ـ هى نفسها مراتب الدين التى وردت فى حديث جبريل عليه السلام وهى الإسلام والإيمان والإحسان .

ومما يؤكد صدق هذا المنهج وسداده : اقتران التقوى ـ بمرتبتها العليا ـ بالاحسان فى أكثر من موضع فى التنزيل ، كما فى قوله تعالى **(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)**[4] قال الامام الألوسى ـ قدس الله سره ـ فى تفسيرها :

(.. والمراد بالمعية : الولاية الدائمة التى لا يحول حول صاحبها شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر ، وما يشعر به دخول كلمة (مع) من متبوعية المتقين من حيث إنهم المباشرون للتقوى والمراد بها هنا : أعلا مراتبها : أعنى : التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق سبحانه والتبتل إليه تعالى بالكلية ، لأن ذلك هو المورث لولايته عز وجل المقرونة ببشارة « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والمعنى : أن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه سبحانه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه عز وجل ، فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن عليه فواتا أو وقوعا)[5] .

ثم يقول قدس الله سره : (وقد نبه سبحانه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان بقوله تعالى « **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** »[6] وحقيقة الإحسان : الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق ، وقد فسره ﷺ بأن تعبد الله كأنك

---

(١) سورة المائدة : ٩٣ .

(٢) ما بين المعقوفتين اضافة مستوحاة من سياق النص كما سيتضح فى الفقرات التالية حيث يوجد تحريف بالنسخ صورته (فإذا انتقل العمل باطن من فكرة) .

(٣) انظر البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد للامام أحمد عجيبة ٢١٩ ط الأولى ١٣٧٦ هـ .

(٤) سورة النحل : ١٢٨ .

(٥) انظر روح المعانى ١٤/٢٥٦ .

(٦) سورة يوسف : ٩٠ .

تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1] ١٠ هـ) .[2] ومن ثم تمثل عليا مراتب التقوى مقام الاحسان .

ولله در الامام العارف أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه إذ قال فى تفسير قوله تعالى : (**يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ..**)[3] .

(.. التقوى : جماع الطاعات ، وأوله : اتقاء الشرك ، وآخره : اتقاء كل غير ، وأول الأغيار : نفسك ، ومن اتقى نفسه : وقف مع الله بلا مقام ولا شهود حال ووقف لله ، لا لشهود حظ فى الدنيا والعقبى)[4] أجل : لقد فنوا فى شهود الحق تعالى عن شهود ما سواه .

إنها درجات الصفوة الخاصة ممن اصطنعهم الحق تعالى لنفسه وآثرهم بقربه واجتلاء أسرار حقائق حضرة قدسه ، إنهم أولوا الدرجات العلى أهل التقى والتزكية والفلاح جعلنا الله تعالى فيهم ومنهم ومعهم فى الدنيا والآخرة .

ثم بعد الوقوف على مراتب التقوى ودرجاتها نقف على :

« الفصل الرابع »

جوانب التقوى وشعابها :

لقد بين القرآن العظيم فى العديد من آياته البينات جوانب التقوى وخصالها المتشعبة فى مختلف تلك الجوانب التى تشمل دوائر الإسلام والإيمان والإحسان .

ونستوضح ذلك جليا فى وصف الله تعالى للمتقين فى كتابه المبين . قال تعالى : (**الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين · الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**)[5] .

لقد تضمنت هذه الأوصاف التى وصف الحق تعالى بها عباده المتقين جوانب ثلاثة : **الجانب الأول : جانب العمل القلبى** وهو الإيمان الذى هو أصل العبادة وأساسها : لتوقف صحتها عليه مع عدم انفكاكه عنها فقال تعالى (**الذين يؤمنون بالغيب**) والغيب فى الآية الكريمة صلة للإيمان[6] وهو مصدر واقع موقع المفعول به ، والمراد بالغيب المؤمن به ههنا : سائر أركان الإيمان التى عرضنا لها تفصيلا فى هذا الكتاب ، وهذا التفسير مأثور ، إذ روى الامام الواحدى رحمه الله تعالى فى تفسيره عن أبى العالية رضى الله

---

(١) من حديث سؤال جبريل للنبى ﷺ عن أمور الدين الثلاثة . انظر صحيح البخارى ١٢/١ .

(٢) انظر روح المعانى ٢٥٩/١٤ .

(٣) سورة النساء : ١ .

(٤) انظر لطائف الاشارات للامام القشيرى ٧/٢ .

(٥) سورة البقرة : ١ ـ ٥ .

(٦) تطلق الصلة فى اصطلاح النحاة على المفعول به بواسطة الحرف كما هنا (انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٢١٦/١) .

عنه أنه قال فى قوله تعالى (**يؤمنون بالغيب**) : يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه وبالبعث بعد الموت . ثم عقب الامام الواحدى برؤيته التفسيرية الموضوعية قائلا : (وكأن هذا إجمال ما فصل فى قوله « كل آمن بالله وملائكته .. » الآية ..)[1] .

وعلى هذا : فقد تضمنت الصفة الأولى من صفات المتقين : الجانب العقدى الإيمانى بما يتضمنه من أركان وشعب .

الجانب الثانى : جانب العمل البدنى ، ويتمثل فى إقامة الصلاة التى هى عماد الدين كما ورد فى الحديث الشريف[2] ، وهى رأس العبادات البدنية لذا وليت الإيمان فى صفات المتقين (**ويقيمون الصلاة**) .

الجانب الثالث : جانب العمل المالى ، ويتمثل فى الزكاة التى هى رأس العبادات المالية وإنما عدل فى وصف المتقين عن التعبير بإيتاء الزكاة الى قوله تعالى (**ومما رزقناهم ينفقون**) ليتناول الأنفاق مما رزقهم الله تعالى : صرف المال فى سبيل الخير من الفرض والنفل ، بل وليتناول الانفاق من غير المال من سائر ما رزق المتقون كالعلم ونحوه ، وفى عموم التعبير تخصيص للمتقين بالمقام الأسمى فى الطاعة لله سبحانه .

وبذا جمعت أوصاف المتقين فى أول سورة البقرة جوانب العبادة ـ الثلاثة ـ لله سبحانه قال العلامة الطيبى ـ رحمه الله تعالى : « الأعمال إما قلبية ـ وأعظمها اعتقاد حقيقة التوحيد والنبوة والمعاد ـ إذ لولاه : كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . أو بدنية وأصلها : الصلاة لأنها الفارقة بين الكفر والإسلام ، وهى عمود الدين والأم التى تتشعب منها سائر الخيرات والمبرات [3] أومالية ، وهى الإنفاق لوجه الله وهى التى اذا وجدت علم الثبات على الإيمان »[4] .

ولننهل من هذا الفيض الربانى والإلهام التفسيرى الصوفى الإشارى المتناول لنعوت المتقين فى التنزيل . يقول سيدى أحمد بن عجيبة قدس الله سره : (ثم وصف المتقين الذين خصوا بهداية كتابه المبين بثلاثة أوصاف فقال (**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**) قلت : هذه الأوصاف تتضمن ثلاثة أعمال ـ الأول :

---

(١) انظر تفسير البسيط للواحدى ـ مخطوط بدار الكتب ـ ١ / ٥٩ .

(٢) أخرجه الشهاب فى حاشيته (١ / ٢٨) عن البيهقى فى الشعب وعن الديلمى فى الفردوس بلفظ (الصلاة عماد الدين) ثم قال : وفى معناه : حديث الترمذى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه (رأس الأمر : الإسلام وعموده الصلاة) .

(٣) والصلاة أيضا مع استتباعها لسائر الطاعات فهى مستتبعة لتجنب المعاصى والمنكرات كما قال تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) سورة العنكبوت : ٤٥ .

(٥) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ١ / ٢٠٨ .

عمل قلبي - وهو الإيمان - والثاني : عمل بدني - وهو الصلاة - والثالث : عمل مالي - وهو الانفاق في سبيل الله .

وهذه الأعمال : هي أساس التقوى التي تدور عليها .

أما العمل القلبي : فهو الإيمان أولا والمعرفة ثانيا[1] ، فمادام العبد محجوبا بشهود نفسه محصورا في الأكوان وفي هيكل ذاته ، فهو مؤمن بالغيب ، ويؤمن بوجود الحق تعالى وبما أخبر به من أمور الغيب ، يستدل بوجود أثره عليه[2] فإذا فني عن نفسه وتلطفت دائرة حسه ، وخرجت فكرته عن دائرة الأكوان : أفضى إلى الشهود والعيان فصار الغيب عنده شهادة ، والملك ملكوتا والمستقبل حالا والآتي واقعا وقد قلت في ذلك :

فلا ترضى بغير الله حبـــا	وكن أبدا بعشق واشتيـــاق
ترى الأمر المغيب ذا عيان	وتحظى بالوصول والتلاقي

وفي الحكم العطائية : « لو أشرق نور اليقين في قلبك لرأيت الآخرة أقرب من أن ترحل إليها ، ولرأيت بهجة الدنيا كسوة الفناء بادية عليها » .

وقال في التنوير « ولو انهتكت حجاب الوهم : لوقع العيان على فقد الأعيان ولأشرق نور الايقان فغطى وجود الأكوان » .

وإنما اقتصر الحق تعالى على الإيمان بالغيب لأنه هو المكلف به ، إذ هو الذي يطيقه جل العباد ، بخلاف المعرفة الخاصة ، فلا يطيقها إلا الخصوص ، والله تعالى أعلم »[3] .

ونقرأ تجسيدا آخر لجوانب التقوى وشعابها في قوله تعالى **(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)**[4] .

لقد استجمعت هذه الآية الكريمة مجامع الكمالات الإنسانية التي يحتويها إطار التقوى

---

(١) هنا يزاوج الامام ابن عجيبة بين الايمان والمعرفة ليخلص الايمان بالجانب الغيبي والمعرفة بالجانب الشهودي الذي هو عين مقام الاحسان وبانضمام العملين البدني والمالي اليهما تشتمل التقوى على مقامات الدين الثلاثة : الإسلام والايمان والاحسان .

(٢) أي يستدل على الله تعالى بآثاره وهي مرتبة دنية عند العارفين فهم يعرفون الله بالله لا بما سواه .

(٣) انظر البحر المديد للامام ابن عجيبه [السلسلة المنشورة بمجلة لواء الإسلام العدد الخامس من السنة الثانية والثلاثين جمادي الأولى ١٣٩٨ » .

(٤) سورة البقرة : ١٧٧ .

ومن ثم ختمت بحصر التقوى فيمن تحقق بها(١) ، ففى الآية الكريمة مقياس حصرى للتقوى كما أن فيها مقياسا حصريا للإيمان : (**أولئك الذين صدقوا**) بيد أن الجملة الحصرية للتقوى فيها مزيد تأكيد للحصر بضمير الفصل : فصلا عن تعريف الطرفين . وذلك أمعن فى الدلالة على تحقق المنعوتين بهذه الأوصاف بالتقوى الجامعة .

فلقد تضمنت الآية الكريمة سبع عشرة خصلة يجمعها إطار (البر) الذى هو اسم جامع لأنواع الخير والطاعات المقربة إلى الله عز وجل ، ويجمعها - من المنطق ذاته - إطار التقوى لتلاقيهما فى المفهوم كما أكده قوله تعالى (ولكن البر من اتقى ..)(٢) أى بر من اتقى المحارم والمآثم والمنهيات .

وتنقسم الخصال المحتواه فى إطار التقوى - فى الآية الكريمة - إلى ثلاثة جوانب رئيسية هى :

الجانب الأول : جانب الكمالات الإنسانية المتعلقة بصحة الاعتقاد ، هو الإيمانى ويشمل : الإيمان بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وقد بدىء هذا الجانب بالمبدأ والمعاد اللذين هما المشرق والمغرب للوجود الإنسانى(٣) .

الجانب الثانى : جانب الكمالات النفسية المتعلقة بحسن المعاشرة مع الخلق ويشمل هذا الجانب ست خصال - تلى الخمسة الأولى - وهى : إيتاء المال - على حبه - ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفى فك الرقاب والأسرى .

الجانب الثالث : جانب الكمالات الإنسانية بتهذيب النفس وتصفيتها .

ويشمل ست خصال : وهى : إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهد الشامل لحقوق الحق تعالى وحقوق خلقه - والصبر فى البأساء - وهى البؤس والفقر - والصبر فى الضراء - وهى : السقم والألم - والصبر حين البأس أى : وقت القتال وجهاد العدو .

وقد وصف المستجمع لهذه الجوانب الثلاثة - بشعابها المتنوعة - بالصدق فى الدين واتباع الحق وطلب البر ، ثم وصف بالتقوى الشاملة لجوانب الدين الثلاثة لحسن معاملته مع الحق تعالى وحسن معاشرته للخلق ، وحسن تهذيبه للنفس ترقيا فى مدراج الفوز والفلاح الأبدى(٤) ومن ثم قال أشرف العالمين سيدنا محمد ﷺ « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان »(٥) .

---

(١) وذلك حيث أفاد ضمير الفصل فى (وأولئك هم المتقون) قصر المسند - وهو « المتقون » - على المسند إليه وهو اسم الإشارة .

(٢) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٣) انظر : روح المعانى للإمام الآلوسى ٢ / ٤٨ .

(٤) انظر أنوار التنزيل ١ / ٨٧ ، وإرشاد العقل السليم ١ / ١٥٠ وروح المعانى ٢ / ٤٨ .

(٥) أخرجه الشهاب فى حاشيته (٢ / ٢٧٢) عن ابن المنذر فى تفسيره عن أبى ميسرة .

الفصل الخامس

صفات المتقين وكمالاتهم النفسية والخلقية

ثم نتعرف المزيد من صفات المتقين وكمالاتهم النفسية والخلقية التي ارتقوا بها إلى مقام الاحسان ونالوا بها محبة الله عز وجل وفازوا بأجر العالمين وذلك في قوله عز من قائل : ﴿ **وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين . قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[1] .

لقد عرض الحق تعالى في هذه الآية الكريمة لصنفين من المتقين وهما : المحسنون والعاملون فوصف الصنف الأول بثلاث صفات من مراتم صفات المتقين .

أولاها : الانفاق في السراء والضراء ـ أي في اليسر والعسر كما روى عن الامام ابن عباس رضي الله عنهما[2] .

ثانيتها : كظم الغيظ ، بمعنى (الكف عن إمضائه مع القدرة وفي فضل هذه الخصلة أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا (من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وايمانا ..)[3] .

وثالثها : العفو عن الناس أي : ترك عقوبة من استحق المؤاخذة ما لم يكن في ذلك اخلال بالدين ، وفي فضل هذه الخصلة : أخرج الحاكم والطبراني عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات : فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه)[4] .

ولقد استوجب المنعوتون بهذه الخلال الشريفة والنعوت الحميدة نوعين من الجزاء :

أولهما : ما صدرت به الآية الكريمة الأولى من مغفرة الله تعالى ومن نعيم لا يقدر قدره في جنة عرضها السموات والأرض أعدها الله تعالى وهيأها للمتقين .

وثانيهما : ما ختمت به الآية الكريمة الثانية من الوصول إلى مقام الإحسان الذي فسره مولانا المصطفى ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[5] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٨ .

(٢) انظر روح المعاني ٤ / ٥٨ .

(٣) انظر الدار المنثور للامام السيوطي ٢ / ٧٢ / ٧٣ وانظر روح المعاني للالوسي ٤ / ٥٨ .

(٤) انظر المصدرين السابقين .

(٥) انظر روح المعاني ٤ / ٩٥ .

ثم : ثبوت محبة الله تعالى لهم (والله يحب المحسنين) وهذه المحبة مترتبة على الإحسان الذاتى - المبين فى الحديث الشريف وهو عبادة الشهود والمراقبة - وعلى الإحسان الوصفى الذى هو عبارة عن : الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق شرعا ، وأيضا على الإحسان بمعنى الإنعام لقد تحقق المتقون بهذه الصفات فاستوجبوا محبة الله تعالى .

وهذا نموذج حى للتقوى المجسدة فى ورثة النبى ﷺ من صفوة آل بيته الكرام رضى الله عنهم وعنا بهم وحشرنا فى زمرتهم وفى بعثتهم المشرقة فى أعلى عالميين .

أخرج البيهقى بسنده[1] عن سيدنا على زين العابدين ابن مولانا الأمام الحسين رضى الله عنهما : أن جارية جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة ، فسقط الابريق من يدها على وجهه الشريف فشجه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت : إن الله يقول (**والكاظمين الغيظ**) قال : لقد كظمت غيظى . قالت : (**والعافين عن الناس**) قال : قد عفا الله تعالى عنك ، قالت (**والله يحب المحسنين**) قال : اذهبى فانت حرة لوجه الله تعالى . إنه الإحسان من معدل الفضل والإحسان .

وإما الصنف الثانى من المتقين : وهم الدانون مرتبة عن المحسنين : فهم العاملون الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم - بما دون الفاحشة من الذنوب الصغائر - ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - بالندم والتوبة - ولم يصروا على ما اقترفوه من الذنوب حالة استغفارهم وهم عالمون بقبحه .

أولئك المتصفون بهذه الصفات الحميدة جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، فضلا عن امتداح الحق تعالى لهم بقوله سبحانه (**ونعم أجر العاملين**) .

وفى هذا التفصيل القرآنى لبيان المتقين وصفاتهم نستوضح ونتبين - فى التقوى - بينهما فرقا كبيرا وبونا بعيدا مع اشتراكهما فى الوصف العام بالتقوى . يقول الإمام الألوسى - رضى الله عنه - : (وكفاك فى الفرق بين القبيلين - وهما : المتقون الذين أتوا بالواجبات بأسرها واجتنبوا المعاصى برمتها ، والمستغفرون لذنوبهم بعد ما أذنبوا وارتكبوا الفواحش والظلم : إنه تعالى فصل آية الأولين بقوله سبحانه وتعالى (**والله يحب المحسنين**) المشعر بأنهم محسنون محبوبون عند الله تعالى ، وفصل آية الآخرين بقوله جل وعلا (**ونعم أجر العاملين**) المشعر بأن هؤلاء أجراء ، وأن ما أعطوا من الأجر جزاء لتداركهم بعض ما فوتوه على أنفسهم وأين هذا من ذاك ، وبعيد ما بين السمك والسماك[2] .

---

(١) انظر التخريج : فى الدر المنثور للامام السيوطى ٢ / ٧٣ وفى المصدر السابق .
(٢) انظر روح المعانى ٤ / ٦٤ .

وعلى الرغم من تفاوت المنزلتين والفريقين في الرتبة والفضل فلا ريب في اشتراكهما معا في استحقاق الثناء الجزيل ، والجزاء العظيم (كل على قدر منزلته) وأن تبيان فضل الأعلى منهما لا ينقص من المفضول حقه فذلك من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) .

فالمرتبتان المذكورتان ههنا - وفقا لما مر بنا من بنا تصنيف الإمام البيضاوي لمراتب التقوى - هما مرتبتان تقوى خواص الخواص ، وتقوى الخواص ، وهذه المنزلة الثانية : المتوسطة بين تقوى الشرك وتقوى ما يشغل عن الله تعالى : ذكرت في مواطن عديدة من التنزيل حاملة خصائصها وسماتها المحددة ، فمن ذلك قوله تعالى (**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**)(١) .

ومنها قوله تعالى (**لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار**)(٢) فالمراد بالتقوى هنا : الاتقاء عن الشرك والمعاصي لذكر المتقين فيه مقابلة الكفار المذكورين قبله(٣) .

وأما تقوى خواص الخواص - وهي تقوى المحسنين - فلها في الذكر الحكيم آيات وآيات حافلة بمحامد الصفات ومجسدة لجوانب التقوى ومعالمها في التنزيل فمن ذلك قوله تعالى : (**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار**)(٤) .

لقد عرضت هذه الآيات الكريمات لسلوك الأتقياء الفائزين بالجنة ونعيمها وبما هو أسمى من ذلك وهو رضوان الله الأكبر ، وفيها تبرز معالم التقوى وخصائصها التي يرتفع العبد بها إلى سماء القرب والوصول .

فأول هذه المعالم : الإيمان الذي توسل به المتقون إلى ربهم في دعائهم لنيل مغفرته والوقاية من عذابه الذي يحجبهم عن شهود جنابه .

وثانيها : الصبر على طاعة الله تعالى والصبر على محارمه .

وثالثها : الصدق في النيات والأقوال والأفعال .

ورابعها : القنوت وهو ملازمة الطاعة والعبادة والقيام بواجبات العبودية لله تعالى .

وخامسها : الإنفاق في سبيل الله تعالى من رزق الله سبحانه .

وسادسها : الصلاة والاستغفار بالأسحار تزلفا وتقربا للعزيز الغفار .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠١ (٢) سورة آل عمران : ١٩٨ .

(٣) انظر روح المعاني ٤ / ١٧٢ . (٤) سورة آل عمران : ١٥ - ١٧ .

وقد استوحى الإمام البيضاوى ـ رحمه الله تعالى ـ من هذا النص الكريم الذى تضمن معالم التقوى وأوصاف المتقين : حصر جوانب السلوك لطريق الله تعالى . ومقامات السالكين فقال عليه الرضوان : (.. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب : فإن معاملته مع الله تعالى : إما توسل وإما طلب .

والتوسل : إما بالنفس ـ وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل ـ والصبر يشملها . وإما بالبدن : وهو اما قولي ـ وهو الصدق ـ وإما فعلي ـ وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة وإما بالمال : وهو الانفاق فى سبيل الخير . وأما الطلب : فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها[1] .

كذلك نجد العلامة البيضاوى يفسر التقوى المأمور بها فى قوله تعالى (**ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**)[2] بمرتبتيها العليا والوسطى تفسيرا ينم عن نزعته الصوفية العرفانية ويشهد بعظمة تحققه وتذوقه واستغراقه فى أنوار التنزيل فيقول عليه الرضوان : (.. « **واتقوا الله لعلكم تفلحون** » : فاتقوه بالتبرى عما سواه لكى تفلحوا غاية الفلاح . أو : واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التى هى : الصبر على مضض الطاعات ومصابرة النفس فى رفض العادات ومرابطة السر جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة)[3] .

ثم عن صفات المتقين المحسنين وأحوالهم يحدثنا القرآن الكريم : (**ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين**[4] **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم**)[5] .

لقد أخبر القرآن الكريم عن المتقين بتحققهم بالاحسان الذاتى والصفاتى فى العبادة كما مر بنا بيانه ـ ثم قص طرفا من عبادتهم لمولاهم وأحوالهم فيها . فذكر أنهم كانوا يحيون الليل كله قياما واستغفارا لربهم[6] .

---

(١) انظر أنوار التنزيل ١ / ١٣٢ .

(٢) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٣) انظر أنوار التنزيل ١ / ١٧٢ .

(٤) يلاحظ اقتران التقوى بصفة الاحسان كقرينة مميزة للمقام الأسمى فى التقوى .

(٥) سورة الذاريات : ١٥ ـ ١٩

(٦) ذكر الامام الالوسى فى تفسير الآية الكريمة : أنه جوز أن تكون (ما) فى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) نافية و (قليلا) منصوب بيهجعون ، والمعنى : كانوا لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله ، وقد رواه ابن أبى شيبة وأبو نصر عن مجاهد (انظر روح المعانى ٢٧ / ٨) .

ولقد كان هذا دأب صحابة النبي ﷺ أخرج الطبرى بسنده فى تفسيره عن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان يحيى الليل صلاة ثم يقول : يانافع ، اسحرنا ؟ فيقول : لا . فيعاود الصلاة فإذا قال نعم : قعد يستغفر الله تعالى ويدعو حتى يصبح[1] .

ثم لقد أخبر الحق تعالى عن المتقين بأنهم استوجبوا على أنفسهم نصيبا لله سبحانه فى أموالهم تقربا إليه عز وجل واشفاقا على الناس من سأل منهم ومن تعفف عن المسألة . ثم نجد أيضا : من أعظم شعاب التقوى وخصالها القلبية التى صرح بها القرآن الكريم : تعظيم شعائر الله تعالى كما قال عز من قائل (**ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**)[2] .

وشعائر الله تعالى هى : دين الله تعالى وأعلام دينه التى شرعها سبحانه لعباده[3] من مناسك الحج ونحوها من كل مايشعر بمحبة الله تعالى وعبادته وتعظيمه فمن هذا القبيل تعظيم القرآن الكريم وأهله وتعظيم النبى ﷺ فإنه من رءوس شعب الإيمان وكذلك تعظيم الكعبة والحرمين وفرائض الحج ومواضع نسكه وكذا البدن[4] التى تهدى فى الحج باعتبارها من معالمه . إذ المقصود من شرعية اهدائها انما هو تعظيم أمر الله تعالى والتقرب إليه كما قال عز من قائل (**لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ماهداكم وبشر المحسنين**)[5] .

ومما هو جدير بالالتفات حقا : أن نرى هذه الشعبة من شعب التقوى - وهى تعظيم شعائر الله - لها فى التنزيل هذه المكانة العظمى (**فإنها من تقوى القلوب**) إذ لم تضف التقوى - فى القرآن الكريم - إلى محلها ومنشئها ومصدرها وهو القلب إلا فى هذا الموطن ، وما ذلك إلا لمكانة تعظيم شعائر الله فى الدين : انه جوهر التقوى ومنشأ شعابها المختلفة ، ولا يتحقق بهذه الشعبة إلا من امتحن الله قلبه فأخلصه للتقوى ، وللتقوى امتحان يجتازه المؤمنون الصادقون ويحبط فيه عمل المخذولين المحرومين عن استشراف الآفاق العليا للإيمان .

ومن شعائر الله التى يمتحن الله بها عباده المؤمنين ليخلص قلوب المصطفين منهم للتقوى : تعظيم النبى ﷺ وتوقيره ، ومراعاة الأدب فى حقه الشريف وغض الصوت فى حضرته وعدم مخاطبته باسمه وكنيته كما يخاطب الناس بعضهم بعضا : بل اذا كان العرف فى التعامل بين الناس أن يحترم بعضهم بعضا ويتخاطبوا باشرف الالقاب فما بالك بأشرف الخلق ﷺ ؟ انه امتحان المؤمنين فى تقوى القلوب ينبه عليها علام الغيوب

---

(١) انظر جامع البيان م / ١٠٨ .

(٢) سورة الحج : ٣٢

(٣) انظر أنوار التنزيل ٢ / ٧٢ - ٧٣ .

(٤) البدن : بسكون الدال بعد الباء المضمومة : جمع بدنة وهى : الابل وقد سميت كذلك لعظم بدنها (انظر نفس المصدر) .

(٥) سورة الحج : ٣٧ .

(يأيها الذين أمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)[٥] .

وفى تفسير هذا الامتحان يقول الإمام البيضاوى رضى الله عنه : (جربها للتقوى ومرنها عليها لو عرفها كائنة للتقوى خالصة لها ، فإن الامتحان سبب المعرفة . واللام صلة محذوف أو للفعل باعتبار الأصل . أو ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة لأجل التقوى ، فإنها لا تظهر إلا بالاصطبار عليها أو : اخلصها للتقوى من امتحن الذهب اذابه وبين ابريزه من خبثه)[٦] وبعد اجتياز المتقين لامتحان التقوى واخلاص قلوبهم بها لله تعالى : لهم من الله تعالى عظيم المغفرة وعظيم الأجر ومن هذا المنطلق نخلص الى :

---

(١) سورة الحجرات : ٢ ـ ٣ .

(٢) انظر أنوار التنزيل ٢ / ٢٢٢ .

الفصل السادس

ثمار التقوى فى القرآن الكريم

أكرم الله تعالى عباده المتقين الذين اصطفاهم واجتباهم لتقواه بأن أعدلهم من صفوف الجزاء الأوفى ما لا يقادر قدره ولا يحاط بمقداره إلا بما شاء من علمه لمن شاء من عباده . وقد سجل القرآن الكريم ألوانا من العطاء وأصنافا من ثمار الجزاء المعد للمتقين فى الدنيا وفى الآخرة ، وسنقدم ههنا من خلال التنزيل بعض ما أعده الحق تعالى للمتقين وما أكرمهم به من ثمار الجزاء .

١ - ولاية الله تعالى - الخاصة - للمتقين ، وهى قصر عليهم دون من سواهم من عامة المؤمنين قال تعالى (**والله ولى المتقين**)[١] وقال عز من قائل (**إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون**)[٢] .

٢ ، ٣ ، ٤ - انتفاء الخوف من لحوق مكروه وانتفاء الحزن لفوات مأمول وتحقق البشرى لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، كما قال جل شأنه (**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم**)[٣] .

وبشرى الأولياء المتقين فى الدنيا : هى ما بشرهم به سبحانه فى كتابه وعلى لسان نبيه الأعظم ﷺ وما يريهم من الرؤيات الصالحة وما يجرى على يديهم من الكرامات وما يسنح لهم من المكاشفات وما تبشرهم به الملائكة عند النزع من النعيم الأبدى .

٥ - العلم اللدنى الذى يعلمه الله تعالى لأحبابه وأصفيائه قال تعالى (**واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم**)[٤] وهو العلم الذى علمه الحق تعالى لعبده الصالح الخضر عليه السلام وسجله التنزيل فى قوله تعالى (**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما**)[٥] .

٦ - الفرقان : قال تعالى (**يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم**)[٦] .

وهذا الفرقان هو : نور وهداية فى القلب يفرق به التقى بين الحق والباطل وذكر بعض المفسرين أنه : نصر يفرق بين الحق والمبطل باعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين . وقيل : هو مخرج للمتقين من الشبهات وقيل : هو نجاة مما يحذره المتقون فى الدارين . وقيل : هو ظهور يشهر أمر المتقين ويبث صيتهم ، من قولهم : بت أفعل كذا حتى سطع الفرقان ، أى الصبح[٧] .

---

(١) سورة الجاثية : ١٩ (٢) سورة الانفال : ٣٤ . (٣) سورة يونس : ٦٢ - ٦٤ .
(٤) سورة البقرة : ٢٨٢ . (٥) سورة الكهف : ٦٥ . (٦) سورة الانفال : ٢٩ .
(٧) أنظر : أنوار التنزيل ١ / ٣٢٧ .

وأقول : وهذه الوجوه جميعا محققة للأتقياء وفوقها من الله المزيد .

٧ - تقبل الأعمال والطاعات والدعاء من المتقين خاصة لقوله تعالى (**إنما يتقبل الله من المتقين**)[١] وأنعم بها من نعمة ينعم الله تعالى بها على عبده التقى ، فكم من الناس يدعو وكم من الناس يطيع وكم من الناس يعمل . ولكن : لا يتقبل الله إلا ممن اتقاه ووالاه ، . ومن هذه الحيثية شرع الله تعالى للمذنب القاصر عن مرتبة المتقين الخواص أن يتوصل بدعائهم ويجاههم عنه الله تعالى لقربهم منه بتقواهم ولقصر القبول عليهم بنص التنزيل الحكيم ، .

فمشروعية التوسل إذا : باب مفتوح من أبواب رحمة الله الواسعة وجبر لقصور العبد القاصر عن مرتبة التقوى ، ولا يمارى فى مشروعية التوسل إلا المضيقون لرحمة الله القاصرون عن إدراك مرامى كلام الله وبحسب التقى من ثمار تقواه أن يتقبل الله منه فتلك مرتبة كان يستشرف لها أكابر سلفنا الصالح ، ولقد روى عن فضالة بن عبيد - فى الرقائق - أنه قال (لأن أكون أعلم أن الله تقبل مثقال ذرة أحب إلىّ من الدنيا وما فيها)[٢] .

٨ - صلاح الأعمال بالتوفيق إليها وبالعون فيها وبالاثابة عليها وغفران ما قد يقع من ذنب فيها - قال عز من قائل - : (**يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما**)[٣] .

٩ ، ١٠ - المخرج من كرب الدنيا والآخرة وغمومها ومضايقهما ، وإرزاق المتقى من حيث لا يحتسب قال تعالى (**ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب**)[٤] لقد وعد الحق تعالى - فى هذه الآية الكريمة - عامة المتقين بالخلاص عن مضار الدارين والفوز بخيرهما من حيث لا يحتسبون[٥] .

١١ - اليسر وتسهيل الأمور مع التوفيق إلى الخير[٦] قال تعالى (**ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا**)[٧] ومن اليسر المراد أيضا : للتخليص من الشدائد والملمات[٨] .

١٢ - تكفير السيئات ومضاعفة ثواب الأعمال الصالحة كما قال عز من قائل : (**ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا**)[٩] .

١٣ - النجاة من النار ومن كل سوء وحزن ، قال تعالى (**ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا**)[١٠] وقال جل شأنه (**وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون**)[١١] .

---

(١) سورة المائدة : ٢٧ . (٢) انظر جامع البيان للطبرى ٣ / ٢٠٨ ط الحلبى .
(٣) سورة الأحزاب : ٧١ ، وانظر تفسير البيضاوى ٢ / ٢٠١ .
(٤) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .
(٥) انظر أنوار التنزيل ٢ / ٣٨٢ . (٦) نفس المصدر والصحيفة .
(٧) سورة الطلاق : ٤ . (٨) انظر نتائج الأفكار القدسية ط / ٢٤٥ .
(٩) سورة الطلاق : ٥ . (١٠) سورة مريم : ٧٢ . (١١) سورة الزمر : ٦١ .

١٤ ـ الوقاية من عذاب الجحيم والتنعم بالجنات والنعيم المقيم . قال تعالى (**إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين**)[١] . ان الجزاء الالهى من جنس العمل لكنه أجزل منه كما وكيفا . فكما يتقى العبد مولاه فى الدنيا يقيه مولاه فى العقبى من العذاب ويجزل له العطاء والثواب ومن العطاء أيضا .

١٥ ـ حسن المآب قال تعالى (**هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ماله من نفاد**)[٢] .

١٦ ـ المفاز . وهو مكان الفوز في الجنة[٣] . قالى تعالى (**إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا**)[٤] .

١٧ ـ جوار الله تعالى : فى مقعد صدق وفى مقام العندية . قال تعالى (**إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر**)[٥] .

وانعم به من جوار وأنعم بها من منزلة . اللهم أنلنا أياها بغير حساب ولا عتاب ولا عذاب ولا عقاب بجاه نبيك سيدنا محمد سيد الأحباب ﷺ وآله وصحابته المتقين أولى الألبا .

١٨ ـ معية الله تعالى : بالكلاءة والحفظ والاعانة والنصرة والتوفيق والتسديد والتأييد . قال عز من قائل (**واعلموا أن الله مع المتقين**)[٦] .

١٩ـ محبة الله عز وجل ومحبوبيته للمتقين . قال جل شأنه (**ان الله يحب المتقين**)[٧] ومن أحبه الله كان الله محبوبه لترتب المحبوبية على الحب كما يوحيه نظم قوله تعالى (**فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه**)[٨] ، بيد أن لقوة التلازم بين الحبين جيء بالواو التى هى لمطلق الجمع .

ومحبة الله تعالى لا يكتنه كنهها ولا يتصور وصفها ، وقصارى تفسير العلماء لها هو : الاتيان بلوازمها ومترتباتها من نحو : إرادة الخير والهدى والتوفيق وحسن الثواب فى الدنيا والآخرة . اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك واجعلنا محبوبين لك ولرسولك الأعظم ﷺ وسائر أحبابك وارزقنا معيتهم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الطور : ٢٠ .　　(٢) سورة ص : ٤٩ ـ ٥٤ .
(٣) أنظر أنوار التنزيل ٢ / ٤٢١ وتفسير الجلالين بهامشه .
(٤) سور النبأ : ٣١ ـ ٣٦ .　　(٥) سورة القمر : ٥٤ ـ ٥٥ .
(٦) سورة التوبة : ١١٢ .　　(٧) سورة التوبة : ٤ .　　(٨) سورة المائدة : ٥٤ .

٢٠ - الكرامة ورفعة المنزلة عند الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى (**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**)(١) ، فالتقوى هى المقياس القرآنى للتفاضل بين الخلق جميعا لأنها مقياس الكمال الذاتى والوصفى اللذين يتم بهما الفضل وعلو المنزلة .

٢١ - التكريم فى الحشر إلى الرحمن : قال تعالى (**يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا**)(٢) ومن مظاهر هذا التكريم : ما روى عن سيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه من أنه قال : فى هذه الآية الكريمة : (ما يحشرون والله على أرجلهم ولكنهم يحشرون على نوق أرجلها الذهب . ونجائب سروجها اليواقيت)(٣) وبحسبهم أنهم يحشرون إلى الرحمن ، ولاختيار هذا الاسم الجليل ههنا بالذات دلالة عظمى على عظيم التفضل والإحسان .

٢٢ - رحمة الله الخاصة : فقد كتبها للمتقين خاصة كما قال تعالى (**ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ..**)(٤) .

والرحمة ههنا للمتقين شاملة للحياتين : الدنيوية والأخروية فهى فى الدنيا : حسن المعيشة وتوفيق الطاعة وفى الآخرة الفوز بالنعيم الأوفر والرضوان الأكبر ، وإننى أرجح شمول الرحمة للحياتين بهذا المعنى . خلافا لمن خصّها بالآخرة . لأن الله تعالى أتى بها فى معرض الرد على اليهود القائلين (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك) فهم قد طلبوا الرحمة باسم الحسنة فى الدارين فناسب أن تعمم فى الرد عليهم : للدارين أيضا ، وأما تقييد الرحمة ههنا بالخصوصية : فلأنها وردت جزاء لخاصة الله من عباده فلهم فيها القدر الأعظم والدرجة القصوى التى لا ينالها غيرهم وإن شاركهم العامة فى مطلق الرحمة .

٢٣ - ارث الجنة : عطاء خاصا وعده الله تعالى فى القرآن الكريم لعباده المتقين خاصة .قال تعالى شأنه وتقدست أسماؤه تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا)(٥) ان التعبير بالإرث ههنا له دلالة خاصة تجتليها فى تفسير الامام البيضاوى . عليه سحائب الرضوان . إذ يقول : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا » نبقيها عليهم من ثمرة تقواهم كما يبقى على الوارث مال مورثه ، والوراثة أقوى لفظ يستعمل فى التمليك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا تبطل برد واسقاط . وقيل : **يورث المتقون من الجنة المساكن التى كانت لأهل النار لو أطاعوا زيادة فى كرامتهم**)(٦) إنه نعيم الله لأحبابه المتقين ولصفوته المقربين جعلنا الله ببركتهم فى زمرتهم فى الدنيا ويوم الدين . اللهم آمين .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣
(٢) سورة مريم : ٨٥ .
(٣) انظر نتائج الأفكار القدسية ١ / ١٤٥ .
(٤) سورة الأعراف : ١٥٦ .
(٥) سورة مريم : ٦٣ .
(٦) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢ / ٣٠ .

الخاتمــة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد أكرم رسل الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد ..

فقد عشنا فى أنوار التنزيل ما شاء الله لنا فى رحاب الإيمان والتقوى اللذين هما دعامتا الولاية لله عز وجل **لتتكامل لدينا - بقدر ما - رؤية بناء الولاية فى القرآن الكريم مشيدا على أرسخ الأسس وأقوم الدعائم** . وما أظننى بعد قد شارفت الغاية فحاشا لله أن يكون لمرامى كلامه نهاية ، وإنما هى خطى وئيدة على طريق العلم الذى لا نهاية له ، وسبحة قصيرة فى بحر علوم التنزيل الذى لا قرار ولا ساحل له .

أسأل الله متشفعا بحبيبه الأعظم سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه وسلم أن يجعل هذا العمل - على الرغم من أمانى النفس الأمارة - خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله فى صحيفتى نورا فى حياتى الأخرى وأن يجعله سبحانه علما ينتفع به ليظل ثوابه مددا متصلا فى الحياة وبعد الممات . وأسأله جلت قدرته أن يحققنى به عملا وحالا كما قدره لى علما ومقالا وأن يحشرنى به فى زمرة العلماء العاملين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله تعالى على رحمته للعالمين سيد الأنبياء والمرسلين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما بقدر عظمة ذات الله فى كل وقت وحين والحمد لله رب العالمين .

الفقير إلى الله تعالى
أ . د / جودة محمد أبو اليزيد المهدى
عميد كلية القرآن الكريم
للقراءات وعلومها بطنطا

فهرس الموضوعات

رقم الايداع
١٩٩٥/٩٨٦٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر